دكتور محمد كامل حسين

بكلية الآداب — جامعة فؤاد الأول

أدب مصر الإسلامية

(عصر الولاة)

الناشر

دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قد يكون موضوع هذا الكتاب جديدا ، فالكتاب والمؤرخون المحدثون لم يعنوا بدراسة الحياة الفكرية والأدبية بمصر الإسلامية عنايتهم بدراسة الحياة الفكرية والأدبية فى غير مصر من الأقطار الإسلامية ، مع أن القدماء وجهوا إلى مصر عناية خاصة ، فالواقدى وأبو اسحق الأموى وغيرهما وضعوا كتابا فى «فتوح مصر» وزار المسعودى مصر وتحدث عنها فى مروج الذهب ، ووضع الصولى كتابا فى «شعراء مصر» وجعل الثعالبى فى يتيمته بابا خاصا لشعراء مصر ، وهكذا كان القدماء أبر بمصر من المحدثين ، ولا أدرى سبب تقصير الباحثين عن دراسة الحياة الفكرية والأدبية بمصر الاسلامية سوى وهمهم أن مصر الاسلامية لم تنتج أدبا يضارع أدب الشام أو العراق ، وما ضر هؤلاء لو بحثوا عن الأدب المصرى وأثبتوا ما وهموه ، أما انزواؤهم عن البحث لفكرة اختمرت فى أذهانهم فهو النقص بعينه ، فلا شك أن مصر كانت مركزا هاما من مراكز الفكر الإسلامى منذ دخلها العرب فاتحين ، واستقروا بها ونشروا فى مصر الدين الإسلامى واللغة

العربية ، وامتزج العرب بالمصريين فتأثر العرب بمصر ، وتأثر المصريون بالعرب وكان نتيجة هذا المزج هو الشعب المصرى الإسلامى تتمثل فيه خصائص العرب والمصريين ، وخضع هذا الشعب لعوامل الشخصية المصرية والبيئة المصرية وظهر ذلك واضحا فى تفكيره وفى أدبه .

وقد كان لعلماء مصر أثر فى غيرهم من العلماء ، فقد اعتمد كل المؤرخين فى حديثهم عن مصر على ابن عبد الحكم ومحمد بن زكريا الغلابي وعمار بن وسيمة المصرى والكندى وابن زولاق وغيرهم من مؤرخى مصر ، وأخذ فقه الشافعى عن المصريين كما كان أجل أصحاب مالك وتلاميذه من أهل مصر ، وعن محدثى مصر روى البخارى ومسلم والنسائى وغيرهم ، وعن علماء مصر أخذ علماء الأندلس والمغرب العلوم الاسلامية والعربية ، فمصر إذن كانت عظيمة الحظ من الحياة العقلية وسايرتها الحياة الأدبية من شعر ونثر ، ولكن الحياة الأدبية فى مصر استغرقت زمنا طويلا حتى ازدهرت ولا غرابة فى ذلك ، فانتقال مصر بعد الفتح الإسلامى وتطور الحياة فيها لم يأت دفعة واحدة ، فقد كانت مصر مسيحية الدين فأصبحت إسلامية ، وكانت يونانية وقبطية اللغة فأصبحت عربية ، وكل هذا احتاج إلى زمن طويل حتى استقر هذا التطور وتم امتزاج العرب بالمصريين ، ومع ذلك فقد ظهرت بواكير الحياة الأدبية المصرية إبان هذا الانتقال والتطور مما بشر بازدهار حياة

أدبية خصبة ابتداء من العصر الطولونى ، وبدأ النضوج الأدبى واستمر فى العصر الفاطمى وما يليه .

وهذا الكتاب بحث من أبحاث أرجو أن أوفق إلى إتمامها وهى البحث فى الأدب المصرى الإسلامى منذ دخل العرب مصر إلى الآن ، فقد تحدثت فى هذا الجزء عن تطور مصر فى عصر الولاة أى من الفتح الاسلامى إلى دخول الفاطميين ، وهو عصر غامض أشد الغموض ، والمصادر التى بين أيدينا قليلة والنصوص متفرقة مبعثرة ، ومع ذلك فقد استطعنا استخلاص ما يمكن استخلاصه ، وتحدثنا عما أمكننا الحصول عليه ، أما الجزء الثانى من هذا الكتاب فسيكون عن « أدب مصر الفاطمية » .

وسنرى كيف أصبحت إلى مصر الزعامة الأدبية والفكرية فى العالم الاسلامى وكيف استطاعت مصر أن تنهض بهذه الزعامة منذ العصر الفاطمى إلى الآن .

وهذا البحث قديم فقد كتبته لأول مرة سنة ١٩٣٤ وتقدمت به إلى كلية الآداب بالجامعة المصرية — إذ ذاك — وحصلت به على درجة الماجستير فى الآداب مع مرتبة الشرف ، ولما عهد إلى بتدريس الأدب المصرى بكلية الآداب قدمته للطبعة سنة ١٩٣٩ بعد تغيير بعض فصوله وبعض آرائه ، والآن أقدمه للطبعة مرة ثانية وقد أضفت إليه بعض آراء جديدة ليست فى الطبعة الأولى .

(وبعد) فقد قدمت شكرى فى الطبعة الأولى إلى أساتذتى الأجلاء الذين أعانونى فى هذا البحث منذ بدأت كتابته ، وليس

لى الآن إلا أن أكرر لهم شكرى الخالص ، فلا يزالون خير عون لى فى أبحاثى التى أكتبها . وأخص بالشكر أستاذى الأكبر الدكتور طه حسين بك ، الذى يوالينى برعايته وتوجيهه ويشملنى بعطفه وعنايته ، فهو أول من نادى بدراسة الأدب المصرى ، وعمل على إنشاء كرسى الأدب المصرى بكلية الآداب ، وهو الذى دفعنى ووجهنى إلى هذه الدراسات ، فالفضل كله منه وإليه ، ولست أملك ما أوفيه حقه فالله تعالى نسأل أن يجزيه عن تلاميذه أحسن الجزاء ؟

محمد كامل حسين

فهرس الكتاب

الباب الأول : تطور الآداب واللغة فى مصر

صفحة

الباب الثانى : فى الحياة العقلية

الباب الثالث : كتاب الرسائل والانشاء

الباب الرابع : فى الشعر

الباب الأول

تطور الآداب واللغة فى مصر

١ — الآداب بمصر قبيل الفتح الإسلامى :

كان الحكم الرومانى فى مصر يتمايز بالظلم والفساد ، وكانت الحياة فى مصر حياة شعب مجرد من كل حقوقه ؛ فالمدنية المصرية العتيدة التى كانت إبان حكم الأسرات الفرعونية ، والتى انتقلت إلى أيدى البطالسة فحاولوا البقاء عليها ؛ جاءت إلى أيدى الرومان فأضعفوها فى مصر ولم يعملوا على إحياء مدنية أخرى .

هذا الفساد الذى لحق جميع مرافق الحياة فى مصر ؛ امتد إلى مدرسة الاسكندرية التى حافظت على تراث الفلسفة والآداب اليونانية طوال عصر البطالسة ، وفيها نشأ عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين والأدباء . ولكن إبان الحكم الرومانى ضعف أمرها واضمحل شأنها ، وهجرها أكثر تلاميذها لما كان ينتابهم من ظلم الحاكمين ، ولا سيما بعد أن دخلت الديانة المسيحية مصر فخسرت مدرسة الاسكندرية بعض عناصرها الأساسية . وبعد أن انتشر الدين المسيحى فى مصر اشتد الجدل بين المسيحيين والوثنيين ، فكان كل فريق ينتصر لدينه ولو بحد السيف ، فكان نتيجة هذا الصراع الدامى العنيف خيراً على الآداب ، ذلك أن الوثنيين هالهم سرعة انتشار المسيحية فى مصر

فعملوا على تقوية منزلتهم الأدبيـــة بتضخيم عدد كتبهم بالنسخ والتأليف ، وكانت خزائن كتبهم بالإسكنـدرية تحوى مؤلفات اليونانيين والمصريين ، فخصصوا طائفة من النساخ لـكتابة ما يمليه المؤلفون ، وأخرى لنسخ ما أمكن العثور عليه من مخطوطات القدماء[1] ولـكن هذه النهضة لم تدم طويلا لأن الصراع بين الوثنيين والمسيحيين كان عنيفاً قاسياً فـكثيراً ما هدمت دور العبادة وحرقت الـكتب وخربت المدارس ، وأعدم العلماء ، حتى إذا كانت سنة إحدى وتسعين وثلثمائة للميلاد ، انقض المسيحيون بقيادة ثيوفيليس على السرابيوم ، حيث جامعة الأسكندرية ومكتبتها ، فحطموا كل شيء فى طريقهم ، لأنهم كانوا يرون أن الجامعة وما بها من كتب مظهر من مظاهر الوثنية القـديمة وأثر من آثارها ، ومنذ هذا التاريخ لم تنهض مدرسة الاسكندرية ولم تبلغ منزلتها القديمة . كانت مدرسة الاسكندرية في دورها الثانى قد اتجهت إلى العلوم العقلية ، فكانت مضماراً للأبحاث الفلسفية والدينية ، فتأثرت الفلسفة بالدين وتأثر الدين بالفلسفة ، وساعد على نشاط هذه الأبحاث هذا الجدال الذى كان بين الوثنيين والمسيحيين من ناحيـــة ، ثم ما نشأ من خلاف بين المسيحيين أنفسهم عن طبيعة المسيح ، فاضطر المسيحيون إلى أن يستعينوا فى جدالهم بالفلسفة والمنطق ، وفى الاسكندرية اختلطت الديانة اليهودية بالتعاليم اليونانية القديمة فأدى هذا المزج إلى ظهور نوع جديد من الفلسفة ازداد بانتشار المسيحية . هذا اللون الجديد

---

(١) تاريخ الأمة القبطية (طبعة مصر سنة ١٩٠٠) ص ٥٨ وما بعدها .

تلبسه فى مذهب الغنوسطية والأفلاطونية الجديثة ويهودية فيلون .

كادت هذه المذاهب الفلسفية الجديدة أن تأتى ثمرتها فى خلق نهضة فكرية بالاسكندرية وغيرها من مدن الإمبراطورية الرومانية ، فقد رحل علماؤها يدعون إلى هذه المذاهب ووفد إلى الاسكندرية عدد كبير من طلبة العلوم الفلسفية حتى كانت الاسكندرية فى هذا الوقت أكبر موطن للفلاسفة والمفكرين[١] ولكن هذه النهضة لم تدم طويلا .

ومصر وإن كان زمامها بيد الرومان ، فإنا نجد لغة العلم والمتعلمين بها هى اللغة اليونانية ، فقد استطاعت هذه اللغة أن تحيا بمصر وتحتفظ لنفسها بالمنزلة الأولى بجانب اللغة المصرية ، بل نرى اللغة اليونانية تؤثر فى اللغة المصرية تأثيراً قوياً ظهر فى استعمال المصريين للحروف اليونانية وفى هذه الألفاظ اليونانية الكثيرة التى نجدها فى اللغة المصرية التى تعرف باللغة القبطية ، بل كانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية بمصر[٢] وتذهب مدام بيوتشر إلى أن الوالى الرومانى كان يصدر نشراته للمصريين يصف فيها حكمه للبلاد وكانت هذه النشرات باللغة اليونانية ، وأن الولاة الرومانيين كانوا يفخمون أنفسهم بإضافة لقب يونانى إلى أسمائهم[٣] ، معنى هذا كله أن اللغة اللاتينية لغة الرومان لم تنتشر بين المصريين ، فى حين أن اللغة اليونانية والآداب اليونانية كانت قوية منتشرة ، وقد أدى ذلك

---

(١) تاريخ الأمة القبطية ص ٨٥ .

(٢) تاريخ الأمة القبطية ص ٢٣٤ .

(٣) Milne : A History of Egypt Under Roman Rule. (London. 1913) P. 15

إلى أن بعض الولاة من الرومان اضطر إلى أن يصطنع كتاباً يحذقون اللغة القبطية ، وكان لبعض هؤلاء الكتاب مؤلفات باليونانية مثل لوسيانيوس صاحب محاورات الموتى[١] .

وكان بمصر شعراء أنشدوا شعرهم باليونانية ، ومنهم من حاول تقليد شعراء اليونان القدماء ، فبعضهم حاكى هوميروس ، وأنشد على نمط الإلياذة ، وكتب أخيليوس تاتيوس وهو من شعراء مصر فى القرن الرابع للميلاد عدة روايات خيالية ممتعة[٢] وشاهد القرن الخامس الميلادى الشاعر سيروس الأخميمى ، صديق إيدوشيا زوجة الامبراطور ثيودوسيس الثانى والذى تقلب فى مناصب الدولة حتى صار قائد الجيش المصرى، ثم اعتزل المناصب الحكومية ورغب فى خدمة الدين المسيحى فعين أسقفاً لإحدى الكنائس ، كان هذا الرجل شغوفاً بالشعر وإنشاده ويعد من أكبر شعراء مصر فى ذلك القرن[٣]، وفى القرن السادس ظهر شاعر مصرى من طيبه هو كريستودورس ولا تزال قصائده تحفظ فى الكتاب الخامس من منتخبات الأشعار اليونانية ، ويقال إن هذا الشاعر وجد صعوبات فى تدوين أشعاره وترتيبها لقلة المتعلمين[٤] . وممن نبغوا فى العلوم بمصر فى ذلك الوقت عالم اسمه ديسقوريدس ألف كتاباً فى علم النبات وحلاه بكثير من الصور والنقوش ، ولايزال هذا الكتاب من نفائس مخطوطات مكتبة

---

(1) Quatremère : Recherches Sur la langue et la Litterature de l'Egypte (paris 1808) P. 5.

(2) Butcher : The Story of Egypt London 1867. v. 1. P. 356.

(٣) بيوتشر ج ٢ ص ٩ .

(٤) المرجع نفسه ج ٢ ص ٧٩ .

فينا[1] . إذن نستطيع أن نقول إن الأدب بمصر قبيل الفتح كان أدباً مصرياً باللغة اليونانية ، وإن اللغة الرسمية كانت اليونانية ، وإن لغة الثقافة كانت اليونانية .

ولكن بجانب هذه الآداب اليونانية وجد بمصر آداب سريانية فقد كان لنهضة الفرس فى القرن السابع الميلادى ، وغزوهم لبلاد الشام أثر فى وجود هذه الآداب بمصر ، ذلك أن كثيراً من علماء السريان وأدبائهم هاجروا إلى مصر خوفاً من الفرس ، ونقلوا معهم كتبهم وآراءهم ، ومن قبل هذه الهجرة كان بالاسكندرية بعض علماء من السريان يدرسون علوم الطب بالسريانية ، فكثرت الآداب واللغة السريانية بمصر ، ولا سيما فى الأديرة التى هاجر إليها السريان . وفى القرن السابع قام بولس أسقف بلا بترجمة نسخة الترجمة السبعينية من الكتاب المقدس إلى اللغة السريانية وظلت هذه الترجمة فى وادى النطرون حوالى ألف عام وهى الآن بالمتحف البريطانى[2] وكتب أهرن القس مقالاته الطبية التى يجمعها كتاب « كناش فى الطب باللغة السريانية » وترجم هذا الكتاب إلى العربية ماسرجويه بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فكان من المراجع الهامة للعرب فى علوم الطب . ويحدثنا المؤرخون عن الطبيب سرجيوس من رجال القرن السادس الميلادى ، أنه قد أتقن العلوم والآداب السريانية كغيره من الأطباء[3] ومن الأطباء الذين شاهدوا الفتح الاسلامى

---

(١) بيولفسر ج ٢ س ٥ .

(٢) تاريخ الأمة القبطية طبع مصر سنة ١٩٠٠ س ٦٧ .

(٣) Butler : The Arab conquest of Egypt P. 93.

وعاش حتى أوائل الحكم العربى أريباسيوس ؛ وله مصنفات فى الطب وكان يعرف بصاحب الكناتيش .

وبجانب ذلك كله نرى بمصر أدبها القومى أو الشعبى الذى أنتجه الشعب المصرى بلغتهم المصرية مثلاً فيما خلفه رجال الكنيسة باللغة القبطية ؛ فقد صارت اللغة القبطية إذذاك لغة الدين فى مصر ، وأبطل المصريون استعمال اللغة اليونانية الدخيلة فى الكنائس المصرية والمجتمعات ، وحاول المصريون أن يرفعوا من شأن لغتهم ، فترجموا إليها كثيراً من الكتب منها ترجمة العهد الجديد ترجم إلى اللهجات القبطية الثلاث ؛ وترجموا جميع الطقوس الدينية ، وكتبوا تراجم البطاركة والشهداء وألفوا كتباً فى التاريخ العام[1] ولم يبق لنا من ذلك كله إلا النزر اليسير ، ولعل أهم هذه الكتب كتاب فى التاريخ وضعه يحيى (أو يوحنا) النقيوسى كتبه فى أواخر القرن السابع الميلادى ، وحضر الفتح العربى وتحدث عنه ، ويعتبر كتابه من أقوم المصادر التاريخية عن الفتح ، ولم يبق من هذا الكتاب إلا الترجمة الحبشية لجزء منه . ويقول بتلر : « لا تستطيع اللغة القبطية أن تفخر بشعراء مجيدين أو مؤرخين ممتازين أو فلاسفة أو أحد من رجال العلم الفحول ، فجل الآداب القبطية دينية لقلة ما كان لدى الأقباط من علم وفصاحة ، مما سبب إهمال لغتهم وعدم انتشارها فى العالم ؛ مع أنه لا تكاد توجد لغة أقدم من لغتهم أو أغرب منها أو ذات تاريخ مجيد كتاريخها »[2] ، وهذا الرأى صحيح إلى حد ما ويخيل إلى أن

---

(١) بيولشر ج ٢ ص ١٧ .

(٢) Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt. v. I. P. 247

العقيدة الدينية كانت تجرى فى عروق المصريين منذ القدم ، فآثار قدماء المصريين ما هى إلا مظهر من مظاهر الديانة المصرية القديمة ؛ وكل ما كان بمصر القديمة من علم وفن كان من أجل الدين ، فمدنية قدماء المصريين مدنية فنية ولكنها دينية قبل كل شىء ؛ بخلاف المدنية اليونانية التى كانت أدبية فلسفية . وفى مصر التقت الحضارتان وامتزجتا ، وظل المصريون يميلون إلى الدين وما يتعلق به وتركوا العلوم الفلسفية إلى من وفد على بلادهم ، ومع ذلك تأثر هؤلاء بميل المصريين إلى الدين فظهرت الآراء الفلسفية الجديدة التى تحدثنا عنها .

وقد يكون من أسباب قلة ظهور فلاسفة وأدباء فى الأدب القبطى أن المذهب اليعقوبى بمصر لم يواجه من المعضلات الدينية ما واجهه المذهب النسطورى فى آسيا مثلا ، لهذا نرى النساطرة ينقلون الكتب الفلسفية والعلمية والدينية إلى اللغة السريانية ، ولا نجد هذه الترجمة عند المصريين ، فلا غرابة إذا وجدنا المدرسة الفلسفية الوثنية بالاسكندرية تتقهقر فى القرن الخامس الميلادى بينما تقوى المدرسة اللاهوتية .

فتح العرب مصر سنة ٢٠ هجرية (على خلاف فى هذا التاريخ) فكان هذا الفتح إيذاناً بضعف الآداب اليونانية واللغة اليونانية من مصر ثم محوها نهائياً ، وظلت الآداب القبطية واللغة القبطية . حتى إذا كان القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) نجد الاسقف سويرس ابن المقفع يقول فى مقدمة كتابه سير الآباء البطاركة

« استعنت بمن أعلم استحقاقهم من الأخوة المسيحيين وسألتهم نقل ما وجدناه منها (أى من سير الآباء المسيحيين) بالقلم القبطى

واليونانى إلى القلم العربى الذى هو الآن معروف عند أهل الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى واليونانى من أكثرهم [١] .
أى أنه فى القرن الرابع للهجرة كادت تمحى من مصر اللغتان اليونانية والقبطية ، وإن كانتا قد ظلتا بمصر مدة طويلة بعد الفتح ، وهذا ما يقوله ابن النديم فى حديثه عن خالد بن يزيد بن معاوية أنه أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل مدينة مصر ، وقد تفصح بالعربية « وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة واللسان من اليونانى والقبطى إلى العربى ، وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة » [٢] .

ويقول بتلر « إنه كان فى كل كنيسة كتاب باللغة القبطية فى حياة الآباء يقرؤه القسس كل صباح ولا يسمح لأحد أن يقتنيه ، وقد ترجم إلى العربية كثير من هذه الكتب والقصص التى فى آخرها [٣] .

أما مدرسة اللاهوت بالاسكندرية فظلت بعد الفتح تستقبل طلابها مصريين وأجانب . ففى سنة ثمانين وستمائة ميلادية رحل اليها يعقوب الرُّهاوى لاتمام دراسة الآداب اليونانية والسريانية ،

ويقول بتلر : «من الثابت أن الاسكندرية كانت مركز الثقافة والآداب فى العالم فى زمن الفتح ، ومع أن أكثر العلوم بها كانت دينية فإنا نجد شيئاً من العناية بالآداب القديمة ، وعدة موضوعات عن الأخلاق المسيحية المبنية على الأفلاطونية الحديثة » [٤] ولكن هذه المدرسة

---

(١) سير الآباء البطاركة لابن المقفع (طبع بيروت) ص ٦ .

(٢) الفهرست ص ٣٣٨ طبع المطبعة الرحمانية .

(٣) Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt P. 96.

(٤) Butler : The Arab Conquest of Egypt. P. 96.

أصابها ضعف بعد الفتح وتفوقت عليها مدارس أنطاكية وحرّان وجنديسابور وغيرها ، ولست أدرى كيف يقول ابن أبى أصيبعة : « وظلت مدرسة الأسكندرية مركز التدريس فى الشرق إلى أواخر القرن الأول حتى نقله عمر بن عبد العزيز إلى مدرسة أنطاكية »[١] ذلك أن مدرسة الأسكندرية ظلت بعد الفتح العربى واتصل بها المسلمون فى العهد الأموى فاصطفن الأسكندرانى يترجم كتاباً لخالد ابن يزيد وابن أبجر الطبيب الأسكندرى يعتمد عليه عمر بن عبد العزيز فى صناعة الطب ، وابن أبجر هذا كان يتولى التدريس بالإسكندرية وأسلم على يد عمر بن عبد العزيز ، وكذلك اتصل العباسيون بمدرسة الأسكندرية فقد مرضت جارية الرشيد ، فأرسل فى طلب الطبيب المصرى بليطان بطريق الاسكندرية ، وفى أيام أحمد بن طولون كان سعيد بن توفيل يطببه . وهكذا كان لمدرسة الاسكندرية أثر فى الثقافة الاسلامية ، ولا سيما فى علم الطب الذى ظهر عند المسلمين مشبعاً بتعاليم الأسكندريين ، فمؤلفات بولس الإيجينى ، وكان فى الإسكندرية فى أوائل أيام الفتح مما اعتمد عليها أطباء المسلمين .

كذلك كانت مدرسة الأسكندرية النواة التى استمد منها العرب علم الكيمياء أو علم الصنعة كما سماه كتاب العرب ، فكل من تحدث عن هذا العلم يذكر مصر ومآثرها على سائر من اشتغل به ، جاء فى الفهرست : « والكتب المؤلفة فى هذا الشأن (أى الصنعة) أكثر وأعظم من أن تحصى لأن المؤلفين لها تنحلوها عنهم ، ولأهل مصر

---

(١) عيون الأنباء ج ١ ص ١١٦ .

فى هذا الأمر مصنفون وعلماء ، وأصل الكلام فى الصنعة لمن ثم أخذوها ،[١] وقد ظل هذا العلم بمصر طويلا بعد الفتح وشغف به كثير من المصريين ، وقد رأينا كيف اعتمد خالد بن يزيد على بعض المصريين ليترجموا له كتب الصنعة ، ومن أشهر علماء مصر فى هذا الفن روشم فقد ألف كتباً تنافس المسلمون فى الظفر بها ، وقيل إن ذا النون المصرى كان له أثر فى الصنعة ، وإنه ألف كتاب الثقة فى الصنعة[٢] ولا ندرى مبلغ هذا القول من الصحة .

ومع ذلك كله نقول إن مدرسة الاسكندرية ضعف أمرها أيام العرب وأخذت الآداب والعلوم اليونانية والقبطية تضمحل حتى زالت وحل محلها الآداب العربية .

٢ — مكتبة الإسكندرية :

ذكر بعض المؤرخين أمثال عبد اللطيف البغدادى فى كتاب الإفادة والاعتبار[٣] والقفطى فى أخبار العلماء بأخبار الحكماء وابن العبرى وجورجى زيدان فى تاريخهما ؛ أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الاسكندرية العتيدة التى أنشأها بطليموس الثانى ، وقد ناقش هذا الخبر كثير من المستشرقين والمؤرخين .

فالمؤرخ جيبون ناقش هذه المسألة بإيجاز شديد وقد رفضها ، وقال الأستاذ رينودو Renaudat « إن بالقصة عنصراً من عناصر الوضع » .

---

(١) الفهرست ص ٥٠٧ . وصواب العبارة فيما يظهر « وأهل الكلام إلخ »

(٢) نفس المصدر ص ٥٠٤ .

(٣) نفس المصدر ٢٨ .

كما رفضها الأستاذ جوستاف لوبون فى كتابه الحضارة العربية ،
وتحدث الأستاذ بتلر فى كتابه « فتح العرب لمصر » حديثاً طويلا
نلخصه فيما يأتى :

١ — أن هذه القصة — قصة إحراق العرب لمكتبة الأسكندرية —
لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام ، فلم يذكرها المؤرخون الذين
سبقوا البغدادى والقفطى وأبا الفرج الملطى .

٢ — أن يحيى النحوى الذى تذكر القصة أنه العامل الأكبر
فيها توفى قبل الفتح العربى .

٣ — أن مكتبة الأسكندرية الكبرى حرقت فى عهد يوليوس
قيصر وأن المكتبة الصغرى التى كانت بالسرابيوم نقلت أو أتلفت
قبل سنة ٣٩١ ق . م فلم توجد مكتبة بالمعنى الصحيح أثناء
الفتح العربى .

٤ — لو صح أن العرب أحرقوا مكتبة الأسكندرية ؛ لما غفل
عن ذكر ذلك المؤرخ حنا النيقوسى . وختم بحثه بأن مارواه أبو الفرج
الملطى لايعدو أن يكون قصة خرافية ليس لها أساس تاريخى .

وذهب الأستاذ سيديو Sédillot[1] إلى أن هذه القصة وضعها
كتاب معادون للعرب وللاسلام إبان الحروب الصليبية ، ولكنه لم
يحدثنا عن كاتب بعينه .

وكذلك نشر الأستاذ جريفنى بحثاً طويلا باللغة العربية فى جريدة
الأهرام بعدد ٢١ يناير سنة ١٩٢٤ ختمه بقوله: إن جميع المستشرقين

(١) Sédillot : Hist. Générale des Arabes P. 155—156

الذين بحثوا حريق مكتبة الأسكندرية خرجوا بأبحاثهم إلى أن هذه القصة خرافة من خرافات القرون الوسطى .

وقد يكون سبب هذه الخرافة هو خلط علماء المسلمين بين حنا النحوى وحنا النخوى (أو النيقوسى) فالأول حنا النحوى أو الجراماطيق أو الفيلوبونى وجد بالأسكندرية وله مؤلفات سردها مؤرخو العرب ، وكان يعلم الناس بالأسكندرية فى حدود سنة ٤٨٠م وعمر حتى أوائل القرن السادس الميلادى وله عدة كتب منها شرح على الأنالوطيقا لأرسطو وكتاب النفس وشرح كتاب الحيوان لأرسطو وكتاب الرد على نيقوماخوس فى الأخلاق وهذه الكتب كلها عرفها العرب ونسبوها إلى يحى النحوى (ترجمة للجراماطيق) وأخطأ مؤرخو العرب فى قصة مقابلته لعمرو بن العاص لأنه توفى قبل البعثة النبوية ، وجاء هذا الخطأ من أنه كان فى مصر فى وقت الفتح مؤرخ عالم كانت له ثقافة يونانية واسعة هو يحى أو حنا النخوى أسقف نيقوس ، وثابت أن هذا الرجل قابل عمرو بن العاص وأنه كان ذا مذهب خاص اضطهد بسببه ، وهو صاحب تاريخ مصر الذى أشرنا إليه قبل ذلك ، فتشابه رسم الحروف (النحوى والنخوى) هو الذى جعل علماء المسلمين يقولون إن الأول هو الذى قابل عمرو بن العاص .

٣ — قبائل العرب بمصر :

لا نغالى إذا قلنا إن مصر اتصلت ببلاد العرب منذ عهد بعيد جداً ، بل ذهب علماء الجيولوجيا إلى أن صحراء مصر الشرقية من

وادى النيل حتى البحر الأحمر تعتبر جزءاً من بلاد العرب وذهبوا إلى أنه فى العصور الجيولوجية القديمة كان الجزء الجنوبى الغربى من بلاد العرب يتصل بأفريقيا وكان البحر الأحمر عبارة عن بحيرة ، ويقول الأستاذ دى مورجان : « كانت صحراء مصر الشرقية جزءاً من بلاد العرب ، والآن تمنع منطقة سينا هذه الصحراء الشرقية من أن تنفصل نهائياً عن العرب »[١] .

وفى عصور التاريخ اتصلت مصر ببلاد العرب عن طريقين أولها : طريق النيل إذ كانت السفن تسير فى النيل إلى موضع قفط الحالية ، ثم تسير القوافل فى طريق وادى الحمامات حيث المناجم والمحاجر التى اكتشفها قدماء المصريين وينتهى هذا الطريق بالقرب من عيذاب والقصير ثم استخدم المصريون البحر الأحمر للإتصال بالموانى العربية وأول دليل قاطع لما قام به المصريون فى البحر الأحمر كان فى الأسرة الخامسة حين قام الملك ساهور حوالى سنة ٢٧٤٣ ق . م برحلته إلى شواطىء البحر الأحمر وترك صوراً لأسطوله وتقريراً عن أعماله على أسوار معبده ، وفى وادى الحمامات عدد كبير من النقوش يتحدث عن رحلات المصريين فى البحر الأحمر ويقول المؤرخون إن الملاحة فى البحر الأحمر لعبت دوراً هاماً فى التجارة ، ولاسيا تجارة البخور التى كان يطلبها المصريون من العرب لاستخدامها فى التحنيط وفى الشعائر الدينية ، والقدماء حتى عصر هيرودوت قالوا : إن جزيرة العرب وحدها هى التى تنبت العطور ، وقد

(١) كتاب الشرق قبل التاريخ الفصل الثالث

حدثنا الأستاذ نللينو : أن قدماء المصريين كانوا على اتصال دائم بجنوب بلاد العرب التي تعد أكثر البلاد إنتاجاً للبخور »[١].

أما الطريق الثاني الذي اتصلت مصر عن طريقه ببلاد العرب فهو طريق سينا وهو طريق قديم جداً وإذا تصفحنا تاريخ مصر نجد أن المحور الأساسي الذي كانت تدور عليه سياسة الأسرة الثامنة عشر هو تأمين البلاد من محاولة غزو القبائل السامية ويدلنا على ذلك غزو سوريا أيام إمنحتب الأول ، وأن تحتمس الأول أعلن أن الفرات هو حدود مصر الشرقية ، وكان غزو البلاد الشمالية عن طريقين طريق البحر الأبيض وطريق سينا البرى ، وكان طريق سينا معروفاً لدى المصريين في عهد الأسرة الأولى بسبب وجود معدن النحاس ، وفي عهد الأسرة الثالثة زار زوسر سينا وعمل على إخراج النحاس وأحجار الزمرد ونقشت زيارته في وادي المنارة شمال مدينة الطور الحالية ، وفي الأسرة الرابعة غزا سنفرو شبه الجزيرة ونقش أخبار حملته على الأحجار ، وبنى حصوناً ليلجأ إليها عمال المناجم من هجمات قبائل العرب .

وفي الطرف الشرقي لشبه جزيرة سينا نجد تل القلعة أو شربة الخادم — ولا أدري لم سميت كذلك — وفي قمة هذا التل نجد معبداً مصرياً لهاتور وبه عدة نقوش يرجع تاريخها إلى الأسرة الحادية عشرة وقد وسع المعبد في أيام الأسرة الثامنة عشرة ، وبالقرب منه في وادي نصب وجد المصريون مناجم أخرى للنحاس وبنى المصريون هناك

(١) محاضرات الأستاذ نللينو عن تاريخ جنوب بلاد العرب

معابد للعمال كما عثر على كثير من النقوش المصرية شرقى شبه جزيرة سينا ، وأكثر هذه النقوش أقامها موظفو المناجم الذين أرادوا أن تسجل أسماؤهم وأعمالهم ، وذهب بعض المؤرخين إلى أن الهكسوس من قبائل عربية . وضرب بعض المصريين فى الصحراء العربية حتى ذهب بعض المؤرخين إلى أن المصريين أسسوا مستعمرة مصرية فى بلاد العرب مكان يثرب أى المدينة المنورة .

إذن كانت الصلة بين مصر وبلاد العرب قديمة فرضتها طبيعة الجوار بين البلدين فنشأت هذه الصلات بينهما .

وبجانب هذه الصلة التجارية ، كانت هناك صلة علمية فالأستاذ M. Matter [١] يحكى أن تاجراً من تجار الاسكندرية فى القرن السادس الميلادى يدعى قزمان كان محباً للأسفار جريئاً على المخاطرة محباً للاطلاع على أحوال البلدان المجاورة قام بعدة رحلات علمية إلى بلاد العرب والهند ووضع عدة مؤلفات عن هذه البلاد ولكن مؤلفاته فقدت ولم يبق منها إلا مقتطفات قليلة متفرقة . ومؤرخو الكنيسة المسيحية يقولون إن الرهبنة نقلت من مصر إلى بلاد العرب والشام ، ويذكرون بين الرهبان الذين كان لهم أثر واضح فى نشر المسيحية ببلاد العرب الراهب هيلاريون وهو أحد تلاميذ مدرسة الاسكندرية ، وسافر إلى غزة ودعا إلى الرهبنة فأجابه نحو ثلاثة آلاف رجل فرقهم فى فلسطين وسوريا وبلاد العرب وتوفى سنة ٣٥٦ م وكذلك يتحدث مؤرخو المسيحية عن الناسك موسى المصرى الذى عين أسقفاً لمسيحى العرب

(١) فى كتابه Histoire de lecole d'Alexandrie

سنة٣٧٢م وذهب بعضهم إلى أن نسطور صاحب المذهب النسطورى نفاه الأمبراطور ثيودوسيس الثانى إلى بترا عاصمة بلاد النبط ثم نقله إلى مصر ، ولكنه استطاع أن يهرب فى صحراء طيبة ومنها إلى بلاد العرب سنة ٤٤٠ م وقيل إن مذهبه انتشر فى مصر وبلاد العرب ، ولا سيما بعد الاضطهاد الذى لحق بأتباعه .

وفى سيرة ابن هشام أن قريشاً حين بنت الكعبة قبل الرسالة بخمس سنين استعانوا برجل قبطى نجار كان بمكة ، وشراح السيرة يقولون إن اسمه باقوم ، وجاء فى كتب الطبقات أن جبر بن عبدالله القبطى كان أحد الصحابة الذين أخذوا عن النبى دينه ويقول السيوطى إن قبط مصر يفخرون بأن منهم من صحب النبى .

وكما ذهب مصريون إلى بلاد العرب جاء عرب إلى مصر فيحدثنا صاحب الأغانى أن بعض بطون خزاعة خرجوا فى الجاهلية إلى مصر والشام لأن بلادهم أجدبت. وفى أوائل القرن السابع الميلادى أى حوالى سنة ٦١٦م غزا الفرس مصر ويقول الأستاذ شارب :إن الجنود الذين فتح بهم كسرى مصر كان بعضهم من أهل الشام وبعضهم من العرب[١] ، وذهبت مسز بوتشر[٢] والأستاذ ميلن فى كتابه[٣] إلى أن جيش الفرس كان مستمداً من الشام وبلاد العرب ، فلم يلقوا مشقة فى حكم مصر ، إذ لعل الأغنياء فى مصر كان بينهم كثير من العرب فرحبوا بأقربائهم ، ولا أدرى ما الذى

---

(1) History of Egypt. chapter 21.

(2) Story of The church of Egypt V. I. P. 347.

(3) Egypt under Rom : Rule, P. 114.

بقصده ميلن بهذه العبارة ، ولا من أين أخذها . وهى إن صحت تدلنا على شدة الصلة بين المصريين والعرب .

وفى عهـــد الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن تم له فتح الشام وقبل أن يفتح العرب مصر انتقلت بعض متنصرة غسان برئاسة أبى ثور بن عامر بن صعصعة إلى مصر ، وأقطعهم حاكم مصر منطقة تنيس ، وقال المسعودى إن عددهم عشرون ألف رجل ، ولكن بتلر فى كتابه فتح العرب لمصر أنقص عددهم إلى ألفين . وروى ابن اسحق الأموى فى كتابه فتوح مصر أن رئيس الغساسنة ابن عم جبلة ابن الأيهم آخر ملوك الغساسنة ، وأنه هرب بماله وأهله بعد أن تم للعرب فتح الشام .

ولما بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، أرسل من قبله حاطب بن أبى بلتعة رسولا إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر يدعوه إلى الإسلام فأكرم المقوقس الرسول وأرسل معه هدية إلى النبى عليه الصلاة والسلام تقبلها شاكراً ، وأوصى بالقبط خيراً . وروى عنه أنه قال : « استوصوا بالقبط خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً » قال ابن كثير والمراد بالرحم أنهم أخوال اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام ، أمه هاجر القبطية وهو والد عرب الحجاز الذين منهم النبى عليه الصلاة والسلام وأخوال إبراهيم ابن رسول الله وأمه مارية القبطية من سنا كورة انصنا (١) . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : « أهل مصر أكرم الأعاجم كلها ، وأسمحهم يداً ، وأفضلهم عنصراً ، وأقربهم رحماً بالعرب

---

(١) النجوم الزاهرة : ج ١ ص ٢٩ (طبعة دار الكتب المصرية)

عامة وبقريش خاصة »[١] وكان بين الأقباط من صحب رسول الله (صلعم) كجبر بن عبدالله القبطى، وروى السيوطى عن سعيد بن عفير أنه قال: «والقبط تفخر بأن منهم من صحب النبى (صلعم)»[٢]، وجاء ذكر مصر فى القرآن الكريم صراحة أوكناية فى أكثر من عشرين موضعاً، ولم يذكر غير مصر من البلدان بمثل هذا العدد، فلا غرو إذن أن نرى العرب يعرفون شيئاً عن مصر، فراحوا يتحدثون عنها، ويخترعون الأحاديث الكثيرة عن عجائبها كما طمع العرب فى ثروة مصر، لهذا بعد أن تم لهم فتح الشام، جاء عمرو بن العاص إلى مصر ومعه عرب من قبائل مختلفة، يقال إن أكثرهم من عك ولخم، ويقال أيضا إن عددهم لم يزد على أربعة آلاف نفس، ثم أتبعه الزبير بن العوام بمدد قدر باثنى عشر ألفاً، فلما تم لهم فتح مصر وبنى مسجد الفسطاط أمر عمرو جنوده أن يختطوا حول المسجد الجامع كل بحسب قبيلته، فمن القبائل التى اختطت بالفسطاط وأقامت بها: مهرة وتجيب ولخم وغسان وغافق[٣] ومن بنى غافق بطن يعرفون بالقرافة سكنوا سفح المقطم ثم تركوا أماكنهم وتفرقوا فى البلاد المصرية، وصار مكانهم مقبرة المسلمين فسميت المقبرة فى مصر بالقرافة نسبة إلى هؤلاء القوم[٤].

وكان مع عمرو جماعة العتقاء، وهم جماع من القبائل عرفوا

---

(١) النجوم الزاهرة: ج ١ ص ٢٩ :

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى: ج ١ ص ١٠٥ .

(٣) خطط المقريزى: ج ٢ ص ٧٦ وما بعدها .

(٤) ابن خلكان: ج ١ ، ص ٣٢٨ .

بالصعاليك ، كانوا يقطعون الطريق أيام النبي صلى الله عليه وسلم فبعث فى طلبهم وأتى بهم أسرى ، فأعتقهم . وكان بينهم كثير من طوائف الأزد وفهم [١] .

كذلك شهد فتح مصر واختلط بالفسطاط قوم من الفرس هم أبناء جند باذان عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام ، وأسلموا ورغبوا فى الجهاد ، فنفروا مع عمرو بن العاص إلى مصر [٢] كما كان فى جيش الفتح جماعة من الشام عرفوا فى مصر بالحمراء ، لنزول الروم بينهم ، ولكنهم عرب من بَلِىّ (قضاعة) وفهم وعدوان وبعض الأزد ، وكانوا يسكنون قيسارية وما حولها ، ورغبوا فى الإسلام قبل واقعة اليرموك وساروا مع عمرو إلى مصر ، وسموا بالحمراء لأن العرب اعتادوا أن يسموا الموالى من الروم بهذا الاسم [٣] .

واشترك فى الفتح أيضاً عدد من قبائل مختلفة ، من قريش والأنصار وخزاعة ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وليث ، عرفوا فى مصر باسم أهل الراية ، ونسبت الخطة إليهم ، لأنهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد من الديوان [٤]

أما همدان فلم يقبلوا أن يسكنوا الفسطاط ، واختاروا الجيزة لهم مقراً ، وحاول عمرو أن يرجعهم إلى الفسطاط فلم يستطع ، فاضطر إلى أن يخاطب الخليفة فى شأنهم ، فكتب الخليفة إليه : «كيف

---

(١) خطط المقريزى : ج ٢ ص ٨٨ .

(٢) خطط المقريزى : ج ٢ ص ٧٨ .

(٣) خطط المقريزى : ج ٢ ص ٧٩ .

(٤) خطط المقريزى : ج ٢ ص ٧٦ .

رضيت أن تفرق أصحابك ، ولم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر لا تدرى ما يفاجئهم ، فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ماتكره ، فاجمعهم إليك ، فان أبوا إليك وأعجبهم موضعهم، فابن عليه من فىء المسلمين حصناً، فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن بالجيزة ، وسكن مع همدان نافع وذو أصبح وطائفة من الحجر ، وبرزوا إلى أرض الحرث والزرع [١] .

وبعد أن تم فتح مصر رأينا الخليفة عمر يكتب إلى عامل الشام أن يسيّر ثلث من بالشام من قضاعة إلى مصر، فنظر الوالى فإذا بلى، تعادل ثلث قضاعة فسيرهم إليها ، فانتشروا فى البلاد ولاسيما حول أخميم وما يليها ، وتفرقت بلى بأرض مصر ثم اتفقت هى وجهينة فصار لها من الشرق من عقبة قاو الخراب إلى عيذاب (بالقرب من القصير) [٢] .

وكان عمر بن الخطاب يبعث كل عام غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية ، وقسم عمرو بن العاص من معه ، فكان يرسل ربع الناس يقيمون ستة أشهر فى رباط الاسكندرية ، والربع فى السواحل والنصف يقيمون معه ، ولم يختلط العرب بالأسكندرية كما اختلطوا فى الفسطاط ، بل كان بها أخائذ ، من أخذ منزلا نزل فيه هو وبنو أبيه [٣]. فلما استقامت لهم البلاد قطع عمرو بن العاص من أصحابه

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى : ج ١ ص ٨١ .
(٢) البيان والإعراب للمقريزى : ص ٣٧ ، ٣٨ .
(٣) خطط المقريزى ، جـ ١ ، ص ٢٦٩ .

لرباط الاسكندرية ربع الناس ، وكانت لخم أعز من فى ناحية الاسكندرية .

أخذ العرب يفدون على مصر أفواجاً حتى غصت بهم البلاد ، وكان بين القبائل فضاء من القبيل إلى القبيل، فلما كثرت الأمداد فى زمان عثمان بن عفان وما بعد ، وكثر الناس وسع كل قوم لبنى أبيهم حتى كثر البنيان والتأم[١] ولما ولى معاوية بن أبى سفيان زياد بن أبيه على البصرة ، غرب جماعة من الأزد إلى مصر عام ثلاث وخمسين هجرية[٢] فنزل منهم نحو مائة وثلاثين . كما كتب معاوية إلى علقمة القطيفى عامل الاسكندرية « إنى قد أمددتك بعشرة آلاف من أهل الشام وبخمسة آلاف من أهل المدينة » فكان فى الاسكندرية سبعة وعشرون ألفاً[٣] كما كان بمصر فى خلافة معاوية أربعون ألفاً[٤]

وفى إمارة الوليد بن رفاعة على مصر عام تسع ومائة[٥] نزل بنو سليم (وهم من قيس) ولم يكن بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من عدوان الذين أنزلهم عبد الله بن الحبحاب والى الخراج فى خلافة هشام بن عبد الملك — وكان عدد بنى سليم ثلاثة آلاف رجل ، فأنزلهم الحوف الشرقى وأمرهم بالزرع فاشتروا إبلا وكانوا يحملون الطعام إلى القلزم فأثروا ، ولما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل اليهم خمسمائة أهل بيت من البادية ، فأقاموا سنة فأتاهم ألف

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم : س ١٢٨ .

(٢) خطط المقريزى : ج ٢ س ٧٨ .

(٣) حسن المحاضرة : ج ١ س ٩٨ .

(٤) خطط المقريزى : ج ١ س ١٥١ .

(٥) البيان والاعراب : س ٣١ .

وخمسمائة بيت من قيس ، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد صار بمصر ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم زيدوا إلى خمسة آلاف ومائتين ، ولكثرة القيسية بمصر وتجمعهم فى الحوف وثرائهم العظيم كانوا مصدر فتن وقلاقل ، وكثيراً ما حاربوا الولاة . وكان يجاورهم فى الحوف جماعة من صلاح وطارق وهم من جذام ، ولذلك قامت الحروب الكثيرة بين القيسية واليمنية ، شأنهما فى ذلك شأن هاتين الطائفتين فى كل الأقطار الإسلامية .

وسكن بنو عقبة وهم من جذام أيضا مابين أيلة وحوف مصر[١] كما ذهب قوم من جذام ولخم إلى الاسكندرية[٢] ، وكانت لهم هناك أيام معلومة ووقائع مشهورة ولاسيما فى فتنة ابن الجروى . وكان كل أمير يتولى مصر يأتى إليها ومعه عدد من الجند العرب كى يتقوى بهم ويقمع بهم الفتن التى تنجم فى البلاد ، فقد قيل إن حوثرة الباهلى سار إلى مصر فى آلاف من العرب[٣] ولا أدرى تماماً من أى القبائل كان هؤلاء القوم ، وأكبر الظن أنهم من القيسية عشيرة الوالى .

وبصعيد مصر أولاد الكنز ، أصلهم من ربيعة وكانوا ينزلون اليمامة فقدموا أرض مصر فى خلافة المتوكل عام نيف وأربعين ومائتين فى عدد كثير ، وانتشروا فى البلاد ، فنزلت طائفة منهم بأعالى الصعيد وسكنوا بيوت الشعر فى براريها الجنوبية وأوديتها ، وكانت قبائل البجة تشن الغارات على القرى الشرقية

---

(١) البيان والاعراب للمقريزى : ص ٣١ .

(٢) البيان والاعراب للمقريزى ص : ٣٥ .

(٣) خطط المقريزى : ج ١ ص ٢١١ .

فى كل حين ، وخربوا كثيراً من أملاك الأهالى ، فقام الربعيون بمنعهم حتى كفوهم ، ولم يلبثوا أن تزوجوا منهم وصارت لهم مرافق فى بلاد البجة واستولوا على مناجم الذهب بها فكثرت بذلك أموالهم[١] . وانتقلت بطون من قريش إلى الأشمونين وكان بينهم بنو جعفر بن أبى طالب المعروف بالطيار ، وبنو مسلمة بن عبد الملك ابن مروان وتحالفوا جميعاً وعاشوا سالمين ، والجعافرة اليوم ينتسبون إلى جعفر هذا .

ويقول المقريزى : « وجهينة أكثر عرب مصر[٢] » وهؤلاء كانوا يسكنون حول أسيوط وما بعدها ، ووقع بينهم وبين بطون بلى من الخطوب ما خطب أدى إلى دوام الفتنة بينهما . وفى الفيوم نزل بنو كلاب[٣] ومن منية غمر إلى زفيتا سكن سعود جذام ، وأكثرهم مشايخ البلاد وخفراؤها ولهم مزارع وفسادهم كثير[٤] .

وانتقلت طوائف من فزارة إلى الغربية وقليوب[٥] . وفى الدقهلية سكن عرب ينتسبون إلى قريش[٦] . وسكن حول تنيس ودمياط قوم ينتسبون إلى نصر بن معاوية وهم من هوازن ، وكان لهم شوكة شديدة بأرض مصر ، وكثروا حتى ملأوا أسفل الأرض وغلبوا عليها ، قويت إلى أن عليهم قبيلة من البربر تعرف بلواتة ، تزعم

(١) البيان والاعراب للمقريزى : ص ٤٨ .

(٢) البيان والاعراب للمقريزى : ص ٣٨ .

(٣) البيان والاعراب للمقريزى : ص ٣٦ .

(٤) البيان والاعراب للمقريزى : ص ٣١ .

(٥) البيان والاعراب للمقريزى : ص ٦٢ .

(٦) البيان والاعراب للمقريزى : ص ٦٢ .

أنها من قيس فأجلت بنى نصر وأسكنتها الجدار ، فصاروا أهل قرى في مكان عرف بهم وسط النيل وهو جزيرة بنى نصر[١] . ثم تعاقب على مصر طوائف من العرب فى العصور التى تلت عصرنا الذى نؤرخه ، ولعل أكثرها كان فى القرن الخامس الهجرى ، إذ أرسل الوزير الناصر اليازورى عام اثنين وأربعين وأربعمائة فاستدعى سنبس من فلسطين وأقطعهم البحيرة التى كانت منازل بنى قرة ، فعظم أمرهم أيام الفاطميين ، ولكنهم تفرقوا فى الغربية وذلوا بعد واقعة ديروط عام إحدى وخمسين وستمائة أيام عز الدين التركمانى ، وكان يجاورهم فرقة من كنانة بن خزيمة وفرقة من بنى عدى بن كعب رهط عمر بن الخطاب ، ونزل العمريون فى البرلس والكنانيون بقرب دمياط .

مما تقدم نستطيع أن نقول إن أكثر عرب مصر من اليمنين قد اختطوا دورهم فى الفسطاط وغيرها ، ورابط بعضهم فى المدن الكبيرة التى هى ثغور مصر والتى كان يخشى عليها من مهاجمة الأعداء . وكان بمصر عدة من الثغور المعدة للرباط فى سبيل الله تعالى ، وهى البرلس ورشيد والاسكندرية وذات الحمام والبحيرة واخنا ودمياط وشطا وتنيس والأشتوم والفرما والواردة والعريش وأسوان وقوص والواحات ، فيغزى من هذه الثغور الروم والفرنج والبربر والنوبة والحبشة والسودان[٢] . كما كان لبعض العرب إقطاعات بمصر ، كالذى قيل إن عمر بن الخطاب أقطع ابن سندر منية الأصبغ ، فحاز

(١) خطط المقريزى : ج ١ ص ٣٦٥ .

(٢) خطط المقريزى : ج ١ ص ٤٣ .

منها لنفسه ألف فدان ، فلم تزل له حتى مات ، فاشتراها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان[١] فسميت باسمه .

وكانت للعرب أيام خاصة فى الربيع ينتقلون فيها من مرابطهم يجوسون خلال قرى الريف ، فقد جاء فى خطبة لعمرو بن العاص : « فحيّ لكم على بركة الله إلى ريفكم ، فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها ، فإنها جُنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً . . . إلى أن قال : فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم ، فاذا يبس العود ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن وانقطع الورد من الشجر فحيّ إلى فسطاطكم على بركة الله[٢] » .

فان صحت نسبة هذا القول إلى عمرو ، فانا نتبين أن العرب كانوا يخرجون من رباطهم ، ويتصلون بالمصريين فى قراهم ومدنهم ، ويتحدثون إليهم ويتساومون ، فمن المصريين من أعجب بالعرب ودينهم فاعتنقه ، ومنهم من دفع إلى اعتناقه اضطراراً لعجزه عن أداء الجزية ، أو لأغراض أخرى . وكان عمرو يعين القرى التى تذهب إليها كل قبيلة ، فكان يكتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم إلى حيث أحبوا[٣] . إذن فى ابتداء الفتح كانت إقامة العرب فى الفسطاط والثغور ، ولم يكن لهم مقام بالقرى ، وكان القبط متمكنين فى بلادهم لا يتدخل فى شئونهم عربى . على أن المسلمين فى المائة الثانية انتشروا

---

(١) خطط المقريزى : ج ١ ص ١٥٥ .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ١ ص ٧٣ .

(٣) الخطط : ج ٤ ص ٢٨ .

فى قرى مصر ونواحيها ، وما برح القبط يثورون على المسلمين ، إلى أن جاء المأمون سنة سبع عشرة ومائتين فأسرف فى تأديبهم حتى أخضعهم له ، وغلب العرب على أماكن المصريين فى القرى ، وحولوا بعض الكنائس إلى مساجد ، فاضطر المصريون إلى أن يتعلموا لغة الفاتحين ، وإلى أن يعتنق أكثرهم دين الاسلام .

ولما كثر عدد العرب بمصر طمعوا فى ازدياد ثروتهم ، فعمدوا إلى الزراعة والتجارة ، حتى إذا كان أيام المعتصم أمر بإسقاط جميع العرب من الديوان ، فاضطر عرب مصر إلى أن يجتهدوا فى جمع المال ، وصاروا كالمصريين سواء بسواء ، وزاد اختلاط العرب بالمصريين وتزوج العرب من نساء مصريات ، فلم يمض إلا زمن قليل حتى رأينا فى مصر شعباً إسلامياً عربياً [١] ، وقد دفعهم تعصبهم للإسلام إلى الثورة لبناء كنيسة ، فقد قيل إنه فى سنة ست وعشرين وثلثمائة هدمت قطعة من كنيسة أبى شنودة فبذل النصارى للاخشيد مالا ليطلق عمارتها ، فلم يقبل إلا بعد استفتاء الفقهاء ، فأفتى أحدهم وهو محمد بن على بأن لهم أن يرموها ويعمروها ، وعرف ذلك عنه فحملت الرعية إلى داره النار وأرادوا قتله فاستتر وندم على فتياه [٢]

٣ — الصراع بين اللغات : اليونانية — القبطية — العربية

انتشرت اللغة اليونانية فى مصر منذ أيام البطالسة ، فكانت الدروس تلقى بها فى المدارس [٣] ولكن الشعب المصرى كان منصرفا

(١) Lane Poole : History of Egypt in the Middle Ages p. 15.

(٢) المغرب لابن سعيد : ص ٣٢ .

(٣) Quatremère : Recherches sur la Langue et Litterature de l'Egypte P, 5.

بعض الشيء عن هذه الدروس اليونانية ، وأحجم كثير من المصريين ولا سيما سكان الوجه القبلي عن تلقي هذه اللغة الأجنبية ، فلم تنتشر اليونانية في الصعيد أو في القرى المصرية بمقدار انتشارها في الوجه البحري أو المدن الكبرى . وفي عهد الرومان استمرت اللغة اليونانية اللغة الرسمية في مصر . وقد ذكرنا كيف كان الوالي الروماني يصدر نشرات المصريين باللغة اليونانية يصف فيها حكمه للبلاد ، وكيف كان الولاة يفخمون ويعظمون بلقب يوناني يضاف إلى أسمائهم[1] فكانت اللغة اليونانية هي لغة الثقافة والحكم ، بينما احتفظت اللغة المصرية بمنزلتها بين الشعب فلم تتغلب اليونانية عليها حتى أن القس أورجانوس Origen قال : « إذا أراد يوناني أن يعلم المصريين شيئاً من القانون ، فخير له أن يتعلم لغة المصريين حتى يستطيع أن يتفاهم معهم ، أما إذا خاطبهم باليونانية فلا فائدة من حديثه » مما يدل على أن اللغة اليونانية لم تكن منتشرة بين جميع المصريين . فبينما كان القديس بولس يجيد اللغتين اليونانية والمصرية كان القديس أنطونيوس لا يعرف غير اللغة المصرية وبها كتب كل أبحاثه الدينية . ولما وفد أفرام (فم الذهب) إلى مصر لزيارة الأنبا بشوا Anba Bishoi لم يستطع الرجلان أن يتفاهما إلا بمساعدة مترجم لأن كلا منهما لم يعرف إلا لغة بلاده[2] .

ونجد اللغتين اليونانية والمصرية منقوشتين على بعض الأحجار ومكتوبتين على أوراق البردي ، ويرجع تاريخ هذه الأحجار وتلك الأوراق إلى العصر الروماني مما يثبت أن اللغة اليونية كانت تسير مع

---

(١) تاريخ الأمة القبطية : ص ١٢٤ .

(٢) Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt V. 2. p. 251.

اللغة المصرية ، ومما يؤيد ذلك أيضاً أن التعاليم الدينية التي كانت تلقى في الكنائس أو تنشر بين الناس كانت تقرأ أولا باللغة اليونانية ثم تشرح باللغة المصرية ، وأهل الصعيد أنفسهم الذين كانوا بعيدين عن مصدر اللغة اليونانية كانوا يرتلون صلواتهم باللغة اليونانية بينما كانوا يتحدثون المصرية .

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن اللغة اليونانية كان لها أثرها في مصر ، ونلمح أثر هذه اللغة في اللغة المصرية نفسها التي تعرف باللغة القبطية فالحروف القبطية هي نفس الحروف اليونانية تقريبا ، ونجد كثيراً من الألفاظ اليونانية دخيلة في اللغة القبطية .

أما اللغة القبطية فلم تكن لهجة واحدة بل اختلفت لهجاتها باختلاف الأقاليم المصرية . نقل كاترمير عن اثناس بطريق قوص : « تعلم أن اللغة القبطية مقسومة إلى ثلاثة أقلام منها القبطي المصري الذي هو الصعيدي ومنها القبطي البحيري المعروف بالبحيرة والقبطي الأشموني المستعمل ببلاد الأشمونين — كما تعلم — وإنما المستعمل الآن القبطي البحيري والقبطي الصعيدي والأصل فيها لغة واحدة[١] » .

نلمح من هذه الجملة أن اللهجة الصعيدية هي أقل اللهجات القبطية تأثراً باللغة اليونانية لبعدها عن مراكز اللغة اليونانية وأنها أقرب اللهجات إلى اللغة المصرية القديمة حتى عبر عنها بالقبطي المصري ، أما اللهجة البحيرية فهي لهجة الوجه البحري وهي أكثر اللهجات تأثراً باليونانية لقربها من بلاد اليونان ومن الاسكندرية حيث الجامعة ومقر الحكم ولا ندري شيئا عن اللهجة الاشمونية .

---

(١) Quatremère : p. 20.

ولما شعر المصريون بالاضطهاد الديني اشتد كره المصريين لكل ماهو أجنبي ، ونظروا الى الأجانب نظرتهم إلى عنصر من عناصر الوثنية فمنع المصريون اللغة اليونانية من الكنائس واستبدلوها باللغة القبطية[1] وكان ذلك فى القرن السادس الميلادى ، ولكن اللغة اليونانية ظلت مستعملة متداولة فى الكنيسة الملكانية ، أما الكنيسة اليعقوبية المصرية فقد أمرت بتحريم اللغة اليونانية بعض الشيء .

وبينما كانت الكنيسة اليعقوبية فى خصام عنيف مع الكنيسة الملكانية تغير نظام العالم السياسى فجأة ، وأصاب مصر ما أصاب كثيراً من البلدان الأخرى ، فقد خرج العرب من بلادهم لغزو فارس والشام ومصر ، فوقفت الطائفة اليعقوبية تساعد المسلمين وتؤازرهم ضد الرومان وقد أراد المصريون بمساعدة العرب أن يتخلصوا من أعدائهم الرومانيين ، وأن يمحوا من البلاد الكنيسة الرومانية، فهدم المصريون كنائس خصومهم ، وحاولوا منع استعمال اللغة اليونانية بمصر ، ولكنهم لم يبلغوا مرادهم .

شعر المصريون فى أوائل الحكم العربى بشيء من الحرية التى طالما تمنوها وعملوا من أجلها ، وظهرت هذه الحرية فى استخدامهم فى الأعمال الحكومية التى كانوا بعيدين عنها .

وهنا أرى أن أشير إلى موضوع تحدث عنه مؤرخو العرب القدماء والمحدثون ، تلك هى مسألة نقل الدواوين من اللغات الأجنبية إلى العربية ، فجميع من تحدثوا عن هذا الموضوع ذكروا أن

---

(١) تاريخ الأمة القبطية : ج ٢ ص ٨٨ .

الدواوين كانت تكتب فى مصر باللغة القبطية وفى الشام باليونانية، من ذلك ماقاله الكندى : «حتى إذا كانت ولاية عبدالله بن عبدالملك ابن مروان، فأمر بالدواوين فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية، وصرف عبد الله أشناس عن الداوين، وجعل عليها ابن يربوع الفزارى من أهل حمص وذلك فى سنة سبع وثمانين هجرية»[1] فالنص صريح هنا أن اللغة القبطية كانت لغة الدواوين، وهذا يخالف ماذكرناه سابقا من أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية ؛ ثم إن المؤرخين قد اتفقوا على أن لغة الدواوين فى الشام كانت اليونانية، ومصر والشام كانتا من أملاك الامبراطورية البيزنطية فكيف تكون اللغة الرسمية فى الشام تختلف عن اللغة الرسمية فى مصر؟ وقد حفظت لنا أوراق من البردى يرجع تاريخها إلى عهد الوليد بن عبد الملك كتبت باليونانية والعربية وهى وثائق صدرت من الوالى نفسه، ونجد بعض الوثائق المحفوظة بدار الكتب المصرية قد كتبت باللغة اليونانية فقط ولا نجد بينها وثائق كتبت باللغة العربية والقبطية أو القبطية فقط[2] مما يدل على أن لغة الدواوين فى مصر والشام كانت اليونانية وليست القبطية كما وهم مؤرخو العرب، وقد يكون منشؤ هذا الوهم أن بعض موظفى الدواوين كان من، الأقباط فظن المؤرخون أن اللغة القبطية كانت اللغة الرسمية فى البلاد .

ومهما يكن من شىء فان اللغة القبطية كانت لغة تؤلف بها

---

(١) الولاة للكندى : ص ٥٨ .

(٢) أوراق البردى للأستاذ جروهمان طبع دار الكتب المصرية فى مواضع متفرقة .

الكتب، فالمؤرخ يوحنا النيقوسى كتب تاريخه فى أيام ولاية عبد العزيز ابن مروان ؛ بعضه باللغة اليونانية وبعضه الآخر بالقبطية(١)

بعد الفتح العربى كانت اللغة العربية فى أول الأمر فى حيز محدود فى مصر يتكلمها العرب ومن جاورهم من المصريين الذين اضطروا بحكم الجوار إلى أن يختلطوا بالفاتحين وأن يعرفوا لغتهم، ثم أدخلت بعض الاصطلاحات العربية فى الدواوين ، فاضطر المصريون إلى أن يعرفوا لغة العرب تقرباً إليهم وتحقيقاً لمصالحهم ، فنرى القسيس بنيامين قد أجاد اللغة العربية حتى أنه شرح الانجيل بالعربية للأصبغ بن عبد العزيز بن مروان (٢) كما كان لانتشار الدين الإسلامى فى مصر أثر كبير فى نشر اللغة العربية بين المصريين إذ اضطر من أسلم منهم إلى أن يتعلم اللغة العربية حتى يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى أن يفهم دروس الفقه .

وقد ذكرنا أن العرب كانوا يخرجون من رباطهم فى الربيع ويتصلون بالمصريين فى الريف فكان ذلك من أسباب انتشار اللغة العربية بين الشعب ، حتى جاء الوقت الذى ترك فيه المصريون اللغة القبطية وأهملوا شأنها حتى فى مسائلهم الشخصية ، واتبعوا المسلمين فى كل شىء . وها هى أوراق البردى التى حفظت فى دار الكتب المصرية وغيرها من المكتبات والمتاحف تؤيد ذلك ؛ فمثلا نجد — فى القطعة

(١) تاريخ الأمة القبطية : ج ٢ ص ١٦٧ .

(٢) Quatremère : p. 23.

رقم ١١ التى ذكرها الأستاذ جروهمان فى كتابه — عقد بيع بين مصرية ومسلم كتب باللغة العربية ووجد فيه ثلاثة أسطر باللغة القبطية هى شهادة بعض المصريين على هذا العقد ، أن الكاتب استعمل بعض اصطلاحات مصرية خالصة ، فالمصريون هم الذين يحدون الجهات بالبحرى والقبلى [1] مما يدل على تأثر اللغة العربية بالاصطلاحات المصرية . ثم مما يدلنا على ضعف اللغة القبطية وسيرها فى طريق الاضمحلال ، أن القديس شنوده كتب مؤلفاته باللغة القبطية واللهجة الصعيدية — ثم اضطر إلى أن يكتبها مرة أخرى باللغة العربية حتى يتسنى للأقباط أن يقرأوها ، وبعد أن كانت مراسيم الكنيسة تقرأ باليونانية وتشرح بالقبطية صارت تقرأ بالقبطية وتشرح بالعربية وفى القرن العاشر الميلادى كان المصرى المثقف يفخر بأنه يعرف اللغة القبطية [2] وحدث أنه فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ظهر نشاط غريب بين الأقباط إذ أرادوا أن يعتزوا بقوميتهم ويحافظوا على لغتهم فجمعوا الكتب القبطية فى دير مكاريوس St. Macarius ولكن حركتهم هذه فشلت فى القرن الحادى عشر لأن اللغة القبطية كانت تتقهقر أمام اللغة العربية ، وازداد إلحاح الناس على ترجمة الكتب الدينية من اللغة القبطية إلى اللغة العربية [3] . وبعد القرن

---

(١) يقول المقريزى فى خططه : ج ١ ص ٢٣ : إلا أن أهل مصر يستعملون فى تحديدهم بدلا من الجهة الجنوبية لفظة القبلية فيقولون الحد القبلى ينتهى إلى كذا ، ولا يقولون الجنوبى وكذلك يقولون الحد البحرى ويريدون بالحد البحرى الحد الشمالى .

(٢) Quatremère : p. 39.

(٣) Hugh : The Monasteries of Wadi'n Natrûn (New Yourk) V. I. p. 26.

العاشر الميلادى كان رجال الدين المسيحى يقرأون صلواتهم باللغة القبطية بينما كانت كتبهم الدينية باللغة العربية ، وفى زيارة المسعودى لمصر سأل كثيراً من المصريين عن معنى كلمة فرعون فى لغتهم فلم يظفر بجواب . ومع ذلك كله فإنا نجد اللغة القبطية كانت معروفة فى مصر إلى عهد قريب فالمقريزى ذكر فى خططه «ودرنكه أهلها من النصارى يعرفون اللغـــة القبطية فيتحدث صغيرهم وكبيرهم بها ويفسرونها بالعربية[1]» وقال فى موضع آخر «ودير مواس خارج أسيوط من قبليها بنى على اسم توما الرسول والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطية البحيرية ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لايكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية[2]» .

ونستطيع أن نقول إن كثيراً من العرب عرفوا اللغة القبطية وتخاطبوا بها فقد قيل إن البطريق يوسف عندما حوكم سنة ٨٥٠ م خاطب رعيته باللغة القبطية بحضور عدد كبير من العرب ، وفهم العرب كل ماقاله وحدثوا به القاضى[3] وذكر ابن حجر فى أخبار القاضى خير بن نعيم «وكان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها وكذلك شهادة الشهود منهم ويحكم بشهادتهم»[4] وقال الكندى فى خبر خروج العلويين بالفسطاط سنة ١٤٥ هـ إن ابن حـــديج وقف على الباب الذى ناحية بيت المال فكلم خالد بن سعيد وهو فوق ظهر المسجد كلمة قبطية[5] فهذا كله يدلنا على أن بعض العرب بمصر تعلموا اللغة القبطية وتخاطبوا بها .

---

(١) المقريزى جـ ، ٤ ، ص ٤٣٦ (٢) المقريزى ، جـ ٤ ، ص ٤١٧

(٣) كاترمير ص ٣٤ ، وبتلر فى كتابه تاريخ الكنيسة القبطية ص ٢٥١

(٤) رفع الإصر عن قضاة مصر نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٥) الولاة والقضاة ص ١١٣

والآن إذا فحصنا اللغة التى يتحدث بها المصريون فانا نجد بها كثيراً من الألفاظ القبطية فلفظ « كان مانى » و « شونة » و « أرض شراقى » و « أردب » وغيرها هذه كلها ليست عربيــة بل هى مصرية وكان القدماء يستعملون كلمة « القباطى » وهو نوع من النسيج كان يرسل من مصر إلى بلاد العرب ، واستعمل الـكندى كلمة مواحيز بمعنى أماكن فقال « كانت مواحيز مصر يعمرها أهل الديوان »[١] واستعمل ابن الداية لفظ « تليس » بمعنى الحقيبة الـكبيرة[٢] ولا يزال المصريون يستعملون هذه الـكلمة بنفس المعنى القديم . واستعمل المؤرخون العرب كلمــة براق ويسمى المصريون إلى الآن الرياح الجنوبية بريح المريس و « إمريس » بالقبطية معناها جهة الجنوب . وكلمة طوبة بمعنى الحجارة أصلها قبطى وشجرة اللبخ الى غير ذلك

ونجد اختلافاً فى اللهجات المصرية فلهجة الصعيد تختلف عن لهجة أهل القاهرة ، ولهجة أهل مديرية الشرقية غير لهجة أهل رشيد أو أهل الاسكندرية ، وقد علل الدكتور جورجى بك صبحى ذلك بأن اختلاف اللهجات الآن فى جهات مصر المختلفة كان بتأثر هــذه الجهات باللهجة المصرية القديمة[٣] ، وقد يكون هذا السبب صحيحاً وأضيف إلى ذلك أسباباً أخرى منهـا اختلاف اللهجات العربية التى أتى بها العرب ، ثم تأثر المصريين فى عصورهم المختلفة بالأمم الأوروبية الأمر الذى جعل لهجات البلاد تختلف اختلافا واضحاً .

---

(١) الولاة والقضاة ص ٤١٨ (٢) المـكافأة لابن الداية ص ٨٢

(٣) محاضرة الدكتور جورجى بك صبحى عن الثقافة القبطية بقاعة يورت فى ديسمبر سنة ١٩٢٣

الباب الثاني

في الحياة العقلية

الفصل الأول

المدارس الدينية

« أصبحت مصر منذ دخول العرب إليها مركزاً علمياً في المملكة الإسلامية كما هي مركز سياسي »[1] وقد ذكرنا كيف كان العرب الذين وفدوا على مصر في شبه معزل عن المصريين وعلومهم ولذلك لم يهتم عرب مصر في القرن الأول إلا بالدين الإسلامي ، فاتخذوا من جامع الفسطاط مكانا للدروس والمناقشات الدينية ، ولسنا في معرض الحديث عن هذه العلوم التي كانت تلقى في مسجد الفسطاط ، ولكنا مضطرون إلى الإلمام بها لأن دراسة الآداب تضطرنا إلى تتبع تطور الحياة العقلية ، ورقي النثر الفني لا يتأتى إلا من هذه الدراسات العميقة ، والمناقشات العلمية العنيفة ، التي تقوم على جهد في الفكر وذخيرة من العلم ، كما أن ألوان الحياة العقلية وأنواع العلوم التي كانت تدرس تعيننا على معرفة نوع هذه

---

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ٢٢٨ (الطبعة الأولى)

الـكتابات المختلفة وفنون الشعر وتطورها جيلا بعد جيل .

علم القراءات :

فى مسجد الفسطاط ، نرى أول مادرس به كانت علوم الدين من تفسير للقرآن الـكريم ، ورواية قراءاته ، ورواية الحـديث الشريف ، وكان للصحابة الذى شهدوا فتح مصر أثر بارز فى هـذه العلوم الدينية ، إذ هم الذين تولوا أمر التدريس فى المسجد الجامع ، وأول من قرأ القرآن بمصر هو أبو أمية عبيد بن مخمر المغافرى[١] وكل القراءات بمصر رواية عن نافع ، نقلها عنه إلى مصر عثمان بن سعيد المصرى المعروف بورش وكان مصريا صميما فهو عثمان بن سعيد ابن عدى بن غزوان بن داود بن سابق ، كان أصل أجداده من الأقباط ، ثم اعتنقوا الدين الإسلامى . ولد ورش بمصر سنة ١١٠ هـ واشتغل بقراءة القرآن وتعلم العربية ، ورحل الى المدينة فقرأ بها على نافع سنة ١٥٥ هـ[٢] .

ثم عاد إلى مصر ، وإليه انتهت رياسة الاقراء فيها وتوفى سنة ١٩٧ هـ[٣] وساعده فى نقل رواية نافع زميل له معاصر ، هو سقلاب بن شنينة أبو سعيد المصرى[٤] ولـكن المقريزى قال إن أبا ميسرة عبدالرحمن بن ميسره مولى الملامس الحضرمى كان أول الناس إقراء بمصر بحرف نافع قبل الخمسين ومائة من الهجرة ، وتوفى سنة ثمان وثمانين ومائة من الهجرة ، ولـكن المعروف أن أثر ورش فى القراءة

---

(١) خطط المقريزى ، جـ٤ ، ص ١٤٣ (٢) معجم الأدباء ، جـ ٥ ، ص ٣٣

(٣) حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٢٧٧ (٤) شرحه

أقوى من أثر أى مقرىء آخر . ويحدثنا السيوطى أن عمر بن عبدالعزيز أرسل نافعاً إلى مصر ليعلم المصريين ، فأقام نافع بمصر مدة طويلة[١] ومهما يكن من شيء فإن مدرسة نافع قد قوى أمرها فى مصر ، وتعدد تلاميذ ورش ، فنهم أبو يعقوب الأزرق بن عمرو بن يسار المصرى الذى لزم ورشا مدة طويلة ، وأتقن عنه الأداء ، وخلفه فى الإقراء ، ولـكنه انفرد عن ورش بتغليظ اللام وترقيق الراء ، وكان له أثر كبير فى مصر والمغرب ، حتى أن المصريين والبربر ما كانوا يعرفون إذ ذاك غير ورش وأبى يعقوب هذا[٢] وقد توفى أبو يعقوب حوالى سنة أربعين ومائتين من الهجرة

وأخذ الأندلسيون قراءة نافع عن عبدالصمد بن عبدالرحمن بن القاسم المصرى المتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائة هجرية[٣]

من ذلك كله نستطيع أن ندرك ان المصريين كان لهم أثر واضح فى القراءات ، وعن المصريين أخذ القراء فى الأندلس والمغرب ، كما كان للمصريين رأى خاص يختلف بعض الشيء عن قراءة نافع ، كالذى ذكرناه عن قراءة ابى يعقوب المصرى فى تغليظ اللامات وترقيق الراءات .

الحديث :

وفى الحديث نجد الصحابة الذين وفدوا على مصر يكثرون من روايته ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص أكثر الصحابة رواية

---

(١) حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٢

(٢) حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٢٧٨ (٣) درحه

للحديث ، فقد كان من نجباء الصحابة ، ومن المكثرين لروايته[١] ولأهل مصر عنه أكثر من مائة حديث[٢] ، فقد كان عبد الله يعرف الكتابة ، وكان يكتب كل ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه ، فاستطاع بذلك أن يحفظ عدداً من الأحاديث كما سمعها من الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكثيراً ما كان يرجع إلى أوراقه عندما يسأل فى أمر لا يستطيع أن يجيب عنه. روى ابن عبد الحكم أن عبد الله قال (كنا عند رسول الله ﷺ ، نكتب ما يقول لا أو نعم)[٣] كما كان لغيره من الصحابة أثر بارز فى رواية الحديث وقد أفرد ابن عبد الحكم فى آخر كتابه (فتوح مصر) فصلا خاصا بالأحاديث النبوية التى رواها المصريون ، وكذلك نجد فى كتاب السيوطى (در السحابة فى من دخل مصر من الصحابة) ذكر هؤلاء الصحابة وما رووه من الأحاديث ، واعتمد أصحاب الكتب الستة فى الأحاديث على رواية كثير من المصريين ؛ فسعيد ابن عفير ويحيى بن بكير وعبد الله بن صالح ، وغيرهم كانوا من شيوخ البخارى وكان أحمد بن يونس ويحيى التميمى وغيرهما من شيوخ مسلم وأبى داود ولا داعى للافاضة هنا عن كل المحدثين المصريين

عبد الله بن وهب والمدرسة المالكية :

ولكن لابد أن نقف عند رجل مصرى يعد من أوائل جامعى

---

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٢٤

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم . (٣) النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٧١

الحديث ، ذلك هو عبد الله بن وهب المصرى صاحب كتاب (الجامع فى الحديث) . وقد عثر على معظم هذا الكتاب حديثا فى مدينة ادفو ، ويعد من أقدم المخطوطات العربية فى جميع مكاتب ومتاحف العالم ، إن لم يكن أقدمها جميعا ، وهذه النسخة مكتوبة على ورق البردى الذى عرفت به مصر منذ القدم ، ويرجع تاريخ كتابتها إلى القرن الثالث الهجرى . أما مؤلفه ، فهو أبو محمد عبدالله ابن وهب بن مسلم القرشى بالولاء[1] . وقد شهد ابن وهب هذا العصر الذى ابتدىء فيه تدوين الحديث والفقه والتفسير ، فقد كان العلماء قبل ذلك العصر يتكلمون عما حفظوه ، وقد يدونون ماسمعوه فى صحف مبعثرة متفرقة ولم تكن لهم كتابات مرتبة . ولكن جاء بعض الأئمة والمجتهدين ودونوا ما رأوه وما رووه فكتب مالك كتابه الموطأ بالمدينة وكتب الأوزاعى مذهبه بالشام ، وصنف ابن اسحاق فى المغازى ،وكتب ابن وهب فى مصر كتابه (الجامع الحديث) فهو بذلك من أول الذين جمعوا الحديث ، والغريب أن هذا الرجل على ما هو عليه من فضل وعلم ليس معروفا عند كثير من المؤرخين والكتاب وذلك فى أغلب الظن لأن (جامعه) كان مفقوداً ، وقد يكون هذا الكتاب هو الأثر الوحيد الذى يدلنا على فضل هذا الرجل ، ولعل رأى العلماء والمؤرخين فى هذا المحدث يتغير بعد أن كشف عن جزء من كتابه ، كما نرجو أن تعمل الهيئات العلمية على طبع هذا الكتاب .

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٤٩

ولد بن وهب بمصر فى ذى القعدة من سنة أربعين أو خمس وعشرين ومائة من الهجرة ؛ وكان كغيره من متحلى هذا العصر ، يرحل فى طلب العلم إلى الحجاز والعراق ، فوفد على المدينة سنة ثمان وأربعين ومائة هـ ، وهناك أخذ عن مالك ، وما زال مقيما معه حينا ويفترق حينا آخر ، إلى أن توفى مالك سنة ١٩٧ هـ ، ويقول ابن خلكان إن مالكا كان يكتب إلى ابن وهب « إلى عبد الله بن وهب المفتى ولم يكن يفعل هذا مع غيره[١] » فهذا يدل على أن مالكا كان يعترف بفضل ابن وهب ومنزلته فلقبه بالمفتى ، ويروى ابن خلكان أيضا قصة عنه فيقول « كتب الخليفة جعفر المنصور إلى عبد الله بن وهب فى قضاء مصر ، فخبأ نفسه ، ولزم بيته ، فاطلع عليه سعد بن سعد وهو يتوضأ فى صحن داره ، فقال له « ألا تخرج إلى الناس تقضى بكتاب الله وسنة رسوله » فرفع له رأسه ، وقال « إلى هنا انتهى عقلك ! ! أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء ، وأن القضاة يحشرون مع السلاطين »[٢] فإن صحت هذه الرواية فهى تحدثنا عن عقيدة ابن وهب وشدة تقواه وقيل إن سبب موته أنه قرىء عليه كتاب الأهوال من « جامعه » ، فأخذه شىء كالغشى ، فحمل إلى داره ، فلم يزل كذلك إلى أن قضى نحبه ، فى شعبان سنة سبع وتسعين ومائة من الهجرة[٣] .

أخذ ابن وهب أكثر مادة كتابه عن مصدرين هما : مالك ابن أنس وعبد الله بن لهيعة المصرى ، وليس لنا أن نتحدث عن

---

(١) ابن خلكان ، جـ ١ ، ص ٢٤٩ (٢) شرحه

(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٤٩

مالك لأنه لم يكن مصرياً فى شىء ، وإن كان مذهبه قد دخل مصر وكثر تلاميذه الذين كانوا يدرسون مذهبه فى المسجد الجامع ، وكان ابن وهب من أجل تلاميذه فى مصر ، وعنه أخذ كثير من المصريين ، حتى أن السيوطى حين عقد فصلا عمن كان بمصر من الفقهاء المالكية ، كان يذكر ابن وهب كأستاذ لمعظم هؤلاء الفقهاء ، مثل عبدالحكم بن عبدالله الذى كان أكبر أولاد ابن عبدالحكم وأفقههم وأجل أصحاب ابن وهب[١] ، ولم يكن ابن وهب وحده هو أستاذ المدرسة المالكية فى مصر ، بل نجد كثيراً غيره ، أمثال : أشهب ابن عبدالعزيز العامرى فقيه ديار مصر ، وكانت إليه الرياسة بها ، وبلغ من العلم درجة كبيرة ، حتى قال الشافعى « ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه »[٢] وكان ثقة فى روايته ، حتى قيل إن أشهب ما كان يزيد فى سماعه حرفاً واحداً[٣] وكان أساس المدرسة المالكية هو رواية الموطأ وهذا الكتاب كغيره من الكتب الاسلامية التى ألفت فى هذا العصر يقوم على الرواية ، ولكن ابن وهب لم يشأ أن يقبل الروايات كما هى فى الموطأ ، بل كان يدقق فى اختيار الأحاديث ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل المحدثين جميعاً يثقون به .

أما المصدر الثانى الذى أخذ عنه ابن وهب أكثر مادة كتابه فهو عبد الله بن لهيعة الحضرمى الغافقى[٤] ولد سنة ست

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ، ص ، ٢٥٤ (٢) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٦ (٣) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٧٥

(٤) أنظر النووى ، ج ١ ، ص ٣٦٤ والسمعانى ، ص ٤٠٥

وتسعين هجرية من أصل عربى ، وكان والده لهيعة من مشاهير التابعين الذين رووا الحديث[١] ، ونشأ ابنه عبدالله محباً للحديث ، جامعاً له ، فكان يرحل فى طلبه[٢] ، وكان ابن لهيعة يكنى أباخريطة وذلك أنه كانت له خريطة معلقة فى عنقه ، فكان يدور بمصر ، فكلما قدم قوم كان يدور عليهم ، فاذا رأى شيخا سأله من لقيت وعمن كتبت؟[٣] وابن لهيعة هذا تلميذ يزيد بن ابى حبيب ، الذى وصفه الليث بن سعد بقوله « هو سيدنا وعالمنا »[٤] ، وقيل إن يزيد هذا أول من أظهر العلم بمصر والمسائل فى الحرام والحلال ، وقبل ذلك كانوا يتحدثون فى الترغيب والملاحم والفتن[٥] ، لهذا كان يزيد بن أبى حبيب أحد الثلاثة الذين جعل عمر بن عبدالعزيز اليهم الفتيا فى مصر ، وهم جعفر بن ربيعة وهو عربى ، وعبد الله بن أبى جعفر ، ويزيد بن أبى حبيب ، وهما من الموالى ، ولكن العرب أنفوا أن تكون الفتيا إلى الموالى فأجابهم عمر بقوله « ماذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لاتسمون »[٦] ، ولا تقف شهرة يزيد بن أبى حبيب عند الفقه أو الحديث ، بل نراه من الذين اعتمد عليهم عبدالرحمن بن عبدالحكم فى كتابه فتوح مصر ، والكندى فى كتابيه الولاة والقضاة ، والطبرى فى تاريخه وغيرهم وذلك لكثرة علمه بالفتن والحروب ، وخاصة ما يتعلق منها بمصر وشئونها وحكامها ،

---

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٤٥ (٢) تاريخ الاسلام للذهبى .
(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٧٥ (٤) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٣ (٥) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣٠٨
(٦) خطط المقريزى ، ج ٤ ، ص ١٤٣

كان يزيد أستاذ ابن لهيعه وأستاذ عالم مصرى آخر هو الليث بن سعد ، ولكن ابن لهيعه اختلف عن أستاذه ابن أبى حبيب ، وعن قرينه الليث ، فلم يكن حذرا فى قبول الروايات الكثيرة التى كانت تصل إليه ، ولم يحتط فى إسناد الأحاديث والأخبار إلى الثقاة ، لهذا قل من يثق بأحاديثه وأخباره ، مع كثرة مانقل عنه ، يقول ابن خلكان : إن ابن لهيعه كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية ، وكان يقرأ عليه ماليس من حديثه فيسكت ، فقيل له فى ذلك فقال ماذنبى إنما يجيئونى بكتاب يقرؤنه على ويقومون ، ولو سألونى لأخبرتهم أنه ليس من حديثى[1] وأظن أن هذا هو السبب الذى جعل ابن سعد يقول عنه : «إنه كان ضعيفا »[2] ومن يدرى لعل هذا الرجل كان سببا فى اختراع هذه الأخبار الكثيرة التى رواها ابن عبدالحكم والكندى وغيرهما ، وأخذها عنهما غيرهما من المؤرخين ، إذ أن أكثر ماورد عن مصر مروى عن طريقه .

وروى ابن وهب كثيراً عن ابن لهيعه ، ولست أدرى كيف يأخذ ابن وهب عنه ، وهو الذى يدقق فى كل رواية . فقد قيل إن ابن وهب روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ألف حديث ماجرح فى حديث واحد[3]

أما زملاء ابن وهب فى نشر مذهب مالك بمصر فنستطيع أن نقول

---

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢٤٩

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ص ٢٠٤ ، طبعة ليدن سنة ١٣٢٨ هـ

(٣) الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة لابن الزيات ، ص ٤٠ (مطبعة بولاق سنة ١٩٠٧)

إن خاصة أصحاب مالك كانوا مصريين كابن القاسم وأشهب وعبدالله ابن عبدالحكم .

أما ابن القاسم فهو أبو القاسم عبدالرحمن بن القاسم العتقى ينسب إلى جماعة العتقاء الذين وفدوا على مصر منذ الفتح ، واختطوا بالفسطاط كما ذكرنا ، ولد سنة ١٢٨ هـ وصحب مالكا وروى عنه مسائله كلها ، وكان يقول : رجلان اقتدى بهما فى دينى مالك بن أنس فى العلم وسليمان فى الورع[١] وكان يفرع على أصول مذهب مالك وصارت اليه رياسة المالكية بمصر إلى أن توفى سنة ١٩١ هـ ،وخلفه منافسه وزميله أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسى ، تلقى العلم عن مالك والليث بن سعد والفضيل بن عياض[٢] وكان من أكثر الناس علما وجلالة ، وقد وصفه ابن وهب بقوله : كان أشهب فقيها فى علوم شتى ، ماسئل عن شىء إلا أجاب[٣] ،وقال الشافعى: مارأيت أفقه من أشهب لولا طبش فيه[٤] ، وكان ينافس ابن القاسم فى رياسة المالكية ، حتى انتهت اليه بعد وفاة ابن القاسم ، وقد انتصر لأشهب بعض المصريين أمثال محمد بن عبدالله بن عبدالحكم الذى كان يفضل أشهب على ابن القاسم وتوفى أشهب على ابن القاسم وتوفى أشهب سنة ٢٠٤ من الهجرة[٥]

ويروى السيوطى أن أول من أدخل مذهب مالك فى مصر هو عثمان بن الحكم الجذامى المتوفى سنة ١٦٣ هـ .

(١) الكواكب السيارة ، ص ٣٩

(٢) الديباج لابن فرحون ، ص ٩٨ (طبعة السعادة سنة ١٢٩٣)

(٣) الكواكب السيارة ، ص ٣٧ (٤) ابن خلكان ، جـ ١ ، ص ٧٨

(٥) حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٦

الليث بن سعد :

وما دمنا نتحدث عن هؤلاء العلماء والفقهاء الذين كان لهم أثر في مصر ، لا بد لنا من وقفة قصيرة عند عالم مصري شُهد له بالعلم والفقه ، حتى قيل عنه إنه إمام أهل مصر في الفقه والحديث ، ذلك هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن ، لم يكن عربياً أصيلا في عروبته ، ولم يكن مصرياً عريقاً في مصريته ، بل كان فارسياً من أصبهان ، وكان مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي ، ولد الليث في قرية من قرى مصر هي قلقشنده ، ويقول الليث إن بعض أهله حدثوه أنه ولد سنة اثنتين وتسعين للهجرة ، ويوقن هو أن ولادته كانت سنة أربع وتسعين للهجره ، ولكن السمعاني يقول إنه ولد سنة أربع وعشرين ومائة ، ويقول السيوطي إنه ولد سنة أربع وتسعين[1] ويقول غيره إنه ولد سنة ثلاث وتسعين[2] نشأ بمصر وتثقف على علمائها أمثال يزيد بن أبي حبيب ، وجعفر بن ربيعة وخير بن نعيم وغيرهم ثم لم يقنع بهذا كله ، فنراه يطوف ببعض البلدان طلباً للعلم ، فذهب إلى مكة للحج سنة ثلاث عشرة ومائة ، وهناك أخذ عن نافع مولى عبد الله بن عمر وعطاء بن أبي رباح وهشام بن عروة وقتادة وغيرهم وزار بيت المقدس سنة تسع وثلاثين ومائة هـ ، وزار بغداد سنة تسع وخمسين ومائة[3] في هذه الزيارات كلها قابل عدداً كبيراً من التابعين

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٤

(٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٣٨

(٣) يراجع ما كتبه الأستاذ Guest في مقدمة كتاب الولاة للكندي عن الليث ابن سعد

وأخذ عنهم الحديث ورووا عنه ، ونرى له شأنا آخر من الناحية الفقهية فقد كان الليث فقيهاً مبرزاً ، حتى أن الشافعي كان يقول «الليث ابن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به»[1] فهذا حكم إمام من أئمة الفقه لليث بن سعد ، كذلك نجد ابن خلكان يروى أن ابن وهب كان يقرأ عليه مسائل الليث ابن سعد فمرت به مسألة ، فقال رجل من الغرباء: أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب هو فقال ابن وهب للرجل : بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو ، والله الذى لا إله إلا هو ، ما رأينا أحداً قط أفقه من الليث[2] . ويروى السيوطى أن ابن بكير قال ما رأيت أحداً أكمل من الليث ، كان فقيه النفس ، عربى اللسان ، يحسن القرآن والنحو ، ويحفظ الحديث[3] والشعر ، حسن المذاكرة[4] وقال سعيد بن أيوب لو أن مالكا والليث اجتمعا كان مالك عند الليث شبه أبكم ولباع الليث مالكا فيمن يريد[5] وكان مالك يقول : «حدثنى من أرضى من أهل العلم» يريد به الليث[6] ومن تلاميذ الليث عبد الله بن المبارك وأبو النضر هاشم بن القاسم ويونس بن محمد المؤدب وعبد الله بن وهب وأشهب وأكثر هؤلاء من شيوخ ابن حنبل . وسعيد بن عفير وعبد الله بن صالح كاتب الليث وعبد الله بن يونس التنيسى وقد روى البخارى عن أكثرهم ، كما أخذ عنه قتيبة بن سعد

---

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٣٨ (٢) شرحه

(٣) فى الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة (يحسن القرآن والفقه والنحو والطب والشعر) (٤) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٤

(٥) كتاب الرحمة الغيثية للعسقلانى ص ٦ (طبع بولاق سنة ١٣٠١ هـ)

(٦) شرحه ص ٨

من هذا كله نستطيع أن نعرف مكانة الليث بن سعد فى نفوس المصريين المعاصرين له ، حتى قيل إن القاضى والوالى كانا من تحت أمره ومشورته ، لايقطعان أمرا إلا بعد أن يرى هو فيه رأيه[1]. واضطر أحد الشعراء من خصوم الليث إلى أن يرسل إلى الخليفة أبى جعفر المنصور يقول :

لعبدالله عبد الله عنـــدى نصائح حكتها فى السر وحدى
أمير المؤمنين تلاف مصرا فإن أميرهـا ليث بن سعد

وكان الليث ثريا كريما ، ومع فقهه وتدينه كان يأخذ بنصيبه فى الحياة الدنيا التى لم يحرمها الله ، وقد كتب مالك إليه يقول « بلغنى أنك تأكل الرقاق ، وتلبس الرقاق ، وتمشى فى الأسواق » فأجابه الليث ابن سعد «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق. الخ الآية[2] وقيل إن مالكا أهدى اليه صينية فيها تمر، فأعادها مملوءة ذهباً ... كما كان يتخذ لأصحابه الفالوذج ويعمل فيها الدنانير فمن أكل أكثر من صاحبه ناله دنانير أكثر[3]

كان الليث على حظ كبير من المال ، وقسط وافر من العلم ، وكان يساجل مالكا بالمراسلة ، ويأخذ عليه أمورا لايراها هو ، وقد عثرنا على إحدى هذه الخطابات التى أرسلها الليث إلى مالك مدونة فى كتاب «أعلام الموقعين» لابن قيم الجوزية ، وفى هذه الرسالة نرى بعض المسائل الفقهية التى لاتعنينا فى بحثنا هذا ، ولـكننا نستطيع أن نتخذ هذه الرسالة مثلا للكتابة الدينية فى هذا العصر .

(١) النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٨٢ (٢) شرحه
(٣) ابن خلـكان ، جـ ١ ، ص ٤٣٨

تدلنا الرسالة على أن لغة التأليف التى كانت عربية ساذجة قد دخلها شيء من الصعوبة والتعقيد ، ليس معنى هذا أن اللغــة أصابها الفساد . بل خرجت عن سهولتها الأولى ، وصارت لغة تأليف على بعد أن كانت لغة مخاطبة وحديث ، واللغة لا بد لها من تغيير حتى تحتمل هذا التجديد الذى طرأ على العقلية العربية ، من ذلك كله نجد شيئا من الغرابة فى هذه الكتب العلمية والدينية ، ونجد ضعفا فى تأليفها ، ولكن عربيتها صحيحة فى الغالب ، فلم يبق إلا أن المؤلفين لم يتمكنوا من تأدية المعنى الذى قصدوا اليه فى قالب عربى صحيح إلا بمشقة وجهد ، ولهذا لا تستطيع أن تفهم هذه المتون الدينية التى كتبها المؤلفون فى هذا العصر ومابعده إلا بعد شرح وإطالة نظر لم يشأ الليث فى رسالته هذه أن ينمق كتاباته أو يزخرفها بالزينة اللفظية ، لأن هذه الألوان من الزينة لم تكن قد انتشرت بعد ، لهذا استعمل الأسلوب العربى القديم الذى نراه فى كتب الحديث وغيرها والذى نجده فى رسائل صدر الإسلام . فهو يبدأ بالسلام وحمد الله على طريقة المتقدمين ثم يدعو الله للمخاطب ولنفسه وبعد هذا كله يعرض لموضوع الرسالة .

« سلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو (بعد) عافانا الله وإياك وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا والآخرة ، قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى ، فأدام الله ذلك بكم وأتمه بالعون على شكره ، والزيادة من إحسانه ، وذكرت نظرك فى الكتب التى بعثت بها إليك ، وإقامتك إياها ، وختمك عليها بخاتمك ، وقد أتتنا

فجزاك الله عما قدمت منها خيراً ، فانها كتب انتهت إلينا عنك ، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها ، وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتانى عنك إلى ابتدائى بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندى موضع وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلا ، إلا أنى لم أذاكرك مثل هذا ، وأنه بلغك أنى أفتى بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وإنى يحق علىّ الخوف على نفسى ، لاعتماد من قبلى على ما أفتيتهم به ، وأن الناس تبع لأهل المدينة التى اليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وقد أصبت بالذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحداً ينسب اليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى ، والحمد لله رب العالمين لاشريك له ».

ثم نراه بعد ذلك يحدثه فى أمور فقهية خالصة ، ويفتى له فيها .
ومن هذا الخطاب يظهر لنا أثر ثقافة الليث ، فهى ثقافة عربية خالصة ، وثقافة دينية إسلامية تمثلها هذه المسائل الفقهية التى يتحدث عنها ، ثم إنا لانجد أثراً لهذه الجمل المسجوعة ، ولا التكرار والحشو ، ولا ذلك الإطناب الذى نراه فى الرسائل التى تكلف أصحابها الزينة البديعية ، فهذا خطاب دينى كتب بأسلوب علمى ، هو هذا الأسلوب الذى نراه فى كتب الفقه . ثم نراه يختم خطابه بالدعاء لمالك ، والسؤال عنه وعن آله وحاله « وأنا أحب توفيق الله إياك ، وطول بقائك ، لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك ، مع استئناسى بمكانك ، وإن نأت الدار ، فهذه منزلتك

عندى ورأيى فيك فاستيقنه ، ولا تترك الكتاب إلىّ بخبرك، وحالك ، وحال ولدك وأهلك ، وحاجة إن كانت لك ، أو لأحد يصل لك ، فإنى أسر بذلك . كتبتُ إليك ونحن صالحون معافون ، والحمد لله ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا ، وتمام ما أنعم به علينا ، والسلام عليكم ورحمة الله »(١).

هذا هو إمام مصر الذى أسف الشافعى على فوات لقيه (٢) ، ولو كان تلاميذ هذا الإمام عنوا بعلمه وفقهه لكان له شأن آخر غير هذا الشأن ، ولما أهمله الفقهاء وعلماء المسلمين لاسيما هؤلاء المصريين الذين كان لهم أن يفخروا بعالمهم ، ويحتفظوا بعلمه ، ولكن كانت المالكية مستأثرة بنفوس المصريين أو كما قال الليث « إن الناس تبع لأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة » ثم إن الليث لم يصنف من الكتب كغيره من الفقهاء ، ولم يدون أصحابه المسائل عنه ولهذا قال الشافعى ضيعه أصحابه (٣).

ومن أكبر تلاميذ الليث بن سعد ، إسحق بن الفرات صاحب مالك وقاضى مصر والذى قال الشافعى عنه « ما رأيت بمصر أعلم منه باختلاف الناس » (٤) وقال ابن عليه « ما رأيت ببلدكم أحداً يحسن العلم إلا ابن الفرات » (٥) وتوفى سنة ٢٠٤ هـ . وكذلك إسحق بن بكر بن مضر المصرى وكان يجلس فى حلقة الليث ويفتى بقوله وتوفى

---

(١) نص هذا الخطاب فى كتاب اعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ، ج ٣، ص ٢ ٨ (طبع فرج الله زكى سنة ١٣٢٥ هـ) .

(٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٣٨ (٣) الرحمة الغيثية للعسقلانى ص ٩

(٤) حسن المحاضرة ، ص ١٦٦ (٥) الكندى ، ص ٣٩٣

سنة ٢١٨ هـ [١] وأحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفى وكان وكيل الليث ومحدثا عنه [٢]. ونستطيع أن نقول إن أكثر فقهاء مصر الذين عاصروا الليث أمثال عبد الله بن وهب وعبد الله بن عبد الحكم وأولاده قد تفقهوا بالليث بن سعد ولكنهم كانوا يؤثرون مذهب مالك على مذهبه.

المدرسة الشافعية :

قويت المدرسة المالكية فى مصر كما رأينا ، ولكن وفد الشافعى على مصر وأقام بها ، فاجتمع له المصريون ، ومنهم كثير من أنصار مالك مثل محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيره ، فانقسم المصريون بعد أن كادوا يجمعون على آراء مالك ، فلما وجد بعض وجوه المصريين اختلاف التعاليم الشافعية عن المالكية رموا الشافعى بأشياء كثيرة ، من ذلك ما يرويه ابن خلكان عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنه قال « كنت أتردد إلى الشافعى ، فاجتمع قوم من أصحابنا إلى أبى — وكان على مذهب الإمام مالك — فقالوا له يا أبا محمد ، إن محمداً ينقطع إلى هذا الرجل ، ويتردد إليه ، فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه ، فجعل يلاطفهم ، ويقول هو حدث ، ويحب النظر فى اختلاف أقاويل الناس ومعرفة ذلك ، ويقول لى فى السر يا بنى إلزم هذا الرجل [٣] .

ويحدثنا الكندى أن عيسى بن المنكدر — الذى تولى قضاء مصر

---

(١) حسن المحاضرة ، ص ١٦٧ (٢) الكواكب السيارة ، ص ٨٣

(٣) ابن خلكان ، جـ ١ ، ص ٤٠٦

من سنة ٢١٢ إلى سنة ٢١٤ هـ — كان يصيح بالشافعي ويقول له : يا كذا دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد ، ورأينا واحد ، ففرقت بيننا وألقيت بيننا الشر !! فرّق الله بين روحك وجسمك »(١) . ويحدثنا ياقوت أن رجلا من أتباع مالك يسمى فتيان كان يناظر الشافعي كثيراً فيظهر الشافعي عليه ، فضاق فتيان بذلك ، وشتم الشافعي شتما قبيحاً ، فلم يرد عليه الشافعي ، وتعصب قوم لفتيان ، فقصدوا حلقة الشافعي حتى خلت من أصحابه ، وبقي وحده ، فهجموا عليه وضربوه ضرباً مبرحاً، فحمل إلى منزله ولم يزل فيه عليلا حتى مات(٢) .

وهكذا انقسم المصريون بين فقه المالكية والشافعية : واشتد النزاع بين المدرستين ، حتى أدى الأمر إلى وقوع مناقشات عنيفة بل إلى قتال أحياناً ، فقد جاء في كتاب المغرب « وفي سنة ٣٢٦ هـ عاد أصحاب مالك والشافعي إلى القتال في المسجد الجامع العتيق ، وكان في الجامع للمالكيين خمس عشرة حلقة ، وللشافعية مثلها ، ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلق ، فلما زاد قتالهم أرسل الأخشيد ونزع حصرهم ومساندهم وأغلق الجامع ، وكان يفتح في أوقات الصلوات ، ثم سئل الأخشيد فيهم فردهم »(٣) .

من ذلك نستطيع أن نقول إن المدرسة الشافعية استطاعت أن تنافس المدرسة المالكية بمصر ، وقد هيأت الشافعية جواً جديداً في العلم لم تعهده مصر من قبل، إذ استطاعت أن تناقش المذاهب الأخرى

---

(١) الكندي ، ص ٤٣٨ (٢) معجم الأدباء ، ج ٦ ، ص ٣٩٥

(٣) المغرب في أخبار المغرب ، ج ٤ ، ص ٢٤

وأن تناظرها ، فابتدأت أذهان المصريين تتنبه لهذه المجادلات العنيفة والمناظرات العلمية . ونحن إذا قرأنا كتاب الرسالة الذى بين أيدينا وهو كما يقول المؤرخون مكتوب فى مصر ، نجد الشافعى يستعمل فيه أحيانا طريقة المناظرة ، فيتخيل شخصاً يعارضه فى تفسير نص أو فتوى ، فيجيبه ويفند آراءه حتى يلزمه الحجة ، ويقنعه برأيه ، وطريقة المناظرة هذه لم تعرف قبله فى مصر ، ولم نجد لها أثراً قبل الشافعى ، بل هى من آثار دراسة الشافعى فى العراق والحجاز، حيث كثر المتكلمون وأصحاب المذاهب ، وتشعبت الآراء ، وكثر الجدل بين الطوائف الإسلامية وغيرها من المذاهب الدينية الأخرى، كمناظرة الشافعى ومحمد بن الحسن الشيبانى ، والشافعى وابن علية ، ونجد الخلفاء العباسيين ووزراءهم يحضرون هذه المناظرات ويقيمونها عندهم ، أما فى مصر فقد رأينا كيف كاد المصريون يعتنقون مذهباً واحداً ، ولم تكن بمصر مناظرات كثيرة تشغل العلماء ورجال الدولة كما كان فى العراق ، ونرى بعض أمراء مصر لا يحبون أن تقام مناظرات بين العلماء أمامهم ، فقد قيل إنه تنازع أبو بكر بن الحداد الفقيه وبكر بن محمد القاضى المالكى وعبد الله بن الوليد ، وجرى بينهم لغط كثير فى حضرة الأخشيد ، فلما انصرفوا قال « يجرى هذا فى مجلسى كدت والله أن آمر بأخذ عمائمهم »[1]، ومهما يكن من شىء فالشافعى هو الذى شجع روح المناظرة العلمية فى مصر ، فكان يناظر بعض المصريين ليستفيد من علمهم ، كالذى يرويه السيوطى

---

(١) المغرب ، ص ٣١

أن الشافعي كان يقول للربيع بن سليمان ياربيع أدع لى سرجا — يريد سرج الغول وهو رجل من أهل مصر عالم باللغة ولا يقول أحد شيئاً من الشعر إلا عرضه عليه — فيأتى به ، فيذاكره ويناظره ، ثم يقوم سرج الغول فيقول الشافعي ياربيع ، نحتاج أن نستأنف طلب العلم[1] . كما كان يناظر مخالفيه من الفقهاء ، كالذى يرويه صاحب تاريخ بغداد أن صالح بن أبي صالح كاتب الليث بن سعد قال : كنا مع الشافعي فى مجلسه فجعل يتكلم فى تثبيت خبر الواحد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فكتبناه وذهبنا به إلى إبراهيم بن إسماعيل المعروف بابن عُلية — وكان أحد المتكلمين وممن يقول بخلق القرآن وكانت له مع الشافعي مناظرات ببغداد ، وكان مجلسه بمصر عند باب الضوال — فلما قرأنا عليه جعل يحتج لإبطاله فكتبنا ما قال ابن علية ، وذهبنا به إلى الشافعي فنقضه الشافعي ، ثم كتبنا ما قال الشافعي ، وذهبنا به إلى ابن علية ، فجعل يحتج بإبطال ماقال الشافعي فكتبناه ، ثم جئنا به إلى الشافعي فقال إن ابن علية ضال قد جلس عند باب الضوال يضل الناس[2] . وكان من أثر مناظرات الشافعي مع ابن علية أن وضع ابن علية وعيسى بن أبان كتاباً عن الشافعي والرد عليه ، ورد عليهما داود بن على الأصبهانى[3] . وهكذا أخذ المصريون يؤلفون كتباً فى المذاهب والدفاع عنها ، وأخذوا عن الشافعي طريقته فى الكتابة العلمية إذ كان يأتى بالآية أو الحديث ويشرحه ، ثم يستنبط منه ما ينتهى إليه رأيه ، وكان يختار من

---

(١) بغية الوعاة ، ص ٢٥٢ (٢) تاريخ بغداد ، ج ٦ ، ص ٢٠

(٣) شرحه ، ج ٦ ، ص ٢٢

الألفاظ الجياد الدقيقة ماتلائم المعانى ، وجاء تلاميذ الشافعى فحولوا العبارة إلى نصوص علميـة ، محذوفة السند ، كالتى نراها فى مختصر المزنى مثلا ، فقد أخذ كلام الشافعى وفهمه وكتبه على طريقة أستاذه دون أن يأتى بالأسانيد ، فوجدت بذلك روح الـكتابة عند المؤلفين المصريين .

وكان كتاب « الأم » مثالا يحتذيه رجال المدرسة الشافعيـة فى كتاباتهم ، وهذا الـكتاب ليس كتاباً واحداً ، بل هو مقسم إلى عدة كتب ، وفى كل كتاب موضوع خاص . وكما قلت كان يأتى بالآية أو الحديث فيفسره ، ويعلق عليه بجمـــل قصيرة متينة التركيب والأسلوب، وفى مقدمة الرسالة نجد الشافعى يبدأ قوله بالحمد، ويكرر فى ذلك ، وهذه الطريقة ليست مصرية ، بل هى طريقة عبد الحميد الكاتب ، واستعملها كتّاب العراق فى رسائلهم المطولة ثم نراه بعد ذلك يستطرد فى الموضوع الواحد ، فبينما هو يحمد الله يذكر آية أو نصاً ويفسرها ، ثم يعود إلى الحمـد مرة أخرى ، ويكرره بالعطف، وقد أكثر من الاستطراد وأطال ، ثم يصلى ويسلم على النبى فى الديباجة ، وهذه الصلاة وذلك التسليم لم يوجدا فى الرسائل والـكتب، حتى جاء الرشيد فاستعمل ذلك فى رسـائله ، حتى عدت من مناقب الرشيد وقد اتبعها الـكتاب بعده .

والشافعى كان فصيحاً فى تعبيراته وألفاظه ، فكان لذلك أثره فى تلاميذه الذين أخذوا ما كتب ورووا عنـه ما قال حتى اختلف

الكتاب أخيراً فى كتاب « الأم » ، أهو للشافعى أم للبويطى تلميذ الشافعى[1] .

والذى أراه أن تلاميذ الشافعى رووا ما فى الأم عنه ، وجمع البويطى مارواه عن الشافعى ، وسماه الأم ، فالشافعى نفسه — فى أغلب الظن — لم يسم كتابه الأم ، بل كان يملى على تلاميذه دروساً مقسمة إلى الكتب أو النصوص التى يتكوّن منها الأم فسماها البويطى الأم . كذلك كان الأمر فى كتاب الأصول لأبى حنيفة ، فإن أبا الحسن الشيبانى هو الذى جمع ما فى الأصول وسماه بهذا الاسم ، ولكنا نلاحظ أن الشافعى كتب بعض فصول الأم بنفسه ، وروى الربيع بعضها عنه وإذن فالشافعى هو صاحب الكتاب وتلاميذه هم الذين جمعوه ورتبوه حتى أخذ مظهره الحالى .

وكما أثر الشافعى فى المصريين تأثيراً محسوساً ، كذلك نراه يتأثر بالحياة المصرية نفسها ، فالشافعى كان من مدرسة الحديث أى من تلاميذ مالك ، وقد هاجم مدرسة الرأى — أى مذهب أبى حنيفة — أثناء زيارته للعراق ، ولكنا نجده فى مصر يهاجم مدرسة الحديث ممثلة فى مذهب مالك ، ويكوّن مذهبه الجديد فى مصر . كذلك نراه قد كتب الرسالة مرتين، كتبها أولا فى العراق ، ثم أعاد كتابتها فى مصر بعد أن غير فيها بعض التغييرات التى تلائم الحياة المصرية ، وكذلك نقول عن مذهبه فقد كتبه مرتين ، كتب فى العراق مذهبه القديم ، وكتب فى مصر مذهبه الجديد ، ويستطيع رجال الفقه أن يفرقوا بين المذهبين لو قدر للمذهب القديم البقاء .

---

(١) راجع بحث الدكتور زكى مبارك عن كتاب الأم (مطبعة حجازى بمصر سنة ١٩٣٤) .

أما تلاميذ الشافعي الذين كان لهم الفضل في حفظ مذهبه ونشره فقد عدهم الحافظ السلفي في قصيدة نظمها هي [١] :

فعليك يامن رام دين محمد ... بالشافعي وما تلاه وقالا
أعني محمداً بن إدريس الذي ... فاق البرية رتبـــة وكمالا
وأجب كذا عن صحبه وأحبهم ... وأجلهم لله جـل جلالا
فأجلهم شيخ الأئمة أحمد [٢] ... فيما رواه من الحديث وقالا
والأعيني [٣] ويونس الصدفي [٤] والـ ... مزني [٥] آخر من إليـــه مالا

---

(١) الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة لابن الزيات ، ص ١٥١

(٢) يقصد الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب المعروف .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الكريم بن أعين بن ليث ولد سنة اثنتين وثمانين ومائة وتوفي سنة ٢٦٨ سمع من ابن وهب وأشهب ثم صحب الشافعي وتفقه به وحمل في محنة خلق القرآن إلى القاضي بن أبي داؤد ببغداد ثم رد إلى مصر وانتهت إليه رياسة المالكية بعد وفاة أبيه والشافعي وله كتاب السنن على مذهب الشافعي .

(٤) يونس بن عبد الأعلى بن موسى الصدفي المصري روى عن ابن عيينة وتفقه على الشافعي وقرأ على ورش وتصدر للاقراء والفقه ولد سنة ١٧٠ ومات سنة ٢٦٤ وروى عنه مسلم والنسائي وابن ماجة وكان الشافعي يقول عنه ما رأيت بمصر أعقل من يونس بن عبد الأعلى (ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٤١٨) .

(٥) أبو إبراهيم إسماعيل بن يحي بن إسماعيل بن عمرو بن إسحق المزني يعتبر إمام الشافعيين وأعرفهم بطرق الشافعي وفتاويه صنف كتبا كثيرة في مذهب الشافعي منها الجامع الكبير والصغير والمختصر ومختصر المختصر والمنثور والمسائل المعتبرة وغيرها وكتابه المختصر أصل الكتب المصنفة في مذهب الشافعي وعلى مثاله كتب المؤلفون أو فسروا ما فيه (ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٧١ والفهرست ، ص ٢٩٨ — ٢٩٩) ويقول السيوطي إن الشافعي قال في المزني إنه لو ناظر الشيطان لغلبه (حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٨) ولد سنة ١٧٥ وتوفي سنة ٢٦٤ .

وكذاك حرملة (١) بن يحيى والـ
بويطى (٢) الذى قد أعجز الإشكالا
واذكر أبا ثور (٣) فقيـــه عراقه
وفريدها والحـارث البقـالا
ثم الربيعـان (٤) اللذان تفننـا
فى فقهـــه وتحملا الأثقـالا

---

(١) حرملة بن يحيى بن عبد الله التجيبى أبو حفص المصرى كان له مذهب لنفسه وصنف المبسوط والمختصر وروى عن مسلم وابن ماجة ولد سنة ١٦٠ ومات سنة ٢٤٣ (حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٨) .

(٢) أبو يعقوب يوسف بن يحيى المصرى البويطى سمع من عبد الله بن وهب والشافعى وسمع منه كثيرون منهم أبو إسماعيل الترمذى وإبراهيم بن إسحق الحربى وفى تاريخ بغداد أن الشافعى لما مرض مرضه الذى مات فيه جاء محمد بن عبد الحكم ينازع البويطى فى مجلس الشافعى فاحتكما إلى أبى بكر الحميدى فقال لهما إنه سمع الشافعى يقول ليس أحد أحق بمجلسى من يوسف بن يحيى (يعنى البويطى) وليس أحد من أصحابى أعلم منه ، وجلس البويطى فى مجلس الشافعى (ابن خلكان ، جـ ٢ ، ص ٣٤٦) وكان ابن أبى الليث الحنفى قاضى مصر يحسده ، فسعى به إلى الواثق بالله أيام محنة خلق القرآن فأمر بحمله إلى بغداد مغلولا مقيدا وأريد منه القول بذلك فامتنع فحبس فى بغداد إلى أن مات فى القيد والسجن يوم الجمعة من رجب سنة احدى وثلاثين ومائتين (حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ١٦٧) وللبويطى كتاب المختصر الكبير والصغير وكتاب الفرائض (ابن النديم ، ص ٢٩٨).

(٣) أبو ثور ابراهيم بن خالد بن أبى اليمان الكلبى الفقيه البغدادى صاحب الامام الشافعى وناقل الأقوال القديمة عنه له الكتب المصنفة فى الأحكام جمع فيها بين الحديث والفقه وكان أول اشتغاله بمذهب أهل الرأى حتى قدم الشافعى العراق فاختلف اليه واتبعه ولكنه خالفه فى أشياء وأحدث لنفسه مذهبا اشتقه من مذاهب الشافعى وله مبسوط على ترتيب كتب الشافعى وأكثر أهل أذربيجان وأرمينية يتفقهون على مذهبه (الفهرست ص ٢٩٧) وتوفى سنة ٢٤٠ هـ .

(٤) هما الربيع بن سليمان المرادى والربيع بن سليمان بن داود الأزدى الجيزى =

والزعفرانى [١] الصدوق ورهطه
في كل قطر وأعرف الأبطالا

وأول قاض شافعي ولى مصر هو أبو زرعة محمد بن عثمان بن ابراهيم الثقفى ولى القضاء سنة ٢٨٤ ﻫ ولما عزل رجع إلى دمشق ، وكان الغالب على أهلها قول الأوزاعى ، فأبو زرعة هو الذى أدخل مذهب الشافعي دمشق ، وتبعه من بعده كثير من القضاة [٢] ، وقيل إن أبا زرعة شرط لمن يحفظ مختصر المزنى مائة دينار يهبها له [٣].

= أما الربيع المرادى فهو أبو محمد الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادى المؤذن المصرى وهو الذى روى أكثر كتب الشافعى وقال الشافعى فى حقه « الربيع راويتى » (ابن خلكان ، ﺟ ١ ، ص ١٨٤) وكان الربيع المرادى أقدم أصحاب الشافعى بمصر صحبة وأشهرهم صحبة له (الكواكب السيارة ص ١٢٢) روى عنه أصحاب السنن الأربعة والطحاوى وأبو زرعة وغيرهم وكان يملى الحديث بجامع ابن طولون وهو أول من أملى به وتوفى سنة ٢٧٠ (حسن المحاضرة ، ﺟ ١ ، ص ١٩٦) .

أما الربيع الجيزى فهو أبو محمد الربيع بن سليمان بن داود بن الأعرج الأزدى الجيزى صاحب الامام الشافعى ولكنه كان قليل الرواية عنه وأكثر روايته عن عبد الله بن عبد الحكم وروى عنه ابو داود والنسائى وغيرهما وتوفى سنة ٢٥٦ بالجيزة وهو الذى ينسب إليه جمع الأم وترتيبه بعد البويطى ونلاحظ أن اسم الربيع تكرر كثيرا فى كتاب الأم فيلتبس الأمر على القارىء مَن مِن الربيعين هو المقصود وقد وفق الأستاذ زكى مبارك إلى التفرقة بين الربيع المرادى والربيع الجيزى فى بحثه عن كتاب الأم ص ٧٣

(١) أبو عبد الله الحسن بن محمد بن الصباح روى المبسوط عن الشافعى على ترتيب ما رواه الربيع وخالف فى شىء يسير ولذا لا يعتمد عليه الفقهاء بل يعتمدون على ما رواه الربيع وقد ضاع أكثر كتب الزعفرانى وتوفى سنة ٢٦٠ ﻫ (الفهرست ص ٢٩٧).

(٢) الكندى : القضاة والولاة ص ٥٢٣ ورفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٣) تاريخ الإسلام للذهبى نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

وهناك قاض آخر كان له أثره فى الأدب والفقه هو أبو عبيد على بن الحسين بن حرب المعروف بحربويه وهو من أهل بغداد ودخل مصر فى شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين من الهجرة وظل قاضياً على مصر إلى أن عزل سنة إحدى عشرة وثلثمائة فخرج من مصر إلى بغداد حيث توفى سنة تسع عشرة وثلثمائة من الهجرة . حدث عن النسائى ، وتفقه على أبى ثور صاحب الشافعى ، وحدث فى زمن ولايته ، فلما صرف أملى على المصريين وكتبوا عنه مجالس، وروى عنه أبو جعفر الطحاوى وأبو بشر الدولابى ، وكان له مركز قيم فى مصر حتى أنهم أخذوا أقواله أمثالا كقوله « إن البغاث بأرضكم يستنسر » قال الطحاوى كنت أذكر عنده ابن أبى عمران الحنفى فقال لى « إلى كم تقول ابن أبى عمران، قد رأيت هذا الرجل بالعراق، « إن البغاث بأرضكم يستنسر » قال فصارت هذه الكلمة بمصر مثلا[١]. وقال الطحاوى أيضاً كان أبو عبيد يذاكرنى بالمسائل ، فأجبته يوماً فى مسألة ، فقال لى ماهذا قول أبى حنيفة ، فقلت له أيها القاضى أو كلما قاله أبو حنيفة أقول ، قال : ماظننتك إلا مقلداً ، فقلت له : وهل يقلد إلا عصى فقال لى أو غبى ، فطارت هذه الكلمة بمصر حتى صارت مثلا [٢] . وكانت توقيعات أبى عبيد تخرج معنونة مختومة وكتبت بمصر ألفاظه ، وجمعت توقيعاته وكانت محشوة فقهاً وبلاغة[٣] ولكن فقدت كل هذه التوقيعات ولم يبق منها شىء .

---

(١) الكندى ص ٥٢٩ (٢) الكندى ص ٥٢٨

(٣) رفع الاصر عن قضاة مصر لابن حجر .

المدرسة الحنفية :

وضع الإمام أبو حنيفة النعمان مذهبه متأثراً بما كان فى العراق من مذاهب المتكلمين وأهل الرأى ، وقد رأينا المصريين لا يقبلون من المذاهب والآراء إلا ما كان صادراً من المدينة أومكة ، فلانجد مصريين اهتموا كثيراً بمذهب أبى حنيفة فى أول الأمر ، إنما نقل المذهب إلى مصر القضاة الذين كانوا يعينون من العراق ، ولعل أول قاض تولى مصر ممن دان بمذهب أبى حنيفة هو اسماعيل بن اليسع الكندى (١) الذى ولى سنة ١٦٤ ﻫ ، وقد كرهه المصريون لأنه كان يذهب مذهب أبى حنيفة ، ولم يكن أهل مصر يعرفون هـذا المذهب (٢) حتى أن الليث بن سعد كتب إلى الخليفة يطلب عزل هذا القاضى ، ويقول « إنك وليتنا رجلا يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين أظهرنا ، مع إنا ما علمناه فى الدينار والدرهم إلا خيراً » فاضطر الخليفة إلى عزل القاضى (٣).

وأشهر قضاة مصر الحنفيين فى ذلك الوقت ، هو القاضى بكار ابن قتيبة بن عبيد الله بن أبى برذعة من نسل ابن أبى بكرة الثقفى مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه . ولد بكار بمدينة البصرة وأخذ الفقه عن هلال بن يحيى ، وعيسى بن أبان وغيرهما من مشايخ البصرة ، وروى عنه أبو داؤد السجستانى ، وابن خزيمة ، وأبو عوانة وأكثر عنه الإمام الطحاوى فقيه الحنفية بمصر وغيرهم.

---

(١) ذكر فى حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٦٣ اسماعيل بن سميع .

(٢) الكندى ، ص ٥٧١ (٣) تاريخ الاسلام للذهبى

ولى قضاء مصر من قبل المتوكل ، فدخلها سنة ست وأربعين ومائتين من الهجرة ، وكان يحدث فى المسجد الجامع ، وكثيراً ما كان أحمد ابن طولون أمير مصر يجيء إلى بكار وهو على الحديث فما يشعر به بكار إلا وهو جالس إلى جنبه [1] . ويذكر ابن حجر عن ابن زولاق أنه كان لبكار اتساع فى العلم والمناظرة ، ولما رأى مختصر المزنى ، وما فيه من الرد على أبى حنيفة شرع هو فى الرد على الشافعى ، فقال لشاهدين من شهوده إذهبا إلى المزنى فقولا له سمعت الشافعى يقول ما فى هذا الكتاب ، فضيا وسمعا المختصر كله من المزنى ، وسألاه عما إذا كان هذا كلام الشافعى ، فرد بالإيجاب ، فعادا إلى بكار فأخبراه بذلك ، فقال : الآن استقام لنا أن نقول قال الشافعى ثم صنف الرد المذكور [2] .

وكان بكار يشتهى أن يسمع كلام المزنى ، فاجتمعا يوماً فى جنازة ، فأشار بكار إلى أبى جعفر التل — وكان حنفياً أيضاً — أن يسأل المزنى عن مسألة ، فقال التل : ما رأيت أعجب من أصحابنا الشافعيين ، لهم أحاديث فى تحريم قليل النبيذ ، ولنا أحاديث فى تحليله فمن جعلهم أولى بأحاديثهم منا بأحاديثنا ؟ فقال المزنى : ليس يخلو أن يكون أحاديثكم قبل أحاديثنا أو بعدها ، فإن كانت قبلها فهكذا نقول إنها كانت محللة ثم حرمت ، فما نحتاج إلى أحاديثكم ، وإن كانت أحاديثكم بعد أحاديثنا فهذا لا يقول أحد أنها كانت حلالا ثم صارت محرمة ثم حللت ! ! فأعجب بكار بقول المزنى ، وقال سبحان الله أن

---

(١) رفع الإصر .　　　(٢) شرحه .

يكون كلام أدق من الشعر فهو هذا[1] وكان بكار يخالف أصحابه في تحليل قليل النبيذ ويذهب إلى تحريمه .

ظل بكار قاضياً على مصر، ويحدث المصريين بمذهب أبي حنيفة حتى دعاه ابن طولون إلى خلع الموفق ولعنه ، فرفض بكار فحبسه ابن طولون ، ولما طال حبسه طلب أصحاب الحديث إلى الأمير أن يأذن لهم في السماع منه ، فأذن لهم ، فكان بكار يحدثهم من طاق في السجن إلى أن توفي سنة ٢٧٠ هـ .

أما الطحاوي فهو يعد إمام المصريين، في مذهب الحنفية لكثرة تلاميذه وخصب نتاجه ، ولد سنة ثمان وثلاثين ومائتين من الهجرة، وصحب المزني الشافعي وتفقه به ثم ترك مذهب الشافعي وصار حنفياً ، وكان كاتباً للقاضي بكار ، وسمع الحديث منه ومن خلق من المصريين ، ومن الغرباء القادمين ، وتوفي سنة ٣٢١هـ ، بعد أن ترك عدة كتب في الفقه ، أولع الناس بها لاسيما كتابه « المختصر في الفقه » الذي وضع له الفقهاء شروحاً عدة .

واشتد تنافس المذاهب في مصر فإذا قلد قاض شافعي كاد لأصحاب المذاهب الأخرى ، كالقاضي اسماعيل بن عبد الواحد المقدسي الذي ولي سنة ٣٢١ فقد تحدث مع الأمير تكين فبعث صاحب الشرطة فأقام من كان بالجامع الكبير من المالكيين والحنفيين[2] . ويروي ابن حجر عن ابن زولاق أن الأخشيدية كلها كانت تكره ابن الحداد الفقيه لكراهتهم في الشافعية[3] . وأمر

(١) الكندي ص ٥١١ (٢) الكندي ص ٥٤٤
(٣) رفع الإصر ، والكندي ص ٥٥٥

القاضي الحارث بن مسكين بإخراج أصحاب أبي حنيفة من المسجد وأصحاب الشافعي وأمر بنزع حصرهم[1] . وروى الكندى أن القاضي ابن أبي الليث انتهز محنة خلق القرآن فأوقع بأصحاب مالك والشافعي ومنع فقهاءهم من الجلوس فى المسجد ومدحه الشاعر الحسين الجمل الأكبر بذلك[2] .

التصوف فى مصر :

مضى القرن الأول من الهجرة ولم نعرف أنه كان بمصر نزعة صوفية لها شعائرها وتقاليدها الخاصة المعروفة حتى كان أواخر القرن الثانى ظهر ذو النون المصرى أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم ، كان من إخميم من أسرة نوبية ، ولا ندرى عمن أخذ هذا اللون من التعبد فقد قيل إن أستاذه شقران العابد وقيل عن فاطمة النيسابورية وقيل إنه كان يتصل بالرهبان فى الأديرة فأخذ عنهم الزهد والانقطاع عن ملاذ الحياة والإقبال على العبادة والتفانى فى الحب الإلهى ، وأنه أخذ عن هؤلاء الرهبان شيئاً من العلوم الفلسفية التى خلفتها الغنوسطية والأفلاطونية الحديثة فأدخل ذلك كله فى تعبيراته عن حبه الإلهى والمعرفة ، وقيل إن بعض الرهبان الذين اتصل بهم كانوا يقرأون النقوش المصرية القديمة ، وأطلعوا ذا النون عليها ، وعلموه أسرارها فكان يذهب إلى البرابى ويحاول فك طلاسمها ورموزها ، وكان ذو النون صاحب خيال رائع فليس ببعيد أن يستفيد ذو النون من هذه الرموز بما يغذى خياله ويوحى إليه بما

---

(١) الكندى ص ٤٦٩ (٢) الكندى ص ٤٥٠

نراه فى أقواله وأفعاله وأشعاره من تفان فى الذات الإلهيـة ، كل هذه خلافات حول المنبع الذى استق منه ذو النون . ولا نستطيع أن نرجح إحداها لغموض شخصية ذى النون نفسه ولأن ما بقى لنا من آثاره لا تكفى لأن نحكم عليه حكما صحيحا أو قريبا الصحيح ، ومهما يكن من شىء فإن ذا النون روى الموطأ عن مالك ولكنه قام يدعو إلى طريقته فى اخميم وتبعه خلق كثير، ولكنه رمى بالزندقة لأنه ابتدع فى مصر الإسلامية ما لم يكن معروفا من قبل ، ورفع علماء اخميم أمره إلى والى مصر الذى حاكمه أمام عبد الله بن عبد الحكم زعيم المدرسة المالكية بمصر ، ومن الطبيعى أن تختلف نزعة ذى النون عن نزعة الفقيه عبد الله بن عبد الحكم ، وتاريخ الإسلام مملوء بالنزاع بين الصوفية والفقهاء ذلك أن الفقهاء يميلون دائما إلى ظاهر القرآن والسنن النبوية والعناية باستخراج الأحكام منهما حسب ما تؤديه اللغة والاستدلال المنطقى ثم يراعون دائما أن يقسموا الأعمال إلى أركان وفروض وأعمال ، أما الصوفية فلا يفرقون بين واجب ومسنون وإن الأعمال الظاهرة ليست بذات قيمة بجانب الباطن ، ولكل فرض من فرائض الدين أسرار ولكل شعار من شعائر الدين رموز ويفضلون الطهارة القلبية قبل كل شىء ولتضارب النزعتين سمى الفقهاء أنفسهم رجال الشريعة وسمى الصوفية أنفسهم رجال الحقيقة ، ولما كانت الصوفية جديدة فى الحياة الإسلامية المصرية فى القرن الثانى والثالث من الهجرة وكانت الصوفية مضطهدة فى كل بقاع العالم الإسلامى ويكفى أن نذكر قصة الحلاج والمحاسبى مع أحمد بن حنبل وغيرهما وكان ذو النون أول صوفى اضطهد فى مصر

بسبب نزعته ، فترك مصر ورحل إلى بلاد عديدة كبلاد المغرب والحجاز واليمن ، وبعد أن هدأت الحالة عاد إلى مصر بعد أن توفى عبد الله بن عبد الحكم ، ولكن ثار الفقهاء ضده من جديد وكان قاضى مصر إذ ذاك محمد بن أبي الليث الذى امتحن المصريين بخلق القرآن ، فأراد ذو النون أن يهرب من مصر مرة أخرى ولكنه لم يفعل ، فقبض عليه وأرسل إلى بغداد فقيد وسيق إلى المطبق والناس يبكون حوله وهو يقول هذا من مواهب الله تعالى ومن عطاياه وكل فعاله عذب حسن طيب وأنشد .

لك من قلبى المكان المصون　　كل يوم على فيك يهون

لك عزم بأن أكون قتيلا　　فيك والصبر عنك مالا يكون

وكان بعض رجال حاشية المتوكل اعتنق الصوفية ، فسعى فى إطلاق سراحه ، فأحضره المتوكل وتأثر بوعظه ورأى أنه ليس بذى النون مظهر من مظاهر الخوف على الدولة أو الدين ، فأطلق سراحه وبذلك نصر المتوكل الصوفية على الفقهاء متأثراً بشخصية ذى النون وتوفى ذو النون بمصر سنة ٢٤٨ .

وكان ذو النون من أوائل الصوفية الذين استعملوا كلمة الحب وتوسع فى معنى الحب الإلهى وفسره تفسيرا لا يزال أساساً من أسس الصوفية إلى اليوم . كما قيل أنه أول من تكلم فى الأحوال والمقامات وينسبون إليه أنه أول من وسع الكلام عن الولاية وبحث من أيهم أفضل النبى أم الولى . وكذلك ينسبون إليه كلمة الابدال وأنه أول من فصل مسألة المعرفة إلى غير ذلك من الآراء الصوفية التى نراها اليوم .

ولأول مرة فى تاريخ مصر الإسلامية نجد شيئاً إسمه الصوفيه لهم كيان وتدخل فى أمر البلاد ، ويقول الكندى[1] وابن حجر : كانت بمصر جماعة من الصوفية يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وكان عيسى بن المنكدر منهم ، فلما ولى القضاء كانت تأتيه وهو فى مجلس الحكم ثم أتت تلك الطائفة فقالوا : إن أمير المؤمنين المأمون قد ولى أبا إسحاق بن الرشيد مصر وإنا نخافه ونخشى أن يشد على أهل العدوان فاكتب لنا كتابا إلى المأمون بأنك لاترضى بولايته ففعل ذلك ابن المنكدر وبلغ الكتاب المأمون واطلع عليه أبا إسحاق المعتصم فعزل ابن المنكدر عن قضاء مصر .

فهذا يدلنا على أن الصوفية أصبح لهم مكانة وعصبة فى مصر

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن الحركة الدينية بمصر كانت حركة كبيرة قوية ، وأخرجت مصر عدداً كبيراً من القراء والمحدثين والفقهاء ، بجانب هذه الحركة الأدبية التى سنتحدث عنها فى الفصل القادم .

---

(١) الولاة والقضاة ص ٤٤٠ ، وابن حجر فى كتاب رفع الإصر عن قضاة مصر.

الفصل الثانى

اللغة والتاريخ

النحاة واللغويون

رأينا كيف قامت بمصر مدارس دينية خالصة ، استمرت منذ الفتح فى نشاط ودأب ، ولم نر فى القرن الأول أثراً لهذه الدراسات الأدبية واللغوية التى كلف بها العراقيون وغير العراقيين من الشعوب الإسلامية ، ولكننا نجد تطوراً فى القرن الثانى الهجرى ، إذ قامت بمصر دراسات أدبية ونحوية ولغوية ، واطرد نمو هذه الدراسات حتى غمرت مصر وفاضت على غيرها من بلدان المغرب ، ونبغ عدد كبير من علماء المصريين، وكثرت المؤلفات العلمية التى أفادت المصريين كما استفاد منها غير المصريين .

فمن النحاة الذين كان لهم أثر محمود فى مصر بنو ولاّد ، وأشهرهم الوليد بن محمد التميمى النحوى المشهور بولاّد . كان الوليد نحوياً مجوداً ، روى عن القنبى وأبى زرعة المؤذن كُتُبَ اللغة والنحو ، وأصله من البصرة، ونشأ بمصر، ودخل العراق، ولم يكن بمصر شىء من كتب النحو واللغة قبله ، وأخذ عن المهلبى تلميذ الخليل بالمدينة ثم عن الخليل نفسه [1] . وتوفى سنة ثلاث وستين ومائتين من الهجرة

---

(١) بغية الوعاة ص ٤٠٥

ومحمد بن ولاد التيمى الذى اخذ عن الدينورى النحو والأدب ، ثم رحل إلى العراق، وأخذ عن المبرد وثعلب ،وكان يؤدب ابن صاحب خراج بغداد[١]، ولكنه عاد إلى مصر يعلم الناس ،ووضع كتابه« المنمق فى النحو» توفى سنة ثمان وتسعين ومائتين من الهجرة وقد بلغ الخمسين من عمره. ثم رحل ولده أبو العباس احمد بن محمد بن ولاد إلى العراق ، وأخذ النحو عن الزجاج ، وعاد إلى مصر وألف كتابه « المقصور والممدود » بها ؛ وكان الزجاج يعرف فضل احمد هذا ، ويثنى عليه عند كل من قدم مصر إلى بغداد ، فكان يقول لهم : لى عندكم تلميذ من صفته كذا وكذا . فيقال له : أبو جعفر النحاس فيقول : بل أبو العباس بن ولاد[٢] وتوفى سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة من الهجرة وأبو العباس هذا أستاذ أبى عبدالله الرباحى النحوى الأندلسى .

وكتاب المقصور والممدود هو الكتاب الذى نقده المتنبى فى مصر كما عرض لنقده المهلبى اللغوى النحوى على نحو ماسنذكر فى حديثنا عن المتنبى ، وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة فى مصر سنة ١٩٠٨ وقد بدأه ابن ولاد بحرف الألف مخالفا فى ذلك مذهب الخليل بن احمد وقد قال ابن ولاد فى مقدمة هذا الكتاب من ذلك « ولعل بعض من يقرأ كتابنا هذا ينكر ابتداءنا فيه بالألف على سائر حروف المعجم لأنها حرف معتل ولأن الخليل ترك الابتداء بها فى كتابه كتاب العين ، وليس غرضنا فى هذا الكتاب فيما التمسناه بهذا النوع من التأليف كغرض الخليل فى كتاب العين لأن كتاب العين لا يمكن

(١) شرحه ص ١١٢   (٢) شرحه ص ١٦٩

طالب الحرف منه أن يعلم موضعه من الكتاب من غير أن يقرأه إلا أن يكون قد نظر فى التصريف وعرف الزائد والأصلى من المعتل والصحيح والثلاثى والرباعى والخماسى ومراتب الحروف من الحلق واللسان والشفة وتصريف الكلمة على ما يمكن من وجوه تصريفها فى اللفظ على وجوه الحركات وإلحاقها ما تحتمل من الزوائد بعد تصريفها بلا زيادة ويحتاج مع هذا إلى أن يعلم الطريق التى وصل الخليل منها إلى حظر كلام العرب ، فاذا علم هذه الأشياء عرف ما يطلب من كتاب العين والذى نذهب إليه فى هذا الكتاب غير هذا المذهب لأنا نقصد إلى أن نقرب على طالب الحرف فيه ما يطلبه وأن يستوى فى العلم بموضعه منه العلم والمتعلم ، فلم نراع أن يكون فى أول الكلمة حرف أصلى دون أن يكون زائداً أو زائد دون أن يكون أصليا أو صحيح دون أن يكون معتلا أو معتل دون أن يكون صحيحا ، فنكلف الطالب للحرف أن يعرف أولا جميع ما ذكرناه فلذلك بدأنا بالباب الذى يكون أول ما فيه من حروف المعجم الألف .

ثم أخذ ابن ولاد يفصل بين المقصور والممدود ويعدد أنواعهما على مذهب الكوفيين والبصريين ، هذا كله فى مقدمة كتابه ثم يتبع المقدمة بالمقصور والممدود من الالفاظ العربية مرتبـــة حسب الحروف الابجدية فكان يأتى بالكلمة ويشرح غريبها مستشهداً بالاشعار القديمة حينا وبالآيات القرآنية حينا آخر وقد يأتى باشتقاق اللفظ مما يدل على سعة علم ابن ولاد بالعلوم العربية الخالصة حفظه للأدب القديم واللغة العربية . وقد ختم كتابه ببحث طويل اشتمل على كثير

من قواعد الصرف ، والذى ألاحظه على هذا الكتاب سلاسة أسلوبه وخلوه من التعقيد الذى نراه فى كتب اللغة والصرف التى ألفت فى العصور المتأخرة .

ووضع احمد بن جعفر الدينورى بمصر كتابه «المهذب فى النحو» وصدره بالكلام عن الخلاف بين البصريين والكوفيين ، وعزى كل مسألة إلى صاحبها[1] . ولم يكن نحوياً فقط بل كان أديباً يدرّس هذا النوع من العلم ، فقرأ كتب ابن قتيبة كلها على المصريين . وقد استفاد الأندلسيون من هذا الرجل ، كما استفاد منه المصريون ، فقد روى السيوطى أن محمد بن موسى ابن هاشم المعروف بالأفشين القرطبى رحل إلى المشرق ، ولقى بمصر أبا جعفر الدينورى ، وأخذ عنه كتاب سيبويه رواية[2] ، وكان الدينورى قد أخذ كتاب سيبويه بالبصرة عن المازنى وتتلمذ للمبرد[3] وتوفى سنة تسع وثمانين ومائتين .

أما أبو جعفر النحاس احمد بن محمد بن اسماعيل فقد نبغ فى النحو واللغة ، وحذق القرآن وما يتعلق به ، وألف فى ذلك كتباً كثيرة ، نذكر منها كتاب « معانى القرآن ومنسوخه » كما ألف فى النحو واللغة والأدب نذكر من ذلك كتبه « المبتهج فى اختلاف البصريين والكوفيين » و « أدب الكتاب » و«شرح المعلقات السبع» وكتاب « طبقات الشعراء » ، ويروى ابن خلكان أن أبا جعفر

---

(١) معجم الأدباء ، جـ ١ ص ٢٨٢

(٢) بغية الوعاة للسيوطى ص ١٠٨   (٣) شرحه ص ١٣٠

النحاس فسر عشرة دواوين وأملاها على تلاميذه بمصر [١] . وكان في مصر محمد بن حسان النحوى الذى روى النحو عن أبى زرعة المؤذن وروى عن عبد الملك بن هشام مغازى ابن اسحق ومات سنة اثنتين وسبعين ومائتين [٢] .

وكذلك نسمع عن محمد بن اسحق بن أسباط الكندى أبى النضر المصرى النحوى ، أخذ عن الزجاج وله كتاب فى النحو سماه « العيون والنكت » وقال ياقوت : إنه نزل أنطاكية ثم صار إلى مصر وكان شيخ أهل الأدب بها ، وله تقدم فى المنطق وعلوم الأوائل وله « المغنى فى النحو [٣] . وكذلك محمد بن عبد الله بن محمد بن سلم وهو المعروف بالملطى وكان نحوياً يعلم أولاد الملوك النحو ومات سنة ثلاث وثلثمائة [٤] .

وبجانب هؤلاء الأدباء والعلماء المصريين الذين رحلوا فى طلب العلوم العربية ، نجد علماء العراق وغير العراق يزورن مصر ويروون بها علومهم ، وكان من أثر ذلك أن وجدت فى مصر نهضة أدبية علمية جعلت لها مركز الزعامة فى القرون التالية فقد جاء مصر أبو محمد عبد الملك بن هشام صاحب السيرة وتوفى بمصر سنة ٢١٨ ه ونراه فى السيرة قد تأثر بمصر فقد روى عن علمائها أمثال ابن وهب وابن لهيعة وكان ابن هشام إماماً فى اللغة والنحو ، وقد اجتمع به الشافعى حين ورد مصر وتناشدا كثيراً من أشعار العرب [٥] ووفد عليها

(١) ج ١ ، ص ٢٩ (٢) بغية الوعاة ص ٣٨٧
(٣) بغية الوعاة ص ٢١ (٤) شرحه ، ص ٦٠
(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٦

أبو العباس الناشيء الأكبر ، وكان نحوياً متملكامتبحراً فى عدة علوم من جملتها المنطق ، وكان بقوة علم الكلام قد نقض علل النحاة ، وأدخل على قواعد العروض شبها ، ومثلها بغير أمثلة الخليل ، [١] وتكسب بعلومه هذه فى مصر كما سنرى فى حديثنا عنه شاعرا

وجاء مصر محمد بن موسى الواسطى ، وكان من أهل العلم باللغة وتفسير القرآن ومات بمصر سنة ٣٢٠ هـ [٢] ويموت بن المزرع قدم مصر مراراً كان آخرها سنة ثلاث وثلثمائة [٣] ولعله فى إحدى زياراته أو فى هذه الزيارات كلها روى بمصر كتب خاله أبى عثمان الجاحظ .

وكذلك زار مصر محمد بن زيد بن يضحتوية بن الهيثم البردعى وروى عنه بمصر ابن يونس المؤرخ وأبو القاسم الطبرانى ، وأصله من أزربيجان نزل مصر فاستوطنها ، وكان كثير العلم متفننا فى الأدب واللغة والشعر وكان ثقة أمينا [٤] .

ويحدثنا ياقوت أن المصريين ماكانوا يعرفون شيئاً من شعر الطرماح بن حكيم ، فلما قدم ابن جرير الطبرى مصر سأله على بن سراج المصرى أن يملى شعر الطرماح ، فجلس ابن جرير عند بيت المال يمليه ويفسر غريبه [٥]

وفى سنة إحدى وعشرين وثلثمائة جاء مصر أحمد بن عبدالله

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٦٣ (٢) بغية الوعاة ص ١٠٩
(٣) الأنساب للسمعانى ، ص ٢١ (٤) بغية الوعاة ، ص ٤٣
(٥) معجم الأدباء جـ ٦ ص ٤٣٣

بن مسلمة بن قتيبة ، فدخل عليه أصحاب الحديث يسألونه أن يحدثهم فقال : مامعي إلا كتب أبي وأنا أحفظها فإن شئتم سردتها عليكم . فلما عرف الناس ذلك قصدوه . فصار مجلسه غاصاً بفنون الناس ممن يطلب العلوم والآداب ، وقصده أبو جعفر النحاس وابن ولاد وأبو مخاصم المظفر بن أحمد ووجوه البلد (١) .

كذلك وفد على مصر محمد بن أحمد بن على من ولد المهلب بن أبي صفرة المعروف بالمهلبي النحوى ، قال عنه الزبيدى : إنه كان عالما نحوياً لغوياً ثقة (٢) ومات بمصر سنة ٣٤٩ ﻫ .

المؤرخون

ظهر فى مصر عقب الفتح لون من الدراسات الإسلامية وإن شئت فهو من العلوم العربية ، وهو القصص ، فظهر القصص الدينى بمصر سنة تسع وثلاثين هجرية ، وكان أول من قص بمصر هو سليم بن عتر التجيبى الذى تولى القضاء بمصر مدة طويلة (٣) كان هذا القصص سبباً فى موضوع آخر هو التاريخ ، وقد عنى المسلمون منذ الفتح بأمر تاريخ مصر ، لأنها ذكرت كثيراً فى القرآن الكريم ، كما روى عن النبى أحاديث كثيرة عن مصر وأهلها ، والمسلمون يعلمون أن إحدى زوجات النبى كانت مصرية ، وأن بعض الأنبياء والرسل كان لهم شأن فى مصر ، عرف المسلمون هذا كله ، ورأوا بعد الفتح أشياء لم يروا مثلها كالهرم والمقابر الأخرى التى عرفت

---

(١) رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر (نسخة خطية رقم ١٠٥ بدار الكتب المصرية) (٢) بغية الوعاة ص ١٤

(٣) الولاة والقضاة للكندى ، ص ٣٠٧

بمصر باسم « البرابى » وكان عند العرب هذا القصص الذى يحدثهم عن القدماء فشغفوا بالتاريخ وروايته ، وزخرفوا أقوالهم بشىء كثير من القصص الخيالية التى تثير الضحك أحيانا ، ووضعوا من عندهم أخبارا بعيدة كل البعد عن الصحة ، وكانت هذه الأخبار كلها أساسا لكتب التاريخ ، التى ظهرت بمصر ، وغذى هذه الحركة بمصر وجود عدد من الأخباريين وأصحاب المغازى مثل محمد بن إسحق صاحب السيرة ، وعبد الملك ابن هشام راويها ومحمد بن أبى الليث الذى كان وراقا على باب الواقدى[١] ثم وفد عليها ابن جرير الطبرى مرتين ، والمسعودى ، وعن مؤرخى مصر نقل ابن جرير كثيرا فى كتابه وابن هشام فى السيرة . وغيرهما من المؤرخين . ووضعوا عن مصر كتبا عديدة .

ولعل أكثر الكتب القديمة تضليلا وتخبطا هو كتاب «فتوح مصر » الذى يسنده بعض المؤرخين إلى ابن اسحق الأموى ، ويسنده بعضهم الآخر إلى الواقدى ، وإن كنت أرجح أن للواقدى كتابا غير الكتاب الذى ينسب إلى ابن اسحق . ويتجلى ذلك فى الاختلاف الذى بين الكتابين .

كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم :

وهناك كتاب آخر لمؤلف مصرى له قيمته وأثره . إذ لا أكاد أعرف مؤرخا كتب عن مصر دون أن يذكر هذا الكتاب ، أو يأخذ عنه ، لهذا كان كتاب « فتوح مصر » مصدراً هاما من مصادر

---

(١) الكندى ص ٤٤٩

تاريخ مصر منذ الفتح ، كما أنه يمثل لنا ناحية أخرى من نواحى التأليف العلمى بمصر فى هذا العصر ، فقد رأينا الحركة العلمية والنشاط الفكرى كانا متجهين إلى العلوم الدينية فى أول الأمر ، ثم أضيف إليهما العلوم العربية الخالصة ، كما اتجه المصريون إلى القصص والعلوم التاريخية، ولقد لعبت يد الخيال فى هذه الأخبار التاريخية، فأخرجتها عن جادة الحق ، ولكنها تمثل لنا عقلية العرب الذين كانوا يأخذون كل ما يروى لهم دون أن يحاولوا تحقيقه .

هذا النوع من العلوم كان عربيا خالصا ، اهتم به الجاهليون والمسلمون ، وأخذه بعضهم عن بعض حتى دون فى القرن الثالث الهجرى ، ومن أوائل المدونين للتاريخ ابن عبد الحكم المصرى صاحب « فتوح مصر » وأحد أفراد بنى عبد الحكم .

بنو عبد الحكم

نحن مضطرون إلى الوقوف عند هذه الأسرة التى كان لها أثر كبير فى الحياة العقلية والاجتماعية والسياسية بمصر فى القرنين الثانى والثالث من الهجرة .

نحن لا نعرف شيئاً عن أولية أسرة بنى عبد الحكم ولكن ياقوت فى معجم البلدان يقول إنهم ينسبون إلى الحقل بلدة بالقرب من أيلة [العقبة] وأول شخص فى هذه الأسرة ذكره لنا المؤرخون هو أبو عثمان عبد الحكم بن اعين ابن الليث بن رافع المتوفى سنة احدى وسبعين ومائة وقيل إن له عدة مسائل عن الإمام مالك(١)

(١) الديباج ص ١٦٦

أما نشأته وحياته فلم يصلنا عنها شيء ، كذلك لانعرف إذا كان مصريا أو غير مصرى وصاحب الديباج يقول عن عبد الله بن عبد الحكم انه مولى امرأة من موالى عثمان بن عفان ويقال بل هو مولى نافع مولى عثمان ولا ندرى أيضا أى لون من ألوان الولاء كان ولاؤه .

وأول شخصية لها قيمتها فى هذه الأسرة هو عبد الله بن عبد الحكم ابن أعين ولد بالاسكندرية وقيل بمصر سنة خمس وخمسين ومائة وأخذ الفقه عن مالك وعن إمام مصر الليث بن سعد وسمع الحديث من عبد الله بن لهيعة ، ولما مات أشهب بن عبد العزيز رئيس المالكية بمصر سنة أربع ومائتين ، تولى عبد الله رياسة مذهب مالك ونستطيع بسهولة أن ندرك خطر هذا المركز إذا علمنا أن المسلمين فى مصر كانوا جميعا يدينون بهذا المذهب .

وكان العلماء فى مصر لايدرسون غير هذا المذهب ، واجتمع حوله المصريون والوافدون من الأندلس والمغرب يأخذون عنه مذهب مالك وتجمع المصادر التى تحدثت عنه أنه كان صالحا متحققا بمذهب مالك وأجمعت أيضا على علو شأنه فى الفقه ، ووضع عدة كتب منها المختصر الكبير جمع فيه ثمان عشرة ألف مسألة والمختصر الأوسط وفيه أربعة آلاف مسألة والمختصر الصغير وفيه ألف ومائتا مسألة وقصر هذا الكتاب الأخير على ما فى الموطأ ، وله أيضا كتاب الأهوال وكتاب القضاء فى البنيان وكتاب المناسك وكتاب فى سيرة عمر بن عبد العزيز .

هذا من الناحية العلمية ، ومن ناحية أخرى نرى المؤرخين يجمعون على أن عبد الله كان ثريا جدا وله جاه عظيم بين المصريين ونحن لا نعرف كيف أتته هذه الثروة .

وبلغ من ثراه أن الشافعى لما وفد على مصر سنة تسع وتسعين ومائة تلقاه عبد الله بن عبد الحكم وانزله فى داره وبالغ فى بره وأعطاه من ماله الخاص ألف دينار واستطاع بنفوذه أن يجمع له من بعض المصريين ألف دينار أخرى وأخذ له من بن عسامة التاجر المصرى ألفا ثالثة ليتمكن الشافعى من أن يعيش بمصر عيشة راضية فقد جهل المصريون قدر الشافعى فى أول الأمر وكان يود الرحيل من مصر لولا وجود بنى عبد الحكم .

ويروى المؤرخون أن عبدالله كان له تأثير كبير فى تولية الشهود فكان يزكيهم ويجرحهم وكان بعض الولاة يستشيرون عبدالله فى تصريف أمور الدولة ويحدثنا الكندى أن الوالى عبدالله بن طاهر كان يقرب عبدالله بن عبدالحكم ويستشيره فى بعض أموره كما كان ابن عبدالحكم واسطة الصلح بين عبيد بن السرى الثائر وبين ابن طاهر كما كان ابن عبدالحكم أحد الفقهاء الذين جمعهم الوالى ابن طاهر لاختيار قاضى لمصر فرشح كل واحد من الفقهاء قاضياً ولكن الوالى عين من رشحه ابن عبدالحكم بل ذهب ابن عبدالحكم إلى أبعد من ذلك فقد طلب من الوالى أن يزيد مرتب القاضى ففعل الوالى وحفظ القاضى وهو عيسى بن المنكدر يد ابن الحكم فجعله على مسائله وهنا ظهر ما يدلنا على خلق ابن الحكم فقد جرت العادة أن يكون الشهود من طبقة

خاصة ممن لهم جاه فلما تولى ابن الحكم على مسائل القاضى أدخل بين الشهود بعض الناس ممن لا جاه لهم ولا قدر فلما عوتب على ذلك قال : «إن هذا الأمر دين وإنما فعلت ما يجب على» فهذا الخبر يدلنا على أن ابن الحكم كان قوياً فى خلقه وإنه لم يحاب وجوه المصريين لجاههم ، وقيل إن الرعينى الفقيه لما سمع كلام ابن الحكم قال له «أسأل الله أن لا يرفعك بالشهادة أنت ولا واحداً من ولدك» فكان الأمر على ذلك فقد بلغ ابن عبدالحكم هو وولده بالبلد مالم يبلغه أحد ماقبلت لأحد منهم شهادة قط [هكذا روى الكندى عن ابن قديد] وهذه هى الدعوة التى قال عنها ابن خلكان أن بن عبدالحكم لم يشهد ولا أحد من ولده لدعوة سبقت فيه .

واستمر عبدالله بن عبدالحكم رئيسا لمذهب المالكية وعلى مسائل القاضى حتى جاء الخبر بولاية المعتصم على مصر سنة أربع عشرة ومائتين ٢١٤ وذهبت جماعة الصوفية إلى القاضى يطلبون منه أن يكتب إلى المأمون بأن المصريين لا يقبلون ولاية المعتصم عليهم ، ولكن ابن عبدالحكم أشار على القاضى بأن لا يستمع لأقوال الصوفية وأن لا يكتب إلى الخليفة فأبى القاضى وكتب إلى المأمون فدفع المأمون كتابه إلى المعتصم فلما جاء المعتصم مصر عزل القاضى وحبسه كما حبس عبدالله ابن عبد الحكم فأقام ابن عبد الحكم فى السجن أياماً ثم مرض ومات فى رمضان سنة أربع عشرة ومائتين ودفن بجوار الشافعى فى منزل بنى عبدالحكم .

ترك عبدالله بن عبد الحكم أربعة أولاد عبد الحكم بن عبدالله وعبد الرحمن بن عبد الله وسعد بن عبد الله ومحمد بن عبد الله

أما عبد الحكم وهو أكبر أولاده فكان فقيهاً أيضاً على مذهب مالك كأبيه وأخذ الفقه عن أصحاب مالك من المصريين أمثال أبيه وعبد الله ابن وهب ، وقيل إنه لم يكن فى أصحاب ابن وهب أتق ولا أفقه منه بل ذهب صاحب الديباج إلى أن عبد الحكم أفقه إخوته كما عرف أيضاً بجودة خطه ولم يصلنا عن هذا الفقيه شيء إلا ماقيل عن محنته التى توفى بسببها بل محنة بنى عبد الحكم التى لم يقم لهم قائمة بعدها .

بدأت محنة بنى عبد الحكم بمسألة خلق القرآن فقد طلب إليهم القاضى محمد بن أبى الليث أن يعترفوا بخلق القرآن فامتنعوا فعذبهم القاضى وحمل عبد الحكم إلى العراق للاقرار هناك فامتنع أيضاً فضرب بالسياط وقيل إنه سجن ودخن عليه بالكبريت حتى مات فى سجنه بسبب خلق القرآن ولكن موت عبد الحكم لم يكن لهذا السبب بل كانت بسبب أموال الجروى الثائر بمصر والذى انتهت ثورته حوالى سنة ٢١٢ هـ وفى سنة ٢١٥ هـ أتى الأفشين مصر وطالب على بن عبد العزيز الجروى بالأموال التى عنده فلم يدفع إليه شيئاً فقتله الافشين واستمر الولاة يبحثون عن أموال الجروى حتى سنة ٢٣٧ فقدم مصر يزيد التركى أحد قواد المتوكل العباسى فى طلب هذه الأموال بعد أن علم الخليفة فى بغداد أن بعضها عند بنى عبد الحكم وحكم القاضى ابن أبى الليث على بنى عبد الحكم بألف الف دينار وأربعمائة الف وأربعة الاف دينار كما حكم على غيرهم أيضاً ونادى منادى الوالى بأن من كتم الأموال ضرب خمسمائة سوط وهدمت داره ، فأقر عبد الحكم بمال عنده فبعث به إلى منزله فلم يخرج شيئا

ورد إلى يزيد التركى فعذبه حتى توفى لأربع بقين من جمادى الأولى سنة ٢٣٧ هـ .

أما سعد بن عبد الله بن عبد الحكم فلم يصل الينا شيء عنه إلا ماروواه صاحب نفح الطيب أنه كان أستاذا لعدد من فقهاء الأندلس الذين رحلوا فى طلب العلم إلى مصر وذكر منهم أبا عبدالله محمد ابن عبد الله الباجى الإشبيلى ومحمد بن عيسى ومحمد بن عمر بن لبابة وغيرهم كما كان أحد الذين روى عنهم أخوه عبد الرحمن بن عبدالله فى كتابه فتوح مصر

نتحدث بعد ذلك عن أشهر أولاد عبدالله بن عبد الحكم وهو محمد بن عبد الله عبد الحكم ولد محمد سنة اثنين وثمانين ومائة وأخذ فقه مالك عن أبيه وأشهب وروى عن عبد الله بن وهب ولما وفد الشافعى على مصر ونزل ضيفاً على بنى عبد الحكم آخى محمداً هذا وكثيرا ما سمع الشافعى يقول «مايقيمنى بمصر غيره» ، وعد محمد بن عبد الله من أشد تلاميذ الشافعى صلة به وروى المزنى : كنا نأتى الشافعى نسمع منه فنجلس على باب داره ويأتى محمد بن عبد الحكم فيصعد ويطيل المكث وربما تغدى مع الشافعى ثم ينزل الشافعى فيقرأ علينا فاذا فرغ من قراءته قرب إلى محمد دابته فركبها واتبعه الشافعى بصره فاذا غاب شخصه قال الشافعى لمن معه وودت أن لى ولداً مثله وعلى ألف دينار لاأجد لها قضاء . وروى محمد بن عبد الحكم أنه كان يتردد إلى الشافعى فاجتمع قوم من أصحاب مذهب مالك إلى عبد الله بن عبد الحكم وقالوا يا أبا محمد إن محمدا ينقطع إلى هذا الرجل ويتردد اليه فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه ؛

فجعل عبد الله يلاطفهم ويقول هو صغير ويحب النظر فى اختلاف أقاويل الناس ومعرفة ذلك ويقول لابنه محمد فى السر يابنى الزم هذا الرجل . وكان الشافعى معجباً بمحمد لفرط ذكائه وحرصه على الدرس والتحصيل حتى ظن الناس من صدق مودتهما أن الشافعى يفوض أمر حلقته بعد وفاته إلى محمد بن عبد الحكم وكان محمد نفسه يتطلع لرياسة مذهب الشافعية بعد الإمام الشافعى ولكن الشافعى فى مرض موته رشح البويطى لرياسة مذهبه فغضب محمد بن عبد الحكم وترك الشافعية وتحول إلى مذهب المالكية وجعل لنفسه حلقة يدرس فيها مذهب مالك وبعد موت أبيه اختاره المصريون لرياسة مذهب مالك وذاعت شهرته فى الأقطار الإسلامية حتى صارت اليه الرحلة لأخذ مذهب مالك وروى السبكى عن الصدفى أنه قال : رأيت أهل مصر لا يعدلون به أحدا ويصفونه بالعلم والفضل والتواضع ، وروى عن ابن خزيمة أن محمد بن عبد الحكم أعلم من رأيت على أديم الأرض بمذهب مالك ، وذكر صاحب نفح الطيب عدداً كبيرا من علماء الأندلس الذين أخذوا عن محمد بن عبد الحكم .

ولما أصيبت مصر بمحنة خلق القرآن سنة سبع وعشرين ومائتين منع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد واضطهد الفقهاء والعلماء وهرب أكثرهم من القاضى ابن أبى الليث أما محمد بن عبد الله فقد أهين وعذب وأطافه القاضى ينادى بخلق القرآن حتى مر بحلقة ابن صبيح المعتزلى بمصر فقال له ابن صبيح : الحمد لله الذى هداك يا أبا عبد الله ، يشير إلى أن محمد بن عبد الحكم

أقر بخلق القرآن وفى ذلك يقول الشاعر الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر يمدح القاضى بن أبى الليث :

ومحمد الحكمى أنت أطفته   وأخوه ينعق بالصياح الأجهر

كل ينادى بالقران وخلقه   فشهرتهم بمقالة لم تشهر

ويقول أبو المحاسن إنه حمل إلى بغداد وأنه ثبت على السنة، فأعيد إلى مصر [١] . ظل محمد بن عبد الحكم رئيسا لمذهب المالكية بمصر ولكن بعض القضاة كانوا يضطهدونه ولا أدرى سبب ذلك فمثلا الحارث بن مسكين الذى ولى قضاء مصر سنة ٢٣٧ هـ كان يجرح محمد بن عبد الحكم دائماً ولم يقبل شهادته حتى قال لرجل طلب أن يستشهد بمحمد بن عبد الحكم : قل له إن كان رجلا فليأت فليشهد .

وفى أيام أحمد بن طولون كان محمد بن عبد الحكم من جلسائه وممن أجرى عليه ابن طولون الأرزاق . ويروى المقريزى قصة ملخصها أن ابن طولون لما حفر بئره بخطة معافر (عند القرافة) بلغه أن جماعة من الفقهاء لا يستحلون شرب مائها فبينما محمد ابن عبد الحكم فى داره ليلا إذ أتاه أحد خدام ابن طولون وقال له إن الأمير يدعوك فركب ابن عبد الحكم مرعوبا مذعورا وعدل الغلام به عن الطريق فسأله ابن عبد الحكم فقال إلى الصحراء والأمير فيها فأيقن ابن عبد الحكم بالهلاك فقال للخادم الله الله فى فإنى شيخ كبير ضعيف مسن فتدرى ما يراد منى فارحمنى فقال له الغلام : احذر أن يكون لك فى السقايه قول . قال ابن عبد الحكم فسرت معه وإذا

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٤

بالمشاعل فى الصحراء وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية فنزلت وسلمت عليه فلم يرد على فقلت أيها الأمير إن الرسول أعنتنى وكدنى وقد عطشت فيأذن لى الأمير فى الشرب فأراد الغلمان أن يسقونى فقلت أنا آخذ لنفسى فاستقيت وهو يرانى وشربت وازددت فى الشرب حتى كدت أنشق ثم قلت: أيها الأمير أسقاك الله من أنهار الجنة فلقد أرويت وأغنيت ولا أدرى ما أصف أطيب الماء فى حلاوته وبرده وصفائه أم طيب ريح السقاية فنظر ابن طولون اليه وقال أريدك لأمر وليس هذا وقته فاصرفوه .

ويروى السيوطى أن كنيز خادم الخليفة المنتصر خرج إلى مصر وتفقه على مذهب الشافعى وكان يأتى حلقة محمد بن عبد الحكم ويناظره فسعى به إلى احمد بن طولون بأنه جاسوس فحبسه ابن طولون سبع سنين . وظل ابن عبد الحكم فى رياسة مذهب مالك حتى توفى سنة ٢٦٨ هـ

أما عبد الرحمن بن عبدالله صاحب كتاب « فتوح مصر » فكان من أهل الحديث والرواية وشغف بالقصص والأخبار وكلف بالتاريخ وكان من أثر ذلك أنه وضع كتابه « فتوح مصر » . وقد أصاب عبد الرحمن ما أصاب إخوته فى محنة خلق القرآن وأموال الجروى وتوفى عبد الرحمن سنة ٢٥٧ هـ

يعد عبد الرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم من أقدم مؤرخى الاسلام فى مصر الذين وصلت إلينا كتبهم كان كلفاً برواية الأخبار من ثقات المصريين أمثال والده عبد الله ، ويحيى بن بكير ، وعثمان

ابن صالح كاتب الليث بن سعد ، وغيرهم ، وعنه أخذ القاسم بن حبيش وأبو سلمة التجيبي ، وابن قديد وغيرهم ، وإذا عرفنا أن ابن قديد أحد رواة ابن عبد الحكم كان من أهم المصادر الذين استقى عنهم الكندى كتابيه « الولاة » و« القضاة » أدركنا بسهولة السبب الذى من أجله نرى فى كتاب الكندى بعض أخبار مذكورة فى « فتوح مصر » مع أننا نعلم أن الكندى كان يحاول أخذ الأخبار من نفس المصادر التى استقى منها عبدالرحمن بن عبد الله بن عبدالحكم ، ومع ذلك فالكندى اتخذ كتاب فتوح مصر أساساً لكتابيه ، ولاسيما فى الفصل الذى عقده ابن عبد الحكم عن القضاة فى مصر .

كان عبد الرحمن معاصراً لمؤرخين من أشهر وأقدم مؤرخى الاسلام ، ولكننا نرى ابن عبدالحكم يمتاز عن معاصريه بأنه أوجد فناً جديداً فى التاريخ الاسلامى هو فن « الخطط والأخائذ » ، وهذا النوع من التاريخ لم يكتب فيه أحد قبل المصريين ، ولا نعرف أحداً كتب فيه قبل ابن عبدالحكم ، ولم يوفق المقريزى فى قوله « إن أول من رتب خطط مصر وآثارها ، وذكر أسبابها فى ديوان جمعه هو أبو عمر محمد بن يوسف الكندى ، ثم كتب بعده القاضى أبو عبدالله محمد بن سلامة القضاعى كتابه المنعوت « بالمختار فى ذكر الخطط والآثار ومات فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة قبل سنى الشدة فدثر أكثر ما ذكر »[1] لم يوفق المقريزى فى هذا القول لأن ابن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر سبق الكندى فى الحديث عن الخطط

(١) الخطط ، ج١ ، ص ٦

ولعل أول مايلفت النظر إلى كتاب ابن عبدالحكم أنه مقسم حسب الموضوعات ، فقدجعله المؤلف سبعةأبواب ، وأدرج تحت كل باب ماقيل فى الموضوع الذى خص له ، فاختلف بذلك عن الطبرى والمبرد والجاحظ وغيرهم من الأدباء والمؤرخين . فهؤلاء لم يحاولوا أن يقسموا كتبهم إلى فصول أو أبواب بل خلطوا كتبهم ، وجمعوا فيها كل شاردة وواردة ، زعماً منهم أن الأديب عليه أن يأخذ من كل شيء بطرف ، فأودعوا كتبهم كل شيء دون أن يحاولوا ترتيب هذه الموضوعات ، وقد غلب هذا النوع من التأليف على علماء العراق ، حتى كان ابن قتيبة فابتدأ بترتيب كتبه ، أما فى مصر فكان المؤلفون يقسمون كتبهم ، ويرتبون موضوعاتها ، حتى أن الفاراني عند ما دخل مصر ومعه كتابه « المدينة الفاضلة » سأله بعض الناس أن يجعل له فصولا تدل على قسمة معانيه ، فعمل هذه الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة [1] . ليس لنا أن نتحدث عما فى كتاب « فتوح مصر » من أخطاء تاريخية كان مصدرها جهل العرب والمصريين بتاريخ مصر القديم ، ورغبه بعض الرواة فى وضع أخبار عن مصر من المحقق أنها بعيدة عن الصواب ، وقد يطول بنا الأمر لو ناقشنا هذا كله ، ويكفى أن أقول إن اكثر هذه الخرافات فى القسم الأول من الكتاب ، وهو القسم الذى ذكر فيه فضائل مصر وتاريخها من أول أمرها إلى أن فتحها العرب وأقول خرافات لأن علم الدراسات المصرية القديمة أثبت مايخالف ماجاء فى هذا الكتاب، ثم لهذه

---

* عيون الأنباء لابن أبى أسيبعة ، ج ٢ ، ص ١٢٨ — ص ١٣٩

المبالغات التي لا يكاد يتصورها عقل . كوجود أشعار عربية قالها قدماء المصريين وحفروها على آثارهم !!!

أما القسم الثاني من الكتاب . فهو يتحدث عن فتح العرب لمصر فذكر المؤلف شيئا عن علاقة مصر ببعض أفراد من العرب قبل الاسلام وعن كتاب النبي إلى المقوقس ، وجواب هذا إلى النبي عليه السلام ، ثم ذكر الفتح العربي ، وتحدث عن مسألة اختلف فيها المسلمون منذ القرن الأول الهجري ، وهي هل فتحت مصر عنوة أم صلحا ، فبسط روايات الطرفين ، دون أن يذكر رأيه ،فقد كان راويا كغيره من المحدثين والمؤرخين ، وفي الباب الثالث يذكر الخطط والأخائذ والقطائع وهو الفن الذي لم يسبقه غيره إليه ، وفي الرابع يتحدث عن الادارة في عهد عمرو وابن أبي سرح وعن الفيوم وبرقة وطرابلس ، وفي الخامس يذكر غزو شمال أفريقيا والأندلس ، وفي السادس يسرد أسماء قضاة مصر حتى سنة ٢٤٦ هـ أي قبل وفاة المؤلف بعشر سنين ، وفي السابع يروي الأحاديث التي حفظها الصحابة الذين جاءوا مصر ، وقد بلغ عددهم اثنين وخمسين فيروى لكل منهم أحاديثه التي سمعها من النبي وكان ابن عبد الحكم يعتمد على طريقة الرواية فإن تعاليمه كانت دينية كباقي أسرته ، ولكنه اتجه إلى التاريخ والحديث مخالفا في ذلك باقي أسرته الذين مالوا إلى الفقه .

ومما يحسن الإشارة إليه أن قبر بني عبد الحكم ، الذي دفنت فيه هذه الأسرة العلمية بجوار قبر الإمام الشافعي ، فقبة ضريح الشافعي

تجمع قبر الشافعى وقبر بنى عبد الحكم ، وهكذا كان الشافعى صديقا لهم فى حياته ، فأصبح جارهم فى مماته .

ابن الداية وكتاب المكافأة

كنت أود أن أعرض لغير ابن عبـــد الحكم من المؤرخين المصريين أمثال عمار بن وسيمة المصرى المتوفى سنة تسع وثمانين ومائتين صاحب التاريخ على السنين ، وأحد تلاميذ مدرسة الليث ابن سعد[١] وابن يونس صاحب تاريخ مصر[٢] والكندى المؤرخ المعروف وغيرهم كالذين ذكرهم المسعودى فى مقدمة كتابه « مروج الذهب » والذين روى عنهم ابن جرير الطبرى فى تاريخه وتفسيره ، ولكنى أترك ذلك كله لمن يتوسع فى دراسة الحياة العقلية فى هذا العصر .

ولكن أرى أن أتحدث عن مؤرخ مصرى آخر ، عاش فى هذا العصر واتصل ببعض الأمراء المصرين ، وبمختلف طبقات الشعب ، ووضع كتابا عن هؤلاء الأمراء ، ثم تحدث فى كتب أخرى عن هذا الشعب وحاله ، ذلك هو الكاتب المعروف بابن الداية . وإذا تحدثنا عن ابن الداية فستحدث عن كتابه « المكافأة » لأنه مصدر من مصادر التاريخ والأدب ، ونستطيع منه أن نعرف حالة سكان مصر فى هذا العصر واتجاه عقولهم .

جمع الكتاب عدة قصص خلقية ، ولكنها لم تكن خيالية ، بل

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣١٩ ، ومروج الذهب ، ج ١ ، ص ٤

(٢) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣١٩ ، وغيرها وتاريخ الطبرى فى مواضع متعددة

هى حوادث واقعية حدثت للمؤلف ، أو لوالده ، أو لغيرهما من المعاصرين ، ويتحدث فى كل واقعة من هذه على مكافأة قدمت نظير عمل أو معروف ، فالكتاب من هذه الناحية يستحق التقدير والبحث

ومؤلف الكتاب هو أحمد بن أبى يعقوب يوسف بن ابراهيم المعروف « بابن الداية » فإن والده يوسف بن ابراهيم كان ولد لظئر ابراهيم بن المهدى ، وأخا للخليفة العباسى المعتصم [١] بالرضاعة فهو لم يكن مصرى الأصل ولا أدرى تماماً إذا كان عربى الأصل أم أعجميا .

نشأ يوسف بن إبراهيم فى دار الخلافة ببغداد ، وصار مع إبراهيم ابن المهدى طول حياته وتولى كتابة إقطاعاته ، توفى إبراهيم فى أواخر سنة ٢٢٤ ﻫ فى خلافة المعتصم ، وأخذ قواد الخليفة من الأتراك يضيقون الخناق على العرب ومواليهم ، لم يستطع يوسف البقاء فى سر من رأى ، فتركها إلى دمشق سنة خمس وعشرين ومائتين ، وهناك نزل على عيسى بن حكم الطبيب النسطورى [٢] . ولكنه لم يشأ أن يبقى فى الشام طويلا ، بل وفد على مصر ، ولما علم المصريون بوجوده أقبلوا عليه ، لأنهم سمعوا عن علمه وأدبه ، وصادقوه فعاش بينهم ولقب بيوسف بن ابراهيم المصرى وكان بينه وبين أحمد بن المدبر فى العراق عهد صداقة ومودة ولكن لما تولى بن المدبر أمر خرج مصر ، ورآى حسن ظاهر يوسف ظن ان ذلك عن أموال جمة لديه ، فطالبه ببعض بقايا عقود انكسرت

---

(١) المكافأة ، ص ١١٠

(١) عيون الانباء ، ج ١ ، ص ١٢١

عليه ، فحبسه طويلا حتى انقذه ابو الفوارس مزاحم بن خاقان وكانت ام زوج يوسف قد تولت تربية مزاحم [١] .

كان يوسف فيما يروى عنه يحب العلم والعلماء ، ويحرص على اقتناء المؤلفات المختلفة ، كما انه وضع عدة كتب منها : كتاب اخبار إبراهيم بن المهدى و « كتاب الطبيخ » [٢] . ويحدثنا ابنه احمد ان الأمير أحمد بن طولون حبس يوسف بن إبراهيم ، ولا ندرى سبباً لذلك ، ثم يقول إن بعض وجوه المصريين كلموا الأمير فى أمر يوسف فأفرج عنه [٣] . ولعل هذه القصة تدلنا على ما كان ليوسف من المكانة فى نفوس المصريين ، كذلك كان يوسف على سعة من الرزق فقد كان يجرى بعض المال على بعض الأشراف المقيمين فى مصر [٤] .

أما مؤلف الكتاب أحمد بن يوسف ، فقد عرف عنه شغفه بالعلم ، وكلفه بالأدب ، ويروى ياقوت عن ابن زولاق « كان أبو جعفر رحمه الله فى غاية الافتنان ، أحد وجوه الكتاب الفصحاء ، والحساب ، والمنجمين ، مجسطى ، اقليدسى ، حسن المجالسة ، حسن الشعر [٥] » لذلك كان أحد خواص بنى طولون ، حتى عرف بكاتبهم وقد ألف هذا الرجل جملة كتب فى التاريخ والأدب نذكر منها كتاب « سيرة أحمد بن طولون » وسيرة ابنه « أبى الجيش » ، ويقول ابن زولاق « وكان أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب قد

(١) المكافأة ، ص ١٠٧ — (٢) المكافأة ، ص ١١٥
(٣) شرحه ، ص ٢٥ — (٤) شرحه ، ص ٤٨
(٥) معجم الادباء ج ٢ ، ص ١٥٧

عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر ، وسيرة ابنه أبي الجيش ، وأنشدا فى الناس ، وقرأتهما عليه ، وحدثت بهما عنه ، مع غيرهما من مصنفاته ، ثم عملت أنا مافاته من سيرتهما » [1] وله كتاب أخبار غلمان بنى طولون وكتاب « حسن العقبى » وكتاب « أخبار الأطباء و « كتاب المكافأة » ، ولعلك تدرك من أسماء هذه الكتب أن جلها كتب تاريخ وأخبار ، ولم تكن ككتاب ابن عبد الحكم ، بل هى مجموعة أخبار وقصص تمثل الحياة التى يتحدث عنها أصدق تمثيل .

لم يكن ابن الداية كاتباً فحسب ، بل كان شاعراً أيضاً ، وروى عن نفسه فقال « كان أبو الفياض سوار بن شراعة الشاعر صديقاً لى ، ومائلا إلى ، فلما اعتزم على الرجوع إلى العراق سألنى أن أكتب له شيئا من شعرى ، فكتبت له مقدار خمسين ورقة . وكان يستحسنه ويعجب به ، فصار إلى بغداد ، وعرضه على جماعة الأحرار ، وأحسن وصفى لهم بسلامة مذهبه وطهارة نيته . ودخل محمد بن سليمان مصر وقد رد البريد بها إلى أبى عبيد الله أحمد ابن صالح ، فسأل عند دخوله إياها عن احمد بن يوسف ، فأحضر أحمد بن يوسف — وكان كاتباً لاحمد بن وصيف ثم لابن الجصاص التاجرين — فقال له : تعرف أبا الفياض ؟ قال : لا . فقال لهم : ليس هذا الرجل الذى طلبت ، فأحضرت ، فلما رآنى استشرف إلى وقال : تعرف أبا الفياض ! فقلت ذكرك الله وإياه بكل صالحة نعم أعرفه ، وكان خلا لى . فقال : هل أنشدك من شعره .

---

(١) المغرب ، ص ٤

ظللنا بها نستنزل الدن صفوه　　فينزل أقباسا بغير لهيب

قلت : لا ياسيدى ، ولكنى أنشدته إياه من شعرى ، فضحك وقال : « والله لقد اشتقت إلى الدخول إلى مصر من أجلك » ثم يقول ابن الداية « وكان والله أفضل عون لى على أمورى » [1] .

كذلك كان شعر ابن الداية سببا فى قيام بعض القيسية على خدمته وخفره دون مقابل [2] .

نستطيع — كما قدمت — أن نقول إن كتاب المكافأة هذا كتاب أدبى لما فيه من طرائف ومكاتبات وأشعار ، ونستطيع أن نتخذه كتاب قصص لما فيه من حوادث واقعيـــة ، وأن نتخذه كتابا فى الأخلاق لما فيه من موعظة حسنة ، ومكافأة قدمت نظير عمل الخير . ونرى مؤلفه يقسمه إلى أبواب وفصول . فجعل قسما للمكافأة على الحسن أو مكافآة على معروف صنعه ، وختم هذا القسم بنبذ عن أفلاطون ، أما القسم الثانى فهو الجزاء على ما يبدر من الإساءة ، ثم أردف ذلك بفصل عمن ابتلى فصبر ، فكان ثمرة صبره حسن العقبى . وختم هذا الفصل بطائفة من كلمات مأثورة لبعض الحكماء من الفرس واليونان ، مما يدل على أن ابن الداية كان يلم ببعض الآداب الفارسية واليونانية ، ويحفظ كثيرا من كلمات الفرس واليونان ويستعمل ألفاظا غير عربية فى كتاباته كقوله « ان ديوانيان خالد » بمعنى كتاب الديوان ، ولفظ « تليس » بمعنى الحقيبة ، وهو فى هذا يشارك غيره من الكتاب والأدباء فقد نقلت الكتب اليونانيـــة

---

(١) المكافأة ص ٤٤ — ٤٥　　(٢) المكافأة ص ٢٠

والفارسية إلى العربية ، واستطاع المسلمون أن يعرفوا شيئا من الآداب والعلوم الأجنبية ، ويمزجوا بين هذه الآداب والعلوم الدخيلة والآداب والعلوم العربية ، فكان كتاب المسلمين يزينون كتاباتهم باقتباس حكم الفرس واليونان ، وهذا ما نراه واضحاً فى الكتب العربية أمثال كتب الجاحظ وابن قتيبة وابن الداية وغيرهم .

نرى ابن الداية يبدأ كتابه بالدعاء فيقول « سدد الله فكرك ، وأحسن أمرك ، وكفاك مهمك » وإذا رجعنا قليلا إلى كتب الجاحظ فى « البيان والتبيين » و « الحيوان » وغيرهما وجدناه يتبع هذه الطريقة فى ابتداء الكتب ، وهى أيضاً الطريقة الشائعة عند كتاب العراق فى ذلك العصر ، ولعلها نقلت إلى مصر فعرفها المصريون كغيرها من الفنون التى أخذها المصريون عن العراقيين ، ولكن كان ابن الداية يختلف عن معاصريه من الكتاب . فإنه لم يتعمد السجع ، ومع ذلك فقد كان يتفنن فى الكتابة ، حتى جاءت بعض جمله مثالا للاسلوب العربى كقوله « إنى سر من أسرار والدى كتمته عن سائر الناس ، أفضى به إليك ، ورآك أهلا لستره عليه فلا تخفر ظنه فيك [1] » . وبجانب هذه الجمل المتينة التركيب نجد جملا ضعيفة غامضة لاتستقيم كتابتها مع قواعد النحو مثل قوله « وكانت أشفق النساء وأضبطهم وأحسنهم تدبيرا فيما تتولاه » [2] بدلا من « واضبطهن وأحسنهن » ، وقوله « جزاء ماقدمتيه ماتسمعيه

---

(١) المكافأة ص ٥١ (٢) شرحه ، ص ٥٢

منى » (١) بدلا من « جزاء ماقدمته ماتسمعينه منى » على أننا لا نقطع بأن هذا الخطأ وقع من الكاتب نفسه « وقد يكون من خطأ النساخ

ومع هذا فالكتاب هو البقية الباقية من الكتب الأدبية التى ألفت فى هذا العصر إذا لم نعثر على كتاب كامل غير هذا الكتاب .

* * *

نستطيع أن نقول إن الحياة العلمية بمصر نقلت إليها من العراق وعاشت مصر على ماأنتجه العراقيون أو ما أخرجه المصريون تلاميذ العراقيين ، كما كان للكتب التى تنقل من العراق إلى مصر قيمة خاصة يحدثنا ابن الداية أنه عقب وفاة والده يوسف بن إبراهيم أرسل أحمد بن طولون من يهاجم داره ، ويحضر كل صناديقه عساه يجد شيئاً من كتب العراق (٢) .

ومع أن مصر كانت موطن العلم والعلماء قبل الإسلام ، وفيها اجتمعت ثقافات البلاد المختلفة ، فإنا نجد مصر فى هذا العصر الذى نؤرخه لا تعنى بشىء سوى هذه العلوم الدينية الإسلامية . ثم هذه العلوم العربية الخالصة ، من نحو وصرف ورواية الأشعار ، ولم تساهم مصر فى العلوم الدخيلة بالقدر الذى ساهم به العراقيون مثلا ، ولم تنشط فى مصر حركة الترجمة كما نشطت فى الأقطار الأخرى ، وربما كان للمصريين نصيب فى حركة الترجمة وعلى الأخص كتب الطب والكيمياء وقد ذكرنا شيئا من ذلك فيما قبل ، كما ترجم فى

(١) المكافأة ، ص ٥٢

(٢) المكافأة لابن الداية ، ص ٤٨

مصر التوراة إلى اللغة العربية ، فقد روى المرحوم جورجى زيدان أن نزاعا نشب فى مصر بين طائفتين من طوائف الدين الإسرائيلى هما طائفة الربانية وطائفة القرائين ، فأفادت هذه المجادلات اللغة العربية ، إذ نرى رجلا من كبار رجال الدين والعلم اليهودى هو سعيد الفيومى الإسرائيلى ينقل من العبرية إلى العربية كتب موسى الخمس وسفرى أشعيا وأيوب (١) . أما الكتب الفلسفية والمنطقية وغيرها وعلوم الفرس والهند فلم ينشط لها المصريون فى هذا العصر بالقدر الذى وجد فى العراق ، ولكنها وصلت اليهم بعد أن نقلت إلى العربية فى الأقطار الشرقية ، فتقبلها المصريون بعد ذلك وساعدتهم فى العصور التى تلى عصرنا هذا على أن ينبغ بينهم عدد كبير من الكتاب والمفكرين .

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ٢ ، ص ٧٥

الباب الثالث

كتاب الرسائل والانشاء

الفصل الأول

قبل الطولونيين

ظلت مصر – من الفتح الإسلامى إلى أن وليها أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ — تحت إمرة وال يعينه الخليفة ، ويساعد هذا الوالى فى تنظيم شئون البلاد عدد غير قليل من الموظفين ، وطبيعى أن تكون هناك مكاتبات بين الوالى فى مصر والخليفة فى عاصمة الخلافة ، ولا بد أن تكون هناك مراسلات بين الوالى والموظفين الآخرين فى مصر ، وهذه المكاتبات لم يصلنا شىء منها ، وإن كنا نقول إنها كانت أشبه شىء بأوامر ولوائح يصدرها الخليفة أو الوالى ، وكان يكتب هذه الرسائل فى مصر كتاب الولاة . يقول المقريزى « لما كانت مصر إمارة ، كان بها ديوان البريد ؛ ويقال لمتوليه صاحب البريد ، وإليـــه مرجع ما يرد من دار الخلافة على أيدى أصحاب البريد من الكتب ، وهو الذى يطالع بأخبار مصر ، كما كان لبعض أمراء كتاب ينشون عنهم الكتب والرسائل[1] ولم ينشأ فى مصر بعد ديوان الإنشاء ، ولم يكن ديوان الإنشاء بالديار المصرية فى مدة

---

(١) خطط المقريزى ، ج ٣ ص ٣٦٨

الخلفاء ، إذ كانت الخلافة يومئذ فى غاية العز ، ورفعة السلطان ، ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة فى جانبها ، والولايات الصادرة عن النواب فى نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة من الولايات ، فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر الدواعى على نقله ، ولا تنصرف الهمم لتدوينه ، مع تطاول الأيام وتوالى الليالى » (١) .

إذن نحن مضطرون إلى أن نمر بهذا العصر الطويل الذى يقدر بنحو قرنين دون أن نطيل الحديث عن هذه الرسائل التى كتبت إبانه، فإن هذه الرسائل فقدت ، ولم يبق منها إلا شيء يسير جداً كذه المكاتبات التى كانت بين عمرو بن العاص وبين الخليفة عمر بن الخطاب، ولكننا مضطرون إلى أن نتحدث عن هذه الرسالة التى يزعم بعض المؤرخين أن عمرو بن العاص كتبها إلى عمر بن الخطاب ، فقد قيل إن الخليفة أرسل إلى الوالى يسأله أن يصف مصر بعد أن أتم فتحها ، فأجاب « ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، يسألنى عن مصر ، إعلم يا أمير المؤمنين ، أن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا ما اصلخم عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى ، ج ١١ ، ص ٢٨

بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن فى المخايل ورق الأصائل ، فاذا تكامل فى زيادته ، ونكص على عقبيه ، كأول ما بدأ فى جريته ، وطما فى درته ، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة ، وذمة مخفورة ، يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون بها الحب ، ويرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدهم ، فإذا أصدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى ، وغذاه من تحته الثرى . فبينما مصر — يا أمير المؤمنين — لؤلؤة بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فاذا هى زمردة خضراء ، فاذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخلاق لما يشاء ، والذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقر قاطنيها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها ، فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل » [١] .

ثم نجد المؤرخين يقولون إنه لما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب قال « لله درك يا ابن العاص ! لقد وصفت لى خبراً كأنى أشاهده » [٢]

هذا ما يقوله المؤرخون والأدباء ولكننا نشك فى نسبة هذا الخطاب إلى عمرو بن العاص ، لأنا إذا قارنا بين هذه الرسالة وبين مارواه الأدباء والمؤرخون من أحاديث عمرو ، يتبين لنا أنها لم تصدر عنه ، ثم هناك ناحية فنية خالصة ، ذلك أن كتاب هذا العصر اعتادوا

(١) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣٢ (٢) شرحه

أن يبدأوا رسائلهم بحمد الله ، أما فى هذه الرسالة فشذ الكاتب عن هذه القاعدة ، ولم يحمد الله . ثم نرى كاتب الرسالة يبدؤها بالدعاء لأمير المؤمنين ، وهذا لم نره فى رسائل هذا العصر أيضا ، بل جاء الدعاء للخليفة فى الرسائل متأخرا جدا ، وقد رأينا هذه الرسالة تشتمل على فقرات قصيرة مسجوعة ، يظهر فيها أثر الصنعة الفنية ، التى لم يعرفها العرب فى صدر الإسلام أو أيام الأمويين ، بل جاءت نتيجة لتطور الحياة الفكرية عند العرب ، وامتزاجهم بغيرهم من الشعوب الأخرى فاختلفت الكتابة العربية بدخول الثقافات الأجنبية فى العربية .

حقيقة عرف عمرو بن العاص بالفصاحة والذكاء ، حتى أن عمر ابن الخطاب كان إذا رأى رجلا يتلجلج فى كلامه يقول « خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد »[١] ولكن هذا كله لا يجعلنا نقول إن عمرا هو الذى كتب هذه الرسالة ، ولعل أسطع دليل نستطيع أن نقدمه لتدعيم حجتنا ، هو أن نورد صورة خطاب يقول ابن عبد ربه فى العقد الفريد[٢] إن عمرا أرسله إلى الخليفة عمر بن الخطاب وهذا نصه :

« من عمرو بن العاص إلى عبد الله ، أمير المؤمنين ، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإنه أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا ، وأنه يعرفنى قبل ذلك لا مال ، وأنى أعلم أمير المؤمنين أنى بأرض السعر فيه رخيص ، وإنى أعالج من من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله وفى رزق أمير المؤمنين سعة ، والله لو رأيت خيانتك حلالا ما خنتك ، فأقصر أيها الرجل ، فإن لنا أحسابا هى خير من العمل لك ، إن رجعنا إليها عشنا بها . ولعمرى ان

(١) النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ٦٤ (٢) جـ ١ ، ص ٢٦

عندك من تذم معيشته ، ولا تذم له ، فأنى كان ذلك ولم يفتح قفلك ولم نشركك فى عملك » .

من هذا الخطاب نستطيع أن نلمس الفرق بين كتابته وكتابة الخطاب الأول ، مما يجعلنا نرجح أن الخطاب الوصفى لم يكتبه عمرو ابن العاص .

ويزعم بعض المؤرخين أن ديوان الإنشاء والرسائل وجد فى مصر منذ أن أنشىء بها الديوان أى منذ الفتح العربى ، وأن هذا الديوان كان يكتب بالقبطية ثم نقل إلى العربية ، ومن يدعى ذلك لم يدرك تماماً ماهية هذا الديوان الذى أنشىء فى مصر منذ الفتح ، كما أنشىء فى غير مصر من الأقطار الإسلامية . هناك فرق بين كتابة الدواوين وكتابة الرسائل ، فالدواوين ماهى إلا ضرب من ضروب الحساب ، وثبت يكتب فيه أسماء القبائل والعشائر والبطون ، وما يخص كل فرد من الفىء ، لهذا لا نستطيع أن نتخذ هذه السجلات كتابة فنية يتعمدها الكاتب ويزينها ، ويظهر فيها صنعته الفنية ، فإن كتابة الديوان لا تحتاج إلى شىء من ذلك وقل عن كتاب الخراج وكتاب المقياس ما قلناه عن كتاب ديوان الجند .

الفصل الثاني

ديوان الانشاء في العصر الطولوني والاخشيدي

كان للطولونيين مطامع سياسية واسعة ، عملوا على تحقيقها ، حتى أدركوا شطرا منها فاتسعت بذلك دائرة أعمالهم ، واضطروا إلى أن يصطنعوا عددا كبيرا من الكتاب يساعدونهم فى القيام بهذا العبء الثقيل ،لهذا اضطر الطولونيون إلى أن يؤسسوا ديوان الانشاء بمصر « فأحمد (يعني أحمد بن طولون) أول من أخذ فى ترتيب الملك،وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية ولما شمخ سلطانه ، وارتفع بها شأنه ، أخذ فى ترتيب ديوان الانشاء ، لما يحتاج إليه فى المكاتبات والولايات »[1] .

وأول من تولى ديوان الانشاء بمصر هو أبو جعفر محمد بن أحمد ابن مودود المعروف بابن عبدكان ، لم يصلنا عن حياة هذا الرجل شيء ، وكل الذين ذكروه اكتفوا بمدحه وذكر كفايته ، فابن النديم يقول « كان بليغاً مترسلا فصيحاً »[2] ويقول القلقشندى « كان ممن شتهر من كتابهم (أى كتاب الطولونيين) بالبلاغة وحسن الكتابة أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود ابن عبدكان كاتب أحمد بن طولون

---

(١) صبح الاعشى ، جـ ١١ ، ص ٢٨ (٢) الفهرست ، ص ١٩٧

وكان مبدأ الكتاب المشهورين بها » [١] وفى مكان آخر يقول « واستكتب ابن عبدكان ، فأقام منار ديوان الانشاء ، ورفع مقداره » [٢] .

إذن تكاد تجمع النصوص التى وصلتنا عن ابن عبدكان أنه كان ماهرا فى صناعته ، بليغا فى كتابته ، حتى أن القلقشندى روى أن أهل بغداد كانو يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر وابن عبدكان ، يعنى كاتب الانشاء لابن طولون ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما» [٣] .

ومهما يكن فى هذا القول من مبالغة ، فانه يدل على أن رئيس ديوان الانشاء بمصر فى العصر الطولونى كانت له شهرته فى فن الانشاء . ولا ندرى من أين استق ابن عبدكان علومه التى ساعدته على أن يكون زعيم الكتاب فى مصر ، ولا ندرى تماما أين نشأ ، ولكنا نستطيع أن ندرك أن رجلا يشغل هذا المنصب الرفيع الذى شغله ابن عبدكان لابد أن يكون ملما بثقافة واسعة ، تؤهله لهذا المنصب ، لاسيما وأن الأمير أحمد بن طولون كان على جانب عظيم من العلم ، ولعل ابن عبدكان كان أحد الذين يصدق فيهم قول ابن خلدون « إن صاحب هذه الخطة لابد أن يتخير من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم . وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة ، فإنه معرض للنظر فى أصول العلم ، لما يعرض فى مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ماتدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب ، والتخلق بالفضائل مع

(١) صبح الاعشى ، ج١ ، ص٩٥ (٢) صبح الاعشى ، ج١٠ ، ص٢٨
(٣) صبح الاعشى ، ج٣ ، ص ١٧ .

ما يضطر إليه فى الترسيل . وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها »[١]

ولا أشك أن عدداً كبيراً من الكتاب اطلعوا على رسالة عبد الحميد الكاتب التى وضعها نصيحة للكتاب تعينهم فى مهمتهم فهو يقول عن العلوم التى يجب أن يحيط بها الكاتب « فتنافسوا يامعشر الكتّاب ، وتفقهوا فى الدين ، وابدأوا بعلم الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط ، فإنه حلية كتابكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسموا إليه هممكم »[٢]

لكن هذه العلوم التى تحدث عنها عبد الحميد هى العلوم العربية التى كانت فى عصره ، إذ لم توجد بعد العلوم الإسلامية التى سميت فالعلوم الدخيلة التى كانت سبباً فى تطور الحياة الأدبية العربية . ففى العصور التى تلت عصر عبد الحميد نجد الكتاب يأخذون بحظوظ مختلفة من العلوم الأجنبية . التى نقلها المترجمون إلى العربية . وأقبل المسلمون على تفهمها والأخذ منها . فقل أن تجد كاتباً لم يلم بالثقافة الفارسية أو الثقافة اليونانية وظهر أثر هذه الثقافات فى الكتابة . ويقول الأستاذ الدكتور طه حسين بك : فالكتابة فى العراق وفى الحجاز نشأت عربية خالصة دعت إليها الحاجة . وكان تطورها نتيجة طبيعية لتطور العرب ولتأثر العرب بالفرس واليونان .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢١٥ (٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢١٦

ولوجود هؤلاء الموالى الذين أخذوا بحظ من علوم بلادهم ولكنهم تعلموا العربية وكتبوا بها فاضطروا إلى أن يدخلوا على العربية كثيراً مما ورثوه عن قوميتهم، ومن تأمل كتاب الدولة العباسية وجدهم جلهم من الموالى»(١)

أما مصر فكان لها شأن آخر فقد كانت يونانية العلم قبل الإسلام وانتشر بها الأدب اليونانى، والفلسفة اليونانية، ولا أشك أن هذه الدراسات تركت أثراً قويا فى العقلية المصرية ظل عدة قرون، فاستقر بمصر ولا يمكن أن يمحى إلا مع الزمن الطويل قد لا نجد بين المصريين من نقل من كتب اليونان الفلسفية ما نقله غيرهم، ولم تلق كتب الفلسفة فى مصر الإسلامية الإقبال الذى كان فى غير مصر، ولكن المصريين منذ عهد البطالسة كانوا يذكرون الأدب اليونانى بما فيه من شعر ونثر وقصص، والفلسفة اليونانية بما فيها من طبيعيات وإلهيات، وعن اليونان أخذ المصريون نظم الكتابة، وعن المصريين أخذ العرب الذين استقروا بمصر، فإذا كان بعض كتاب العراق تأثر بالفارسية وبعضهم تأثر باليونانية، فكتاب مصر لم يتزودوا من الثقافة الفارسية إلا من كان منهم من العراق أو فارسى النشأة ووفد على مصر بعد تمام تكوينه.

وكانت مصر الإسلامية تسير نحو الأخذ بحظ وافر من العلوم فازداد عدد المشتغلين بها يوماً بعد يوم، فكان ذلك من الأسباب التى وجهت الكتابة [illegible] ة فى مصر إلى ناحية خاصة، هى الناحية الفنية التى يتكلفها الكاتب، ويتعمد تجميلها وزخرفتها، وهذا ما نراه

---

(١) محاضرات الأستاذ الدكتور طه حسين بك سنة ١٩٣١ فى النثر العربى

عند الكتاب الذين نراهم فى العصر الطولونى وما بعده ، كما كان ذلك سبباً فى أن كتاب مصر فى هذا العصر كانوا يشبهون فى كثير من الأحوال كتاب العراق الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، فرسائل ابن عبدكان مثلا كانت تشبه رسائل العراقيين ، لهذا تستطيع أن تلمس التغيير الواضح فى هذه الرسائل التى كتبها ابن عبدكان عن هذه الرسائل القديمة التى كتبت فى صدر الإسلام ، فإنك تجد فى كتابة ابن عبدكان شيئاً من الفن الذى يحدث لذة عند القراء وعند السامعين لن تجدها فى كتابة المتقدمين التى لم تكتب إلا لتؤدى معنى خاصاً دون مراعاة تنسيق اللفظ .

قسم ابن عبد كان رسائله إلى أجزاء أو فصول ، مثله فى ذلك مثل تلاميذ مدرسة الجاحظ من كتاب العراق الذين تأثروا بالثقافة اليونانية . كذلك يتفق الجاحظ وابن عبدكان فى أن كتابتهما تميل دائماً إلى الإطناب والتطويل ، ولكنه ليس إطناباً مملا ثقيلا ، بل هو فن وقدرة على الكتابة ، كما كان ابن عبد كان يدخل الدعاء حشواً معترضاً فى كلامه ، ويتوجه إلى المخاطب بصيغة المفرد دائماً أما جمله فقصيرة يزينها بالسجع غالباً ، فهو يطنب فى اللفظ ويكرر المعنى ويقتبس من القرآن الكريم ويكثر من التشبيهات والمحسنات اللفظية . فنى الخطاب الذى كتبه ابن عبدكان عن أحمد بن طولون إلى العباس بن أحمد بن طولون — حين ثار على أبيه — تتجلى صورة الكتابة العربية السليمة ، التى تأثرت بما كان فى مصر من آثار الثقافة اليونانية وآثار الثقافة الأجنبية التى نقلت إلى العربية وهذا نص الخطاب :

من احمد بن طولون مولى أمير المؤمنين ، إلى الظالم لنفسه ، العاصى لربه ، الملم بذنبه ، المفسد لكسبه العادى لطوره ، الجاهل لقدره ، الناكص على عقبه ، المركوس[١] فى فتنته ، المنجوس من حظ دنياه وآخرته . سلام على كل منيب مستجيب ، تائب من قريب ، قبل الأخذ بالكظم ، وحلول الفوت والندم ، وأحمد الله الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء بالجميل ، والطول الجليل ، وأسأله مسألة مخلص فى رجائه ، مجتهد فى دعائه ، أن يصلى على محمد المصطفى ، وأمينه المرتضى ، ورسوله المجتبى ، صلى الله عليه وسلم

(أما بعد) فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها ، والنحلة يكون حتفها فى جناحيها ، وستعلم هبلتك[٢] الهوابل ، أيها الأحمق الجاهل ، الذى ثنى على الغى عطفه ، واغتر بضجاج المواكب خلفه ، أى موردة هلكة بإذن الله توردت ، إذ على الله عز وجل ، تمردت وشردت ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلا « قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» وإنا كنا نقربك إلينا ، وننسبك إلى بيوتنا ، طمعاً فى إنابتك ، وتأميلا لفيئتك فلما طال فى الغى إنهماكك ، وفى غمرة الجهل ارتباكك ، ولم نر الموعظة تلين كيدك ، ولا التذكير يقيم أودك ، لم تكن لهذه النسبة أهلا ، ولا لإضافتك الينا موضعاً ومحلا ، بل لا نكنى بأبى العباس إلا تكرهـا وطمعاً بأن يهب الله عنك خلفاً نقلده اسمك ، ونكنى به دونك ، ونعدك كنت نسياً منسياً ، ولم تك شيئاً مقضياً ، فانظر — ولا نظر

---

(١) الركس هو رد الشيء مقلوبا وقلب أوله على آخره (٢) هبلته ثكلته

بك — الى عار نسبته تقلدت ، وسخط من قبلنا تعرضت ،واعلم أن البلاء بإذن الله قد أظلك، والمكروه إن شاء الله قدأحاط بك، والعساكر بحمد الله قد أتتك كالسيل فى الليل ،تؤذن بحرب وبويل، فإننا نقسم — ونرجو أن لا نجور ونظلم — أن لا نثنى عنك عناناً، ولا نؤثر على شأنك شأناً ، ولا نتوقل ذروة جبل ، ولا نلج بطن واد إلا جعلناك بحول الله وقوته فيهما ، وطلبناك حيث أممت منهما منفقين فيك كل مال خطير ،ومستصغرين بسببك كل خطب جليل، حتى تستمر من طعم العيش ما استحليت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت حين لا دافع بحول الله عنك ، ولا مزحزح لنا عن ساحتك ، وتعرف من قدر الرخاء ما جهلت ، وتود أنك هبلت ، ولم تكن بالمعصية عجلت ولا رأى من أضلك من غواتك قبلت فحينئذ يتفرّى بك الليل عن صبحه ، ويسفر لك الحق عن محضه ، فتنظر بعينين لا غشاوة عليهما ،وتسمع بأذنين لا وقر فيهما ، وتعلم أنك كنت متمسكا بحبائل غرور، متماديا فى مقابح أمور ، من عقوق لا ينام طالبه ، وبغى لا ينجو هاربه ، وعذر لا ينتعش صريعه ، وكفران لا يودَى قتيله ، وتقف على سوء رويتك ، وعظم جريرتك فى تركك قبول الأمان ، إذ هو لك مبذول وأنت عليه محمول ، وإذ السيف عنك مغمود ، وباب التوبة اليك مفتوح ، وتتلهف والتلهف غير نافعك ، إلا أن تكون أجبت اليه مسرعاً ، وانقدت اليه منتصحاً .

وإن مما زاد فى ذنوبك عندى ، ما ورد به كتابك على بعد نفوذى على الفسطاط من التمويهات والأعاليل، والعدات بالأباطيل، من مصيرك بزعمك الى إصلاح ما ذكرت أنه فسد على ،حتى ملت

الى الاسكندرية ، فأقمت بها طول هذه المدة ، واستظهاراً عليك بالحجة ، وقطعاً لمن عسى أن يتعلق به معذرة علم بأن الأناة غير صادة ، ولا أنه خالجنى شك ، ولا عارضنى ريب ، فى أنك أردت التزوح والاحتيال للهرب ، والنزوع الى بعض المواضع التى لعل قصدك إياها يوديك ، ولعل مصيرك اليها يكفينيك ، ويبلغ إلى أكثر من الارادة فيك ، لأنك إن شاء الله لا تقصد موضعاً إلا تلوتك ، ولا تأتى بلداً إلا قفوتك ، ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تنجيك إلا استعنت بالله عز وجل فى جـد حبالها ، وفصم عروتها ، فإن أحداً لا يؤوى مثلك ، ولا ينصره إلا لأحد أمرين من دين أو دنيا ، فأما الدين : فأنت خارج من جملته لمقامك على العقوق ، ومخالفة ربك وإسخاطه . وأما الدنيا فما أراه بقى معك من الحطام الذى سرقته وحملت نفسك على الإيثار به ، ما يتهيأ لك مكاثرتنا بمثله ، مع ما وهب الله لنا من جزيل النعمة التى نستودعه تبارك وتعالى إياها ، ونرغب اليه فى إنمائها ، الى ما أنت مقيم عليه من البغى الذى هو صارعك ، والعقوق الذى هو طالبك .

وأما ما منيتناه من مصيرك الينا فى حشودك وجموعك ، ومن دخل فى طاعتك لإصلاح عملنا ومكافحة أعدائنا بأمر أظهروا فيه الشماتة بنا ، فما كان إلا بسببك ، فأصلح أيها الصبى الأخرق أمر نفسك قبل إصلاحك عملنا ، واحزم فى أمرك قبل استعمالك الحزم لنا ، فما أحوجنا الله وله الحمـــد الى نصرتك ومؤازرتك ، ولا اضطرنا الى التكثر بك على شقاقك ومعصيتك « وما كنت متخذ المضلين عضدا »

وليت شعرى على من تهول بالجنود ، وتمخرق بذكر الجيوش ، ومن هؤلاء المسخرون لك ، الباذلون دماءهم وأموالهم وأديانهم دونك ! دون رزق ترزقهم إياه ، ولا عطاء تدره عليهم ، فقد علمت — إن كان لك تمييز ، أو عندك تحصيل — كيف كانت حالك فى الوقعة التى كانت بناحية أطرابلس ، وكيف خذلك أولياؤك والمرتزقة معك حتى هزمت ، فكيف تغتر بمن معك من الجنود الذين لا اسم لهم معك ، ولا رزق لهم على يديك ؟ فإن كان يدعوهم الى نصرتك هيبتك والمداراة لك والخوف من سلطانك ، فانهم ليجذبهم أضعاف ذلك منا ، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا ما لا يجدونه عندك ، وإنهم لأحرى بخذلك ، والميل الينا دونك ، ولو كانوا جميعا معك ، ومقيمين على نصرتك لرجونا أن يمكننا الله منك ومنهم ، ويجعل دائرة السوء عليك وعليهم ، ويجرينا من عادته فى النصر وإعزاز الأمر على ما لم يزل يتفضل علينا بأمثاله ، ويتطول بأشباهه . فما دعانى الى الإرجاء لك ، والتسهيل من خناقك ، والإطالة من عنانك ، طول هذه المدة إلا أمران : أغلبهما كان على احتقار أمرك واستصغاره ، وقلة الاحتفال والاكتراث به ، وإنى اقتصرت من عقوبتك على ما أخلقته بنفسك من الأباق الى أقاصى بلاد المغرب شريداً عن منزلك وبلدك ، فريداً من أهلك وولدك . والآخر : أنى علمت أن الوحشة دعتك الى الانحياز الى حيث انحزت اليه ، فاردت التسكين من نفارك ، والطمأنينة من جأشك ، وعملت على أنك تحن الينا حنين الولد ، وتتوق الى قربنا توقان ذى الرحم والنسب ، فإن فى رفقنا بك ما يعطفك الينا ، وفى تآخينا إياك ما يردك

علينا ، ولم يسمع منا سامع فى خلاء ولا ملاء انتقاصاً بك ، ولا غضاً منك ، ولا قدحاً فيك ، رقةعليك واستبقاءً لليد عندك ، وتأميلا لأن تكون الراجع من تلقاء نفسك ، والموفق بذلك لرشدك وحظك ، فأما الآن مع اضطرارك إياى الى ما اضطررتنى اليه من الانزعاج نحوك ، وحبسك رسلى النافذين بعهد كثير الى ما قبلك ، واستعمالك المواربة والخداع فيما يجرى عليه تدبيرك ، فما أنت بموضع للصيانة ، ولا أهل للابقاء والمحافظة ، بل اللعنة عليك حالة ، والذمة منك برية ، والله طالبك ومؤاخذك بما استعملت من العقوق والقطيعة ، والإضاعة لرحم الأبوة ، فعليك من ولد عاق شاق لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين ، ولا قبل الله لك صرفا ولا عدلا ، ولا ترك لك منقلباً ترجع اليه ، وخذلك خذلان من لا يؤبه له ، وأثكلك ولا أمهلك ، ولا حاطك ولا حفظك ، فوالله لأستعملن لعنك فى دبر كل صلاة ، والدعاء عليك فى آناء الليل والنهار ، والغدو والآصال ، ولأكتبن الى مصر وأجناد الشامات والثغور ، وقنسرين والعواصم والجزيرة والحجاز ومكة والمدينة كتباً تقرأ على منابرها فيك باللعن لك ، والبراءة منك ، والدلالة على عقوقك وقطيعتك يتناقلها آخر عن أول ، ويأثرها غابر عن ماض ، ويخلد فى بطون الصحائف ، ويحملها الركبان ، ويتحدث بها الآفاق ، وتلحق بك وبأعقابك عاراً ما اطرد الليل والنهار ، واختلف الظلام والأنوار . فحينئذ تعلم — أيها المخالف أمر أبيه ، القاطع رحمه ، العاصى ربه — ، أى جناية على نفسك جنيت ، وأى كبيرة اقترفت واجتنيت ، وتمنيت لو كان فيك مسكة

أوفيك فضل إنسانية ، إنك لم تكن ولدت ، ولا فى الخلق عرفت إلا أن تراجع من طاعتنا والإسراع إلى ماقبلنا ، خاضعاً ذليلا كما يلزمك فنقيم الاستغفار مقام اللعنة ، والرفة مقام الغلظة والسلام من سمع الموعظة فوعاها ، وذكر الله فاتقاه ، إن شاء الله تعالى [١] » .

* * *

ونجد فى رسائل المصريين شيئاً جديداً لم نعهده عند القدماء وكان له نظير عند كتاب العراق منذ القرن الثالث الهجرى ، ذلك أن المصريين كانوا يفتتحون رسائلهم بالدعاء غالباً ، فدعاء بصلاح الدنيا وغبطة الآخرة ، أو الدعاء بكبت العدو ، أو بطيب الحياة إلى غير ذلك من الأمور التى تتنوع بتنوع حال المرسل اليه ، كقول أحد الكتاب المصريين داعياً « أطال الله بقاءك ففى إطالته حياة الأنام ، وأنس الأيام والليالى ، وأدام عزك ، ففى إدامته دوام الشرف ونمو المعالى ، وأتم نعمته عليك ، فانها نعمة حلت محل الاستحقاق ، ونزلت منزلة الاستيجاب ، ووقفت على من لاتكون الآلاء مكانه ولا تنكر الفواضل محله . . . الخ » [٢]

وقد نجد بعض الكتاب يكتب مطرحا الدعاء بدوام النعمة لتقيدها بموجباتها ، كقول أحد الكتاب « قد كفى الله عز وجل مؤنة الدعاء لنعمته بالثناء ، لأنها توخت لديك محلها ، فحلت بفنائك سارة ، مطمئنة قارة ، تستوثر مهادها قبلك ، وتستهنىء مواردها عندك ، ولم تزل تائقة اليك ، متطلعة نحوك ، بما استجمع لها من لطيف السياسة ، وحسن الاحتمال لأعباء المغارم ، فهنأ كها الله متصلة البقاء ، بطول

(١) صبح الأعشى ، جـ ٧ ، ص ٥ وما بعدها

(٢) صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ١٦٠

مدة بقائك ، ومتحلية بحسن فنائك، فلازلت لعوارف النعم مستدعيا، وللشكر بالزيادة فيها مترياً ، وبدوام الحمد لردفها مستمرياً »[١]

وقد لانجد هذا ولا ذاك ، إذ يهجم بعض الكتاب على موضوعه دفعة واحدة ، ويكتب رسائله مفتتحاً بقوله « كتابى إليك » أو « كتبت إليك » .

أما فى إجابة هذه الخطابات فنراهم يبتدئون بقولهم «وصل كتابك» ويختمون بقولهم « إن رأيت أن تفعل كذا وكذا » أو « فرأيك فى كذا وكذا » ، وقد أفرد القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى» باباً عن هذه المكاتبات التى كانت بين الأصدقاء أيام الطولونيين أو ماقاربها وقد أتى بصور كثير من الفنون المختلفة التى ذكرنا بعضها[٢]

ومن المكاتبات التى هى من خصائص مصر ، المكاتبة بالبشارة بوفاء النيل ، والبشارة فى الركوب بفتح الخليج . ولا يشارك مصر فى ذلك غيرها من الممالك ولا يزال القائمون بالأمر فى مصر من قديم الزمان يكتبون بذلك إلى ولاة الأعمال[٣] ، ولكن لم يصلنا شىء من المكاتبات التى صدرت فى العصر الذى نؤرخه عن ذلك .

ظهر عدد كبير من الكتاب أيام الطولونيين أمثال الحسن بن رافع ويعقوب بن اسحق كاتب موسى بن طولون ، وكان هذا الكاتب فيما يقال يعرف زيج السندهند ، وعنده علم بالنجوم[٤] ، وجعفر بن عبد الغفار المصرى ، وأحمد بن أيمن وكان كاتبا للعباس بن خالد البرمكى فى حداثته[٥] وكثير غيرهم ، وقد ذكر ابن الدايه بعضهم فى

---

(١) صبح الأعشى ، جـ ٨ ص ١٦١ (٢) صبح الأعشى ، جـ ٨ ص ١٦٠ — ١٦٦
(٣) صبح الأعشى ، جـ ٨ ، ص ٣٢٨ (٤) سيرة ابن طولون لابن الداية ، ص ١٤
(٥) المكافأة ص ٩٤

كتابه المكافأة . لم يكن هؤلاء الكتاب جميعهم من مصر بل كان أغلبهم من العراق فأبو يوسف يعقوب بن اسحق كان من سر من رأى ، وابن الداية أصله من بغداد ، والحسين بن مهاجر كان من الرقة [١] ولكن كان ابن طولون يفضل أن يتخذ كتابه من المصريين مع قصورهم عن العراقيين ، فقد قيل إن ابن طولون استكتب جعفر بن عبد الغفار المصرى، ولكن هذا الكاتب لم يستطع أن يؤدى عمله كما يجب ، ومع ذلك احتمله ابن طولون ، وقد سأله صديقه أحمد بن خاقان عن السر فى ذلك فقال له الأمير « أنا أحتمله لأنه مصرى » ، فقال ابن خاقان « أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصرى على الكاتب البغدادى ؟ » قال « لا والله ، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلدا أن يكون كاتبه منه، وأن يكون شمل الكاتب فيه ، فإنه يجتمع له فى ذلك البلد أمور صالحة، منها أن تكون بطانة الكاتب وحاشيته فى ذلك البلد ، فيعود مرفقه على فريق من أهله ، ومنها رغبته فى اعتقاد المستغلات به ، فيكون صفافا لجناياته ، وهو مع هذا وشمله ظاهرون ومستقرون فى خدمتى، والكاتب العراقى ليس كذلك ، لأنه يعتقد المستغلات فى بلده النائى عنه وعنى، وهو فى كل وقت متطلع إلى بلده ، فبهذا السبب زهدت فى كتاب سر من رأى ، مع علمى بتقدمهم فى الكتابة والرجاحة [٢] .

وكان للكتاب فى مصر فى هذا العصر شأن كبير فيما جرى من حوادث ، وقد رأينا الكتاب الذين كانوا حول العباس بن أحمد

---

(١) المغرب فى حلى المغرب، جـ ٣ ، نسخة خطية بدار الكتب المصرية

(٢) سيرة ابن طولون ص ١٥

ابن طولون من أمثال جعفر بن جدار، وأحمد بن المؤمل ، ومحمد بن سهل المتوف، كانوا سببا فى قيام العباس ضد أبيه ، كما كانوا سببا فى هزيمته ، لأنهم لم يكونوا من رجال السيف ولا من رجال السياسة [١] .

أما الذى تولى ديوان الانشاء فى عهد خمارويه ، فهو على بن أحمد المادرائى [٢] ولكن هذا الكاتب لم يوفق إلى إرضاء خمارويه ، فتولاها إسحق بن نصير العبادى [٣] ، ويحدثنا ياقوت أن «إسحق بن نصير الكاتب البغدادى كان كاتب الرسائل بديوان مصر بعد محمد بن عبد الله بن عبدكان » [٤] ثم يروى عن ابن زولاق «وكان أبو جعفر محمد بن عبد الله ابن عبدكان على المكاتبات والرسائل منذ أيام أحمد بن طولون ، ومكاتباته وأجوبته موجودة إلى أن قدم عليه أبو يعقوب إسحق بن نصير البغدادى من العراق ، والتمس التصرف ، فقال له ابن عبدكان فيم تتصرف ؟ فقال : فى المكاتبات والأجوبة والترسل ؛ وكان بين يدى أبى جعفر كتب قد وردت ، فقال له : خذ هذه وأجب عليها . فأخذها ومضى إلى ناحية من الدار ، فأجاب عنها ، ثم وضع خفه تحت رأسه ونام ، وقام أبو جعفر إلى الحجرة التى له فاجتاز به ، والكتب بين يديه ، فأخذها وقرأها ، فلما تأملها جعل يروح إسحق بن نصير حتى انتبه ، فقال له : عمن أخذت الكتبة ؟ وأجرى عليه أربعين دينارا فى كل شهر ، فلم يزل مع أبى جعفر ، إلى أن توفى أبو جعفر وانفرد بالأمر على بن أحمد المادرائى ، فقال لإسحق : إلزم منزلك وانصرف فوردت

(١) سيرة ابن طولون ص ٥٨ (٢) معجم الأدباء جـ ٢ ص ٢٣٧

(٣) المغرب فى حلى المغرب جـ ٣ مخطوط بدار الكتب ، جـ ٤ ص ١٤ طبعة ليدن

(٤) معجم الأدباء جـ ٢ ص ٢٣٧

ستب فأجاب عنها على بن أحمد ودخل على أبى الجيش خمارويه ، فعرضها عليه ، فقال له : ما هذه الألفاظ التى تخرج عنى . فمضى على ابن أحمد وعاد إليه فما أراد أبو الجيش الجواب والاستزادة ، فخرج على بن أحمد وقال : هاتوا إسحق بن نصير فجىء به ،فقال : أجب عن هذه . فأجاب ، ودخل على بن أحمد على أبى الجيش فقرأ الأجوبة، فقال : نعم هذا الذى أعرف إيش الخبر؟ فقال له : كاتب كان مع أبى جعفر فاعتل وأحضرته الساعة . فقال هاته ؟ فأحضره ، فقال : كم رزقك ؟ قال : أربعون ديناراً ، فقال لعلى بن أحمد : اجعلها له أربعمائة فى الشهر ، وقال لإسحق لا تفارق حضرتى . فمكث إسحق حتى صار رزقه ألف دينار فى الشهر ، فكان يجود بذلك ، ويفضل به على الناس وأرسل إلى بغداد إلى ثلاثة أنفس ، إلى أبى العباس المبرد ، وأبى العباس ثعلب، وإلى وراق كان يجلس عنده ، دفعة واحدة ثلاثة آلاف دينار لكل واحد منهم ألف دينار وتوفى هذا الكاتب سنة ٢٩٧ هـ (١) .

وإذا نظرنا إلى كتاب الرسائل فى العصر الفاطمى نراهم يسيرون نهج ابن عبدكان ويتتبعون أثره فى الكتابة ، فابن عبدكان هو مؤسس مدرسة الرسائل فى مصر وهى المدرسة التى تنسب خطأ إلى القاضى الفاضل ، وسنتحدث عن ذلك بشىء من الإسهاب فى كتابنا . . فى أدب مصر الفاطمية .

وكان ابراهيم بن عبدالله بن محمد النجيرمى زعيم كتاب الاخشيدين وكان هذا الكاتب نحوياً كلفا بالعلوم العربية الخالصة ، أخذ النحو

---

(١) معجم الأدباء لياقوت جـ ٢ ، ص ٢٣٧

عن الزجاج [١] وأخذ عنه بعض المصريين أمثال أبى الحسين المهلبى وجنادة اللغوى وغيرهما [٢] فكان لدراسته هذه أثر فى كتاباته ، ومن إنشائه الخطاب الذى أرسله الاخشيد إلى المانوس ملك الروم ، وكان قد ورد على الاخشيد كتاب منه ، يفخر فيه ، ويزعم أن له المنة عليه فلما قرىء هذا الخطاب على الاخشيد ، طلب من كتابه أن يجيبوه ، فأجاب عنه جماعة فلم يختر إلا جواب إبراهيم النجيرمى ، وكان عالماً بوجوه الكتابة [٣]

ومما جاء فى هذا الخطاب « من محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين ، إلى المانوس [٤] عظيم الروم ومن يليه : سلام بقدر ما أنتم له مستحقون فانا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلى محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، (أما بعد) فقد ترجم لنا كتابك ، الوارد مع نقولا وإسحق رسوليك ، فوجدناه مفتتحاً بذكر فضيلة الرحمة ، وما نما عنا إليك ، وعمن شبهنا فيها إليك ، وبما نحن عليـــــه من المعدلة وحسن السيرة فى رعايانا وما وصلت به هذا القول من ذكر الفداء ، والتوصل إلى تخليص الأسرى ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة فمن سديد القول الذى يليق بذوى الفضل والنبل ، ونحن بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفون ،

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٦ .

(٢) بغية الوعاة للسيوطى ص ١٨١ ، معجم الأدباء جـ ١ ص ٢٧٨ .

(٣) المغرب فى حلى المغرب جـ ٤ ص ١٨ طبع ليدن

(٤) هكذا فى المغرب وفى صبح الأعشى جـ ٧ ص ١١ جاء الى (ارمانيوس) وهو الأمبراطور رومانوس لوكابينوس Romanus Lucapenus الذى ولى عام ٩١٩ م الى عام ٩٤٤ م)

وإليه راغبون وعليه باعثون وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون ، وبه متواصلون وعاملون ، وإياه نسأل التوفيق لمراشد الأمور ، وجوامع المصالح بمنه وقدرته .

وأما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة . فانا نرغب إلى الله جل وعلا الذى تفرد بكمال هذه الفضيلة ، ووهبها لأوليائه ، ثم أثابهم عليها ، أن يوفقنا لها ، ويجعلنا من أهلها ، وييسرنا للاجتهاد فيها والاعتصام من زيغ الهوى عنها ، وعرة القسوة بها ، ويجعل ماأودع قلوبنا من ذلك موقوفاً على طاعته ، وموجبات مرضاته حتى نكون أهلا لما وصفتنا به ، وأحق حقاً بما دعوتنا اليه ، وممن يستحق الزلفى من الله تعالى فانا فقراء إلى رحمته ، وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا ، وحمله من جسيم الأمر ماحملنا ، وجمع له من سعة الممالك ماجمع لنا ، بمولانا أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — أن يبتهل إلى الله تعالى فى معونته لذلك ، وتوفيقه وإرشاده ، فان ذلك إليه وبيده ، «ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور» . وأما ماوصفته من ارتفاع محلك عن مرتبة من هو دون الخليفة فى المكاتبة لما يقتضيه عظم ملككم ، وأنه الملك القديم الموهوب من الله الباقى على الدهر وإنك إنما خصصتنا بالمكاتبة لما تحققته من حالنا عندك ، فان ذلك لو كان حقاً كانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تكاتبه ، وكان لك فى ترك مكاتبتنا غنم ورشد ، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته ولا يراه وصمة ، ولا نقيصة ، ولا عيباً ، ولا يقع فى معاناة صغيرة من

الأمور تعقبها كبيرة ، فان السائس الفاضل قد يركب الأخطار ويخوض الغمار ، ويعرض مهجته فيما ينفع رعيته

والذى تجشمته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته فهو أمر سهل يسير، لأمر عظيم خطير ، وجل نفعه وصلاحه وعائدته تخصكم ، لأن مذهبنا انتظار إحدى الحسنيين ، فمن كان منا فى أيديكم فهو على بينة من ربه وعزيمة صادقة من أمره ، وبصيرة فيما هو بسبيله . وإن فى الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه ، وحميد عاقبته ، ويعلم أن الله تعالى قد أعاذه من أن يفتنه ، ولم يعذه من أن يبتليه . هذا إلى أوامر الانجيل الذى هو إمامكم ، وما توجبه عليكم عزائم سياستكم ، والتوصل إلى استنقاذ أسرائكم ، ولولا أن إيضاح القول فى الصواب ،أولى بنا من المسامحة فى الجواب ، لأضربنا عن ذلك صفحا ، إذ رأينا أن نفس السبب الذى من أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء عليهم السلام من كاتبهم ، أو عدا عنهم إلى من حل محلنا فى دولتهم ، بل إلى من نزل عن مرتبتنا ، هو أنه لم يثق من منحه ، ورد ملتمسه ممن جاوره ، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كله فى إجابتهم ، ولا عار على أحد وإن جل قدره فى ردهم ، ومن وثق فى نفسه ممن جاوره، وجد قصده أسهل السبيلين عليه ، وأدناهما إلى ارادته، حسب ما تقدم لها من تقدم ، وكذلك كاتب من حل محلك من قصر عن محلنا ، ولم يقرب من منزلتنا فممالكنا عدة ، كان يتقلد فى سالف الدهر كل مملكة منها ملك عظيم الشأن . فمنها ملك مصر الذى أطغى فرعون على خطر أمره، حتى ادعى الألوهية، وافتخر على نبى الله موسى بذلك . ومنها ممالك اليمن التى كانت للتبابعة ،

والاقيال العباهلة : ملوك حمير، على عظم شأنهم وكثرة عددهم . ومنها أجناد الشام : التي منها جند حمص، وكانت دارهم ودار هرقل عظيم الروم ومن قبله من عظمائها ، ومنها جند دمشق على جلالته في القديم والحديث، واختيار الملوك المتقدمين له ، ومنها جند الأردن على جلالة قدره، وأنه دار المسيح صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والحواريين . ومنها جند فلسطين وهى الأرض المقدسة ، وبها المسجد الأقصى، وكرسى النصرانية ، ومعتقد غيرها ، ومحج النصارى واليهود طرا ، ومقر داود وسليمان ومسجدهما ، وبها مسجد إبراهيم وقبره وقبر إسحق ويعقوب ويوسف وإخوته وأزواجهم عليهم السلام ، وبها مولد المسيح وأمه وقبرها . هذا إلى ما نتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة والدلالات الظاهرة ، فإنا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها وعظم قدرها وما حوت من الفضل توفى على كل مملكة لأنها محج آدم ومحج إبراهيم وارثه ومهاجره ، ومحج سائر الأنبياء ، وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام ، وداره[1] وقبره . ومنبت ولده ، ومحج العرب على مر الحقب، ومحل أشرافها . وذوى أخطارها على عظم شأنهم ، وفخامة أمرهم ، وهو البيت العتيق المحرم ، المحجوج إليه من كل فج عميق ، الذى يعرف بفضله وقدمه أهل الشرف من مضى ومن خلف ، وهو البيت المعمور، وله الفضل المشهور .

ومنها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم المقدسة بتربته ، وأنها مهبط الوحى ، وبيضة هذا الدين المستقيم الذى امتد ظله على البر والبحر،

---

(١) نلاحظ هنا أن الضمائر لا تستقيم مع ما قبلها مما يدل على أن بعض الجمل قد سقطت ولم تثبت فى صبح الأعشى ولا فى المغرب .

والسهل والوعر ، والشرق والغرب ، وصحارى العرب على بعد أطرافها وتنازح أقطارها ، وكثرة سكانها فى حاضرتها وباديتها ، وعظمها فى وفودها وشدتها ، وصدق بأسها ونجدتها ، وكبر أحلامها ، وبعد مرامها ، وانعقاد النصر من عند الله براياتها ، وأن الله تعالى أباد خضراء كسرى ، وشرد قيصر عن داره ومحل عزه ومجده بطائفة منها .

هذا إلى ما تعلمه من أعمالنا ، وتحت أمرنا ونهينا ثلاثة كراسى من أعظم كراسيكم : بيت المقدس ، وأنطاكية ، والأسكندرية . مع ما إلينا من البحر وجزائره ، واستظهارنا بأتم العتاد . وإذا وفيت النظر حقه علمت أن الله تعالى قد أصفانا بجل الممالك التى ينتفع الأنام بها ، وبشرف الأرض المخصوصة بالشرف كله دنيا وآخرة ، وتحققت أن منزلتنا بما وهبه الله لنا من ذلك فوق كل منزلة ، والحمد لله ولى كل نعمة .

وسياستنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها على عظمها وسعتها بفضل الله علينا ، وإحسانه إلينا ، ومعونته لنا ، وتوفيقه إيانا ، كما كتبت إلينا ، وصح عندك من حسن السيرة ، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعية ، ويجمعهم على الطاعة واجتماع الكلمة ، ويوسعها الأمن والدعة فى المعيشة ويكسبها المودة والمحبة .

والحمد لله رب العالمين أولا وآخراً على نعمه التى تفوت عند ناعد العادين ، وإحصاء المجتهدين ونشر الناشرين ، وقول القائلين ، وشكر الشاكرين . ونسأله أن يجعلنا ممن تحدث بنعمته عليه شكراً لها ، ونشراً لما منحه الله منها ومن رضى اجتهاده فى شكرها ; ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ، وكان سعيه مشكورا إنه حميد مجيد .

وما كنت أحب أن أباهيك بشيء من أمر الدنيا ، ولا أتجاوز الاستيفاء لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذى كرمه وأظهره ووعدنا فى عواقبه الغلبة الظاهرة ، والقدرة القاهرة ، ثم الفوز الأكبر يوم الدين ، لكنك سلكت مسلكا لم يجز لنا أن نعدل عنه ، وقلت قولا لم يسعنا التقصير فى جوابه ، ومع هذا فانا لم نقصد بما وصفناه من أمرنا مكاثرتك ، ولا اعتمدنا تعيين فضل لنا نعوذ به ، إذ نحن نكرم عن ذلك ، ونرى أن نكرمك عند محلك ومنزلتك ، وما يتصل بها من حسن سياستك ومذهبك فى الخير ومحبتك لأهله ، وإحسانك لمن فى يدك من أسرى المسلمين ، وعطفك عليهم ، وتجاوزك فى الإحسان إليهم جميع من تقدمك من سلفك ، ومن كان محموداً فى أمره ، رغب فى محبته ، لأن الخير أهل أن يحب حيث كان . فان كنت إنما تؤهل لمكاتبتك ومماثلتك من اتسعت مملكته ، وعظمت دولته ، وحسنت سيرته ، فهذه ممالك عظيمة واسعة جمة ، وهى أجل الممالك التى ينتفع بها الأنام ، وسر الأرض المخصوصة بالشرف ، فان الله قد جمع لنا الشرف كله ، والولاء الذى جعل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مخصوصين بذلك إلى ما لنا بقديمنا وحديثنا وموقعنا ، والحمد لله رب العالمين الذى جمع لنا ذلك بمنه وإحسانه ، ومنه نرجو حسن السعى فيما يرضيه بلطفه ، ولم ينطو عنك أمرنا فيما اعتمدناه

وإن كنت تجرى فى المكاتبة على رسم من تقدمك فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك ، وجدت من كان تقدمك قد كاتب من قبلنا من لم يحل محلنا ، ولا أغنى غناءنا ، ولا ساس فى الأمور سياستنا ، ولا قلده مولانا

أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ما قلدنا ، ولا فوض إليه ما فوض إلينا ، وقد كوتب أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وآخر من كوتب تكين مولى أمير المؤمنين ولم يكن تقلد سوى مصر وأعمالها .

ونحن نحمد الله كثيرا أولا وآخرا على نعمه التى يفوت عندنا عددها عد العادين ، ونشر الناشرين ، ولم نرد بما ذكرناه المفاخرة ، ولكنا قصدنا بما عددنا من ذلك حالات : أولها ، التحدث بنعمة الله علينا ، ثم الجواب عما تضمنه كتابك من ذكر المحل والمنزلة فى المكاتبة ، ولتعلم قدر ما بسطه الله لنا فى هذه المسالك ، وعندنا قوة تامة على المكافأة على جميل فعلك بالأسارى ، وشكر واف لما توليهم وتتوخاه من مسرتهم إن شاء الله تعالى وبه الثقة ، وفقك الله لمواهب خيرات الدنيا والآخرة والتوفيق للسداد فى الأمور كلها ، والتيسير لصلاح القول والعمل الذى يحبه ويرضاه ويثيب عليه ، ويرفع فى الدنيا والآخرة أهله بمنه ورحمته .

وأما الملك الذى ذكرت أنه باق على الدهر لأنه موهوب لكم من الله خاصة ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وإن الملك كله لله يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وإليه المصير ، وهو على كل شىء قدير وأن الله عز وجل نسخ ملك الملوك وجبرية الجبارين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين ، وشفع نبوته بالإمامة ، وحازها إلى العترة الطاهرة من العنصر الذى منه أمير المؤمنين أطال الله بقاءه . والشجرة التى منها غصنه ، وجعلها خالدة فيهم يتوارثها منهم كابر عن

كابر ، ويلقيها ماض إلى غابر ، حتى أنجز أمر الله وعده ، وبهر نصره
وكلمته ، وأظهر حجته ، وأضاء عمود الدين بالأئمة المهتدين ، وقطع
دابر الكافرين ليحق الحق ، ويبطل الباطل ولو كره المشركون، حتى
يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون ..... الخ

ولعلك تلاحظ فى هذا الخطاب هذه الصنعة الفنية التى امتاز بها
كتاب الرسائل ، فكثيراً ما كان الكاتب يستعمل التكرار ،
والإسراف فى الإطناب ، والإسهاب فى المعنى الواحد ، كما نرى هذى
الجمل القصيرة المسجوعة التى تدل على أن الكاتب أجهد نفسه فى
الكتابة ، وفى الملاءمة بين المعانى والألفاظ .

وقد أعجب النجيرمى نفسه بهذا الكتاب ، فنسخ منه نسخاً
وأنفذها إلى البصرة وأعمالها يفتخر به[١] .

ظل النجيرمى النحوى يعمل فى خدمة الإخشيديين حتى اتصل
بكافور ومدحه ، قيل إن الفضل بن العباس دخل يوماً على كافور
الإخشيدى وأبو إسحق النجيرمى عنده فقال الفضل : أدام الله أيام
سيدنا الأستاذ . ولحن فى كلامه بأن كسر الأيام ، فتبسم كافور، فأنشد
أبو إسحق على البديهة :

لاغرو أن لحن الداعى لسيدنا	وغص من هيبه بالريق والبهر
فإن يكن خفض الأيام عن دهش	من شدة الخوف لا من قلة البصر
فقد تفاءلت فى هـــذا لسيدنا	والفأل نأثره عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصب	وأن دولته صفو بلا كدر[٢]

---

(١) المغرب ص ٢٣ (٢) معجم الادباء ج ١ ص ٢٧٨

وقد أورد له ياقوت فى معجم الأدباء بعض الأشعار ، كما نقل الحصرى فى زهر الآداب كثيراً من كتاباته وأشعاره .

ونجد الكاتب محمد بن كلا يكتب للإخشيديين أيضاً [١]، ويسفر بين الإخشيد وبين ابن رائق ، وقد كان هذا الكاتب ثقة الإخشيد ورسوله إلى العراق ، ومع ذلك كان من نكبهم الإخشيد، والإخشيد أول من أقام الراتب ونكب عماله وكتابه [٢] ، قبض الإخشيد على ابن كلا آخر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة من الهجرة، وصادره على ثلثمائة ألف دينار وقبض على أهله وصادرهم ، وقبض على جماعة كانوا فى داره وصادرهم أيضاً ، ، ولكن ابن كلا أقسم أن لا يدفع مال المصادرة أو يلقى الإخشيد ويراه ، فامتنع الإخشيد أولا ، وأغلظ ابن كلا فى القسم حتى أمر الإخشيد بدخوله عليه ، فمروا به عليلا يتوكأ على رجلين — وكان به عرج — فنظر إلى الإخشيد ، وقال : أما أنا فقد استحييت ، فأطرق الإخشيد ، وتم قبض المصادرة وأطلقه [٣] ، ولم يصلنا عن هذا الكاتب شىء نستطيع أن نعرف قيمة كتابته .

ومهما يكن من شىء فأنت ترى من ذلك كله أن النثر سهل ، واستطاع الكاتب أن يتصرف كيفما أحب ، دون أن يجد مشقة وجهداً ، كما أننا لا نجد مشقة فى فهم جمله ، بل نجد استقامة فى المعنى ، وخصوبة فى هذه المعانى ، مما زاد فى جمال الكتابة كما أن الكتاب استطاعوا أن يعبروا عما فى نفوسهم ، وما تجيش به خواطرهم بسهولة فى أسلوب فنى جميل يظهر فيه أثر صنعة الكاتب الفنية ، وقدرته على الكتابة فى ألوان الفنون المختلفة

(١) المغرب ص ٢٥ (٢) المغرب ص ٢٩ (٣) المغرب ص ١٧

الباب الرابع

فى الشعر

الفصل الأول

من الفتح الاسلامى الى سقوط الدولة الأموية

وجد الشعر العربى بمصر كما وجد فى غيرها من الولايات الإسلامية، ولكن الذى وصلنا منه قدر يسير ، لا يكفى لأن نعرف منه خصائص الشعر المصرى ، ولا أن نفرق بينه وبين الشعر فى الأقطار الأخرى، قد نجد فى هذه الأبيات القليلة التى وصلتنا بعض المعانى المصرية ، وبعض الحوادث المصرية ، التى تفرق الشعر المصرى عن الشعر فى البلاد الأخرى ويعطيه الصبغة الإقليمية المصرية ، ولكن هذه الأبيات أو المقطوعات لا تكفى لأن تدلنا على مدى تأثر الشعر العربى بالبيئة المصرية ، وإن كانت تدلنا على أنه كان بمصر شعر تأثر بالحياة المصرية ، وأن هذا الشعر فقد ، ولم يبق منه إلا مقطوعات قليلة متناثرة فى كتب الأدب والتاريخ .

وأرجح أن أسباب ضياع الشعر المصرى فى هذا العصر هى نفس الأسباب التى جعلت الكتابة الفنية — أى كتابة الرسائل والإنشاء تتأخر فى مصر حتى قدوم أحمد بن طولون — فى عصر الخلفاء

الراشدين وعصر الأمويين والعباسيين كانت مصر ولاية ليس لها شأن مقر الخلافة ، وإذا نبغ شاعر أو كاتب كان يحمل إلى الخليفة أو يرحل هو إلى دار الخلافة لينال من العطاء والهبات ما كان يأخذه شعراء الخليفة ، أضف إلى ذلك عدم اكتراث المصريين فى أول الأمر بدراسة الأدب والعلوم الأدبية ، بل كان جل اهتمامهم يكاد ينصرف إلى الدراسة الدينية الخالصة ، مما أضعف رواية الشعر ودراسته فى مصر ، وسبب ضياع أكثر شعر المصريين

وإذا أردنا درس تاريخ الشعر فى مصر الإسلامية فى العصر الذى نؤرخه فى هذا الكتاب ، فسنرى ثلاثة أدوار تطور فيها الشعر المصرى تطوراً بيناً .

ففى الدور الأول الذى يبتدىء بالفتح إلى سقوط الدولة الأموية لم يصلنا فى هذا العصر الذى ينوف على مائة عام إلا عدة أبيات قليلة جدا ، لا نستطيع أن نتحدث بها عن الشعر كله ، ولم تصلنا قصيدة كاملة، إلا إذا استثنينا شعر الشعراء الوافدين على مصر ، والذين كان لهم أثر كبير فى ازدهار الحياة الأدبية فى مصر ، ومع ذلك فهذه الأبيات القليلة التى وصلتنا إنما تدلنا على أنه كان فى مصر شعر ، وأنه لم يعن أحد بروايته وحفظه ففقد .

ولعل أول قصيدة رويت فى مصر هى قصيدة أبى المصعب البلوى التى هجا بها أشراف مصر ، وقد أعجب بها الخليفة معاوية بن أبى سفيان فكان إذا قدم عليه أحد من أهل مصر سأله أن ينشده هذه القصيدة (١) فالشاعر فى هذه القصيدة يعيب عرب مصر أنهم حضرميون، ليس لهم

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٢٤

شرف ولا مجد وأنهم متكبرون ، ولست أدرى سبب هذا الهجاء لكن يخيل إلى أنه طلب نوالهم فرفضوا عطاءه .

وظلت أنادى اللكعاء قيسا ليدخلنى وقد حضر الغذاء
وليس بماجد الجدات قيس ولكن حضرميات قماء
وأعرض نفحه اليربوع عنى يزيد بعد ما رفع اللواء
أشار بكفه اليمنى وكانت شمالا لا يجوز لها عطاء
أكلم عائذا ويصد عنى ويمنعه السلام الكبرياء
وجرف قد تهدم جانباه كريب ذاكم البرم العياء
وأما القحزمى فذاك بغل أضر به مع الدبر الحفاء
وهذاك القصير من تجيب ولو يسطيع مانفض الخلاء (١)

يريد يزيد بن شرحبيل وقيس بن كايب الحاجب وعائذ بن ثعلبة البلوى الذى قتل بالبرلس سنة ٣٥ ، والقحزمى هو عمرو بن قحزم وكريب بن أبرهة ، وأشار بالقصير إلى زياد بن حناطة التجيبى صاحب القصر المعروف باسمه .

ولهذا الشاعر قصيدة أخرى مدح بها عبد الرحمن بن قيسية بن كلثوم التجيبى الذى وهب أبوه داره ليكون مسجدا بالفسطاط وقد ضاعت هذه القصيدة ولم يبق منها سوى بيت واحد .

وأبوك سلم داره وأباحها لجباه قوم ركع وسجود (٢)

وهذا الشعر صدر من رجل لا نعرف إلا اسمه وهو قيس بن سلمة المكنى بأبى مصعب البلوى ، ولا ندرى أكان يقطن مصر كغيره من

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٢٣
(٢) خطط المقريزى ج ٤ ص ٥

بطون « بلى » أم وفد عليها كباقى الشعراء الذين أكثروا من الوفود على مصر لمدح ولاتها .

ومن الأشعار التى وصلتنا أيضاً فى تصدق عبد الرحمن بن قيسية على المسلمين بداره لبناء مسجد الفسطاط ماقاله أبو قبان بن نعيم بدر النجيبى .

وبابليون قد سعدنا بفتحها   وحزنا لعمر الله فيئاً ومغنما
وقيسية الخير بن كلثوم داره   أباح حماها للصلاة وسلما(١)

وفى ولاية مسلمة بن مخلد ، سنة ثلاث وخمسين من الهجرة هدم ماكان بناه عمرو بن العاص من مسجد الفسطاط وأمر بالزيادة فى المسجد الجامع وبناء منار المساجد كلها فقال عابد بن هشام الأزدى .

لقد مدت لمسلمة الليـــالى   على رغم العـداة مع الأمانى
وساعـده الزمان بكل سعد   وبلغه البعيـد من الأمانى
أمسلم فارتق لازلت تعـلو   على الأيام مسلم والزمان
لقد أحكمت مسجدنا فأضحى   كأحسن ما يكون من المبانى
فتاه به البلاد وساكنوها   كما تاهت بزينتها الغوانى
كأن تجاوب الأصوات فيها   إذا ما الليل ألقى بالجـران
كصوت الرعد خالطه دوى   وارعب كل مختطف الجنان(٢)

وكان بين الولاة من يحب الشعر ويرويه ، ومنهم من كان شاعرا كالوالى عقبة بن عامر الذى كان شاعرا ولـكن منعه شدة حرصه على

---

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ٥
(٢) شرحه ج ٤ ص ٧

دينه من أن يكثر من إنشاد الشعر [١] .

ولعل أكثر ولاة مصر فى هذا الدور حباً للشعر والشعراء هو الأمير عبدالعزيز بن مروان الذى ولى من سنة خمس وستين ، إلى أن توفى بمصر سنة ست وثمانين هجرية ، فقد اتصل به كثير من الشعراء النابهين ومدحوه هو وآل بيته ، ولا غرو فى ذلك فعبدالعزيز كان اليه أمر الخلافة بعد أخيه عبد الملك ، فكان الشعراء يقصدونه وهو على مصر حتى يكون لهم شأن بعد أن تصير اليه الخلافة ، وكان عبدالعزيز جواداً يبذل العطاء لكل من يقصده فوفد عليه الشعراء ، وهؤلاء الذين جاءوا مصر لم يقيموا بها إلا لأيام معدودة ، على أن يعودوا إلى مواطنهم

فمن جاء لمدح عبد العزيز بن مروان الشاعر أيمن بن خريم الأسدى أقام هذا الشاعر عند الوالى وأكثر من مدحه حتى قدم الشاعر نصيب بن رباح فأعجب الأمير بشعره ، وبينما نصيب ينشد مدحه جاء الحاجب يقول إن أيمن بن خريم بالباب فأذن له عبد العزيز فلما دخل قال له الأمير : يا أيمن كم ترى ثمن هذا العبد ؟ وأشار إلى نصيب فنظر أيمن اليه وقال : « لنعم الغادى فى إثر المخاض هذا أيها الأمير أرى ثمنه مائة دينار . قال : فإن له شعراً وفصاحة ، فسأل أيمن نصيباً : أتقول الشعر ؟ فأجابه نصيب نعم ! فقال : قيمته ثلاثون ديناراً ، فقال الأمير يا أيمن أرفعه وتخفضه أنت ! قال : لكونه أحمق أيها الأمير ما لهذا وللشعر أمثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعراً ! فأمر عبد العزيز نصيباً أن ينشده فأنشده فقال عبد العزيز كيف تسمع يا أيمن ، قال : شاعر أسود هو أشعر أهل جلدته

(١) الولاة والقضاة للكندى ص ٣٧

قال الأمير « هو والله أشعر منك » وكرر ذلك فغضب أيمن وقال « والله أيها الأمير إنك لملول ظرف » ، قال الأمير : كذبت والله ما أنا كذلك ولو كنت كذلك ماصبرت عنك تنازعني التحية تواكلني الطعام وتتكىء على وسادتي وفرشي وبك مابك (١) . فاغتاظ أيمن واستأذن الأمير فى الخروج إلى العراق فأذن له وسار أيمن إلى بشر ابن مروان والى العراق ومدحه بقوله :

ركبت من المقطم فى جمادى ... إلى بشر بن مروان البريدا

ولو أعطاك بشر ألف ألف ... رأى حقاً عليه أن يزيدا

أمير المؤمنين أقم ببشر ... عمود الحق إن له عموداً

ودع بشراً يقومهم ويحدث ... لأهل الزيغ إسلاماً جديداً

كأن التاج تاج بنى هرقل ... جلوه لأعظم الأيام عيداً

على ديباج خدى وجه بشر ... إذا الألوان خالفت الخدودا (٢)

فأنت ترى أن الشاعر هنا عرض بعبدالعزيز فى قوله « إذا الألوان خالفت الخدودا » فإن عبد العزيز كان بوجهه نمش .

أما نصيب بن رباح فيقول الرواة إنه كان لبعض العرب من بنى كنانة فاشتراه عبدالعزيز بن مروان منهم ، وقيل بل باعه عمه بعد أن مات أبوه إلى عبد العزيز ، وقيل إن نصيباً رأى فى نفسه مقدرة على الشعر ، فحادث أمه أو أخته فى الرحيل إلى عبدالعزيز بمصر عساه يعتق أهل بيته ، فضحكت هذه ساخرة منه ، ولكنه أنشدها شعراً أعجبت به ، واطمأنت إلى قدومه مصر فحضر باب عبدالعزيز ولكنه

---

(١) يقصد بذلك أن أيمن بن خريم كان به وضح (٢) الأغانى جـ ١ ص ١٢٧

لم يستطع الدخول ، حتى رأى رجلا حسن البزة ، فحادثه نصيب فى التوسط له بالدخول على الأمير ، وعرفه أنه شاعر فاستنشده الرجل فلما أنشده نصيب شيئاً من شعره استملحه الرجل ، ولكنه شك أن يكون مثل هذا الشعر لمثل هذا الأسود ، فطلب إليه أن ينشد شعراً يذكر فيه جوف مصر وبعض فضائلها ، ووعده أن يستمع إليه فى الغد ، فلما جاء الغد أنشد نصيب الرجل

سرى الهم تثنيني إليك طلائعه ٭ بمصر وبالجوف اعترتنى روائعه

وبات وسادى ساعد قل لحمه ٭ عن العظم حتى كاد تبدو أشاجعه

إلى أن قال :

وكم دون ذاك العارض البارق الذى ٭ له اشتقت من وجه أسيل مدامعه

تمشى به أفناء بكر ومذحج ٭ وافناء عمرو وهو خصب مرابعه

إذا اكتحلت عينا محب بضوئه ٭ تجافت به حتى الصباح مضاجعه

وما زلت حتى قلت إنى لخالع ٭ ولائى من مولى نمتنى قوارعه

ومانح قوم أنت منهم مودتى ٭ ومتخذ مولاك مولى فتابعه [١]

فأيقن الرجل صدق شاعرية نصيب ، وقدمه إلى الوالى ، فجرى له مع أيمن ما ذكرناه سابقاً . على أن هناك رواية أخرى تقول إن نصيباً كان يرعى إبلا لمواليه ، فأضل منها بعيراً ، فخرج يبحث عنه حتى أتى الفسطاط وبه عبد العزيز ، فرغب فى الاتصال به ، فاستأذن فى الدخول فمنع ، وبعد لأى طلبه الأمير واستنشده فأنشده :

لعبد العزيز على قومه ٭ وغيرهم نعم غامرة

(١) الأغانى ج ١ ص ١٢٧

فبابك ألين أبوابهم ودارك مأهولة عامرة
وكلبك آنس بالمعتفين من الأم بالإبنة الزائرة
وكفك حين ترى السائلـــين أندى من الليلة الماطرة
فمنك العطاء ومنى الثناء بكل محبرة سائرة [١]

فسر به الوالى وأعطاه واشترى ولاءه ، ولكنهم مع هذا كله فالمؤرخون يروون روايات كثيرة عن خروج نصيب إلى عبدالعزيز ، ومهما يكن من شيء فإن الشاعر اتصل بعبد العزيز حتى لقب بمولى عبدالعزيز بن مروان ، ولكنه لم يقم عند الأمير عبدالعزيز بمصر ، بل كان كثير التنقل متكسباً بشعره كغيره من شعراء العرب ، ولم يزل نصيب يتردد على مصر بين الفينة والفينة ، ويمدح عبد العزيز حتى توفى الأمير متأثراً بالطاعون ، وكان قد هرب إلى قرية فى الصعيد تسمى « سكر » خوفا على نفسه من المرض ولكنه توفى بها [٢] ، فلما أتى نصيب نعى الأمير أنشد :

أصبت يوم الصعيد فى سكر مصيبة ليس لى بها قبل [٣]
تالله أنسى مصيبتى أبداً ما أسمعتنى حنينها الأبل
لم يعلم النعش ماعليه من العرف ولا الحاملون ما حملوا
حتى أجنوه فى ضريحهم حين انتهى من خليلك الأمل [٤]

وقد رثاه بقصيدة رائية أخرى منها :

(١) الأغانى جـ ١ ص ١٢٩
(٢) هكذا فى الأغانى جـ ١ ص ١٣٩ ولكن الكندى يقول إنه توفى بحلوان
(٣) يروى هذا البيت فى كتاب الولاة للكندى ص ٦٦ منسوبا إلى كثير فى رثاء عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وأبى بكر بن عبد العزيز بن مروان
(٤) الأغانى جـ ١ ص ١٣٩

عرفت وجربت الأمور فما أرى
كماض تلاه الغابر المتأخر
ولكن أهل الفضل من أهل نعمتى
يمرون أسلافا أمامى وأغبر
فإن أبكه أعذر ، وإن أغلب الأسى
بصبر ، فمثلى عندما اشتد يصبر
وكانت ركابى كلما شئت تنتحى
جماحا فتقضى نحبها وهى تضمر
قد عريت بعد ابن ليلى فإنما
ذراها لمن لاقت من الناس منظر
ولو كان حياً لم يزل بدفوفها
مراداً لغربان الطريق ومنقر
فإن تكن قد نلن ابن ليلى فإنه
هو المصطفى من أهله المتخير

وقد أعجب بهذه القصيدة الخليفة عبدالملك بن مروان وكان يطلب من نصيب أن ينشدها أمامه (١) .

ووفد الشاعر عبد الله بن الحجاج (٢) على عبد العزيز بن مروان بمصر ومدحه ، فأجزل عطاه ، وأمر أن يقيم عنده ، ولكن طال مقامه واشتاق إلى ذويه بالكوفة . فاستأذن الأمير فى السفر فلم يأذن له . فاضطر الشاعر إلى أن يعصى أمر الأمير ، فقد غلبه

(١) الأغانى ج ١ ص ١٣٩ (٢) الأغانى ج ١٢ ص ٢٩

الشوق ، فرحل بدون إذن ، فاضطر الأمير عبد العزيز إلى أن يكتب إلى أخيه بشر وإلى العراق أن يمنع عطاء بن الحجاج ، واضطر الشاعر إلى أن يعود إلى مصر مادحا عبد العزيز معتذراً ، فصفح عبد العزيز عنه بعد أن استمع لقصائده التى منها :

تركت ابن ليلى ضلة وجريمة ... وعند ابن ليلى[1] معقل ومعول

سأحكم أمرى إذ بدا لى رشده ... وأختار أهل الخير إن كنت أعقل

وأترك أوطارى وألحق بامرىء ... تحلب كفاه الندى حين يسأل[2]

ثم أمر عبد العزيز أن يطلق عطاء الشاعر وأن يوصل وسمح له أن يقيم أنى شاء .

وجاء مصر الشاعر كثير عزة وتردد عليها مراراً يمدح الأمير عبد العزيز بن مروان ويقال إنه دخل على عبد العزيز يعوده فى مرضه وأهله يتمنون أن يضحك فلما وقف عليه قال «لو أن سرورك لا يتم إلا بأن تسلم وأسقم ، لدعوت ربى أن يصرف ما بك إلى ، ولكنى أسأل الله تعالى لك العافية ولى فى كنفك النعمة ، فضحك عبد العزيز وسر أهله[3] وبينما كثير يتأهب للرحيل من مصر لقيته عزة فى طريقها هى وقومها إلى مصر ، قيل : فحادثها طويلا ثم افترقا فقدمت هى مصر وسافر هو إلى الحجاز على أن يلحق بها بمصر ويحدثنا الحصرى قال : وروى المدائنى ، خرج كثير من الحجاز

(١) كان الأمير عبد العزيز يغتبط إذا ذكر أحد الشعراء اسم والدته (ليلى) فى شعره حتى روى أنه قال « لا أعطى شاعراً شيئا حتى يذكرها فى مدحى لشرفها » (الأغانى جـ ١ ص ١٣١) وكانت من بنى كلب) .

(٢) الأغانى جـ ١٢ ص ٣٠ ... (٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٣٣ .

يريد مصر فلما قرب منها نزل بمنزل فاذا هو بغراب على شجرة بان ينتف ريشه وينعب ، فأسرع الرحيل ومضى لوجهه ، فلقيه رجل من بني نهـــد ، فقال : يا أخا الحجاز مالى أراك كاسف اللون . قال : ما علمت إلا خيراً . قال : فهل رأيت فى طريقك شيئاً أنكرته . قال : لا والله إلافى منزلى هذا فانى رأيت غراباً ينتف ريشه على بانة ينعب قال : أما أنك تطلب حاجة لا تدركهـا . فقدم كثير مصر والناس منصرفون من جنازة عزة فقال :

رأيت غراباً ساقطاً فوق بانة ينتف أعلى ريشه ويطايره
فقلت ولو أنى أشاء زجرته بنفسى للنهدى هل أنت زاجره
فقال غراب لاغراب من النوى وفى البان بين من حبيب تجاوره
فما أعيف النهدى لا در دره وأزجره للطير لا عز ناصره [١]

ثم أتى قبر عزة فأناخ به ساعة ثم رحل وهو يقول :

أقول ونضوى واقف عند رأسها
عليك سـلام الله والعين تسفح
فهـذا فراق الحق لا أن تزيرنى
بلادك فتلاء الذراعين صيدح
وقد كنت أبكى من فراقك حية
وأنت لعمرى اليوم أنأى وأنزح [٢]

وهكذا شاء القدر أن تدفن عزة بمصر ، وأن يبكيها كثير بها ، والرواة يقولون إن شعره تغير بعد موتها ، وسأله أحدهم : ما بال

---

(١) زهر الآداب جـ ٢ ص ١٦٩
(٢) محاضرة المحاضرة للسيوطى جـ ١ ص ٣٢٢

شعرك قد قصرت فيه ؟ فقال : ماتت عزة فلا أطرب وذهب الشباب فلا أعجب ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب ، وإنما الشعر عن هذه الخلال [١] .

وقدم جميل بن معمر إلى عبد العزيز مادحاً ، فأذن له وسمع قصائده وأحسن جائزته ، وسأله عن حبه لبثينة فذكر ولعه بها ، وأمره الوالى أن يقيم معه فى مصر وهيأ له منزلا وأجرى عليه رزقا فما أقام إلا قليلا حتى وافته منيته بمصر سنة اثنتين وثمانين من الهجرة ويقال إنه أنشد وهو يحتضر .

بكر النعى وما كان بجميل ... مثوى بمصر ثواء غير قفول
قومى بثينة فاندبى بعويل ... وابكى خليلك قبل كل خليل [٢]

وكذلك وفد عبيد الله بن قيس الرقيات على مصر ومدح عبد العزيز وشاد بذكر مدينة حلوان التى بناها الأمير واتخذها مسكناً له .

سقياً لحلوان ذى الكروم وما ... صنف من تينه ومن عنبه
نخل مواقير بالفناء من البر ... نى غلب تهتز فى شربه
أسود سكانه الحمام فما ... تنفك غربانه على رطبه [٣]

ومدح عبد العزيز بأشعار كثيرة جداً نجدها فى ديوانه ، من ذلك ماقاله لما خرج عبد العزيز خرجته الثالثة إلى الإسكندرية سنة إحدى وثمانين من الهجرة .

غدوا من مَدْرج الكَرْيَو ... ن حيث سفينهم حزُق
فلما أن علون النيــل ... والرايات تختفق

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٣٧٢ (٢) شرحه
(٣) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٠٩ وديوان قيس الرقيات والكندى ص ٥٠

رأيت الجوهر الحكمى والديباج يأتلق
سفائن غير مُقرفة إلى حلوان تستبق
بحل من يحل به لذيذٌ عيشه غدق
يحل به ابن ليلى والندى والحلم والصدق(١)

ونلاحظ أن الفرزدق لم يكن يحب الوفود على الأمراء ولكنه كان يود أن يفد على مصر وعمل شعراً فى مدح عبد العزيز بن مروان ، وهم الفرزدق أن يزور مصر ولكن جاءه نعى عبدالعزيز فبقى مكانه ولم يأت مصر .

وقد رثى الأمير عبد العزيز بن مروان كثيرمن الشعراء من ذلك ما قاله ذو الشامة محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط يرثى عبدالعزيز وابنه الأصبغ الذى توفى سنةست وثمانين من الهجرة قبل وفاة أبيه بنحو شهرين :

نقول غداة قطعنا الجفار والعين بالدمع مغرورقه
مقال امرىء كاره للفراق تاع البلاد وباع الرقه
أبعد الخليفة عبد العزيز وبعد الأمير كذا وابقه
فما مصر لى بعد عبدالعزيز والأصبغ الخير بالموثقه
سقى الله قبريهما والصدى وما جاورا ديمة مغدقه
فإن تلك مصر أشارت بها إلى الشر يوماً يد موبقه
فقدماً تقر بمصر العيون فى لذة العيش محدودقة (٢)

فأنت ترى كيف استطاع الأمير عبدالعزيز بن مروان أن يجمع

---

(١) ديوان ابن الرقيات ص ٢٣٩

(٢) الكندى ص ٥٦

حوله عددا من الشعراء البارزين ، وأن يجعلهم يتجشمون صعاب الطريق من بلادهم إلى مصر .

وكذلك نقول عن الوالى عبد الله بن عبدالملك بن مروان الذى ولى مصر سنة ست وثمانين ، فقد وفد عليه الحزين الكنانى ، ويكنى سليمان أبا الشعثاء ومدح الوالى بقوله :

الله يعلم أن قد جبت ذا يمن ... ثم العراقين لا يثنيني السأم

ثم الجزيرة أعلاها وأسفلها ... كذاك تسرى على الأهوال بى القدم

ثم المواسم قد أوطأتها زمنا ... وحيث تحلق عند الجمرة اللمم

قالوا دمشق ينبيك الخبير بها ... ثم ائت مصر فثم النائل العمم

لما وقفت عليها فى الجوع ضحى ... وقد تعرضت الحجاب والخدم

حييته بسلام غير مرتفق ... وضجة القوم عند الباب تزدحم

فى كفه خيزران ريحها عبق ... من كف أروع فى عرنينه شمم (١)

لم تعدم القبائل التى قطنت مصر أن يظهر بينهم شعراء وقد هيئت الأسباب التى تدعو إلى وجود الشعراء . تلك هى الفتن التى كانت فى مصر إذ ذاك ، كما كان الحال فى جميع البلاد الإسلامية . من ذلك أن عبد الرحمن بن جحدم ولى مصر من قبل ابن الزبير فلما أن بويع مروان بن الحكم سنة أربع وستين من الهجرة أراد أن ينتزع مصر من الزبيريين فسير ابنه عبدالعزيز إليها فحفر ابن جحدم خندقا حول الفسطاط سنة خمس وستين من الهجرة ، وأرسل جيشا

---

(١) الأغانى ج ١٤ ص ٧٦ وقيل إن هذه القصيدة للحزين فى رثاء عبد العزيز بن مروان . ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فقد قيلت هذه القصيدة فى مصر وكان الحزين بها .

عليه زهير من قيس البلوى إلى إيله ليمنع عبدالعزيزمن المسير ،وسار مروان أيضا إلى مصر ولكن هزم الجيش المصرى وتقدمت جيوش المروانيين [1] ففى هذه الحروب قال بعض عرب مصر شعرا ، ولكن هذا الشعر لم يصلنا منه إلا النزر اليسير من ذلك ما قاله زرعة بن سعد بن أبى زمزمة الحشنى يمدح ابن جحدم

وما الجد إلا مثل جدابن جحدم   وما العزم إلا عزمه يوم خندق
ثلاثون ألفاً هم أثاروا ترابه   وخدوه فى شهر حديث مصدق [2]

وما زال هذا الشاعر ينقم على الأمويين ،حتى كانت ولاية عبدالله ابن عبد الملك بن مروان ، وشاءت الظروف أن ترتفع الأسعار بمصر فتشاءم المصريون بالوالى الجديد ، وخرج الوالى سنة ثمان وثمانين إلى أخيه الوليد فهجاه ابن أبى زمزمة بقوله :

إذا صار عبد الله من مصر خارجاً   فلا رجعت تلك البغال الخوارج
أتى مصر والمكيال واف مغربل   فما سار حتى سار والمد فالج [3]

فغضب عليه الوالى وأهدر دمه فاضطر الشاعر أمام هذا الوعيد إلى أن يهرب من مصر إلى بلاد المغرب حيث كتب إلى الخليفة :

ألا لا تنه عبد الله عنى   كما قد قال يجعلنى نكالا
ولم أشتم لعبد الله عرضاً   ولم آكل لعبدالله مالا [4]

وقيل إن عبد الله طلب الشاعر ابن أبى زمزمة فهرب منه فبلغ الوالى أن عمران بن عبدالرحمن قاضى مصر أوى الشاعر وأن القاضى هجا الوالى بأبيات له منها :

---

(١) الكندى ص ٤١ — ٤٢   (٢) الكندى ص ٤١ — ٤٢
(٣) شرحه ص ٥٩   (٤) شرحه

أنا ابن أبي بدر بهجرة يثرب وهجرة أرض للنجاشي أفخر
أمثلى على سنى وفضل أبوتى نسيت وهذا نجل مروان يذكر (١)

فعزله عبدالله عن القضاء والشرطة سنة تسع وثمانين فقال عمران يهجو عبد الله ويعرض بالقاضى الجديد عبد الواحد بن عبدالرحمن ابن معاوية وكان حدثاً غير أنه كان فقيهاً .

لحى الله قوماً أمروك ألم يروا بأعطافك التخنيث كيف يريب
أتصرفنى جهلا عن الحكم ظالماً ووليته عجزاً فتاة تجيب (٢)
ثكلتك من وال وأيضا ثكلته ألم يك فى الناس الكثير نصيب (٣)

واستمرت الحروب التى كانت بين الزبيريين والأمويين فى مصر طويلا وكانت تعرف هذه الحروب بأيام الخندق أو «التراويح» (٤) لأن أهل مصر كانوا يقاتلون نوباً ، يخرج هؤلاء ثم يرجعون ويخرج غيرهم ، وقتل من المصريين عدد كثير لا سيما من « المعافر » وفى هذه الحروب قال عبد الرحمن بن الحكم وكان مروانيا :

ألا هل أتاها على نأيها نباء التراويح والخندق
بلغنا بفيلق يغشى الظراب بعيد السمو لمن يرتقى
وسدت معافر أفق البلاد برعد جيش لها مبرق
ونادى الكماة ألا فابرزوا لختام حتى ولا نلتقى (٥)

وقام بعض المصريين بالصلح بين المروانيين والمصريين ولكن

(١) الكندى ص ٣٢٨
(٢) أراد بفتاة تجيب القاضى عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التجيبى
(٣) الكندى ص ٣٢٨ (٤) الكندى ص ٤٤ (٥) شرحه

المعافر لم يقبلوا أن يبايعوه ، فقتل من المعافر نحو ثمانين رجلا بينهم الأكدر بن حمام سيد لخم وشيخها فلما علم المصريون ذلك ، لم يبق أحد حتى لبس سلاحه ، واجتمع على باب مروان أكثر من ثلاثين ألفاً فخاف مروان وأغلق بابه ، وكاد المصريون يفتكون به لولم يجره كريب بن أبرهة . وفى رثاء الأكدر قال زياد بن قائد اللخمى :

كما لقيت لخم ما ساءها   بأكدر ، لا يبعدن أكدر
هو السيف جرد من غمده   فلاق المنايا وما يشعر
فلهفى عليك غداة الردى   وقد ضاق وردك والمصدر
وأنت الأسير بلا منعة   وما كان مثلك يستأثر (١)

ونرى شاعراً آخر لا نعرف اسمه يخاطب الخليفة الوليد بن عبد الملك لما عزل أخاه عبد الله بن عبدالملك عن مصر وولى عليها قرة بن شريك سنة ٩٠ هـ .

عجبا ما عجبت حين أتانا   أن قد أمرت قرة بن شريك
وعزلت الفتى المبارك عنا   ثم فيلت فيه رأى أبيك (٢)

كذلك لم يصلنا شعر الشاعر المسور الخولانى وقد كان فى أواخر أيام الأمويين ووصلنا من شعره بيتان من قصيدة يخاطب ابن عم له يحذره من الخليفة مروان بن محمد الذى قتل بعض أشراف مصر لأنهم خلعوه وأرادوا غيره .

فإياك لا تجنى من الشر غلظة   فتودى كحفص أو رجا بن الأشيم (٣)

(١) الكندى ص ٤٦   (٢) الكندى ص ٩٣

(٣) هكذا فى الكندى ص ٩١ ولكن عجز هذا البيت مكسور ولعل الصحيح «أو رجاء بن أشيم» وحفص المذكور هو حفص بن الوليد الذى ولى على مصر مراراً وكان رجاء عامله على الصعيد قتلهما حوثرة الباهلى سنة ١٢٨ هـ

فلا خير فى الدنيا ولا العيش بعدهم   فكيف وقد أضحوا بسفح المقطم

وقال الشاعر مرسل بن حمير يبكى حفصاً وأصحابه :

ياعين لاتبقى من العبرات   جودى على الأحياء والأموات

ياحفص يا كهف العشيرة كلها   يأخا النوال وساتر العورات

إما قتلت فأنت كنت عميدهم   والكهف للأيتام والجارات

أودى رجاء لا كمثل رجائنا   رجل ، وعقبة فارج الكربات

وشبابنا عمرو ، وفهد ذو الندى   وابن السليط وعامر الغارات

قتلوا ولم أسمع بمثل مصابهم   سروات أقوام بنو سروات

ظلت دماؤهم فلم يعرج لهم   بين ولم يطلب لهم بجناة(١)

ولما قدم مروان بن محمد مصر فى شوال سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة وجد أكثر أهل مصر قد سودوا ، فعزم على تعدية النيل فأمر بالدار المذهبة أن تحرق ، وكانت تسمى بالدار البيضاء ، وهى التى بناها مروان بن الحكم حين دخل مصر سنة خمس وستين هجرية ، فبكى شعراء مصر هذه الدار فمن ذلك ماقاله عيسى بن شافع

ياطللا أقوى وحل البلى   منه لدى العلو وفى السفل

قد كنت مغنى لعيون المها   وكنت مأوى لظبى الرمل

وكان أربابك ما إن لهم   فى الناس من نوع ولا شكل(٢)

وكان لبعض الولاة ولع باللهو والمجون وشرب الخمر ، كالوالى قرة بن شريك الذى هدم الجامع العتيق بالفسطاط وأعاد بناءه ، فكان الصناع إذا انصرفوا من البناء دعا قرة بالخمور والزمور والطبول

---

(١) الكندى ص ٩١ — ٩٢   (٢) الكندى ص ٩٥

فيشرب الخمر فى المسجد طول الليل ، وهو يقول لنا « الليل ولهم النهار » [١] وعن هذا الوالى قال السيوطى « كان قرة ظلوماً عسوفاً قيل كان يدعو بالخمر والملاهى فى جامع عمر » [٢] ولقد أغضب هذا الوالى جماعة العرب بمصر ، فقال أحدهم فيه الشعر الذى ذكرناه [٣] ويحدثنا صاحب الأغانى أن الأبجر المغنى كان متصلا بالخليفة الوليد ابن يزيد ، فلما قتل الوليد خرج الأبجر إلى مصر وما زال بها حتى مات [٤] ، ولكننا لا نعلم أنه كان فى خدمة أحد من ولاة مصر وربما اضطره فنه إلى أن يطرب المصريين ويشجيهم .

وقد فقد كل الشعر الغزلى وكل ما أنشد فى وصف حيات اللهو والمجون فى مصر كما فقد غيره من الشعر فى هذا العصر .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٨

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧

(٣) ص ١٢٣

(٤) الأغانى ج ٣ ص ١١٢

الفصل الثانى

من قيام العباسيين إلى دخول ابن طولون

فى دراسة العصر الأموى رأينا أننا لا نكاد نجد فى مصر شعراً اللهم إلا هذه الأبيات القليلة المتناثرة فى كتب الأدب والتاريخ ، وشعر الشعراء الوافدين الذين كانوا يقيمون فى مصر أياماً معدودات على أن يعودوا إلى بلادهم مزودين بعطايا وهبات أمراء مصر . أما فى العصر العباسى فالأمر يختلف باختلاف تطور الحياة فى مصر وتطور الثقافة التى كانت بها . ولذلك قبل أن أتحدث عن حياة الشعر بمصر يجب أن نلم إلماما يسيرا بعدة أمور أرى أن لها أثراً بعيداً فى توجيه الحياة الأدبية فى مصر فى العصر العباسى بل فى انتعاش هذه الحياة الأدبية .

نلاحظ أولا أن العرب الذين وفدوا على مصر فى العصر السابق قد استقروا بها وعاشوا فيها مع المصريين واختلطوا مع المصريين اختلاطا أدى إلى نوع من المزج بين المصريين والعرب الوافدين فنجد فى مصر فى العصر العباسى عنصراً جديداً من السكان هم نتيجة اختلاط العرب بالمصريين أولا وزواج العرب من نساء مصريات ثانيا ودخول كثير من المصريين فى الدين الإسلامى رغبة أو رهبة ثالثا حتى هؤلاء الذين احتفظوا بدينهم من المصريين تأثروا بالعرب كما تأثر العرب بهم وكان نتيجة ذلك كله أن انتشرت اللغة العربية فى مصر انتشاراً عظيما حتى إذا كان القرن الرابع لم يجد البطريق سورس بن المقفع من يعرف اللغة القبطية أو اليونانية

واضطر الى أن يكتب كتابه « سير الآباء البطاركة » باللغة العربية ، نتيجة ثانية هى أننا نجد فى العصر العباسى كثيرا من العلماء المسلمين من أصل قبطى أمثال ابن القطاس سعيد بن زياد وكان من أهل الديانة والفضل وكانت له حلقة فى المسجد يلقى فيها دروس الفقه ، وسعيد بن تليد كاتب القضاء فى عهد لهيعة بن عيسى ، ويحى بن بكير الفقيه المؤرخ وأحد تلاميذ الليث بن سعد ومن أساتذة عبد الرحمن بن عبد الحكم هؤلاء وغيرهم كانوا من أصل غير عربى ولكن حسن بلاؤهم للعربية والإسلام .

ونتيجة ثالثة لهذا المزج أن الآثار الأدبية التى تركها الشعراء والأدباء ظهر فيها روح الشعب المصرى مثل روح الدعابة والفكاهة مما يدل على أن أثر البيئة المصرية كان قويا شديداً على الأدباء والشعراء فى هذا العصر

(٢) نلاحظ ثانيا أننا لا نكاد نجد فى هذا العصر العباسى هجرة قبائل أو بطون عربية إلى مصر كالهجرات التى كانت فى العصور السابقة ، والهجرة الوحيدة التى كانت فى العصر العباسى هى تلك التى كانت سنة ٢٠٠ هـ ، وهى هجرة طائفة كبيرة من الأندلسيين الى الأسكندرية وضواحيها ، وسبب هذه الهجرة هو أن أهالى قرطبة ثاروا على الحكم بن هشام فأمر الخليفة ، بتخريب قرطبة ثم نادى فى الناس بالأمان على أن يهاجروا من المدينة فرحل منهم خمسة عشر ألفا الى افريقية اقام منهم ثمانية آلاف فى المغرب وذهب الباقون الى مصر ، وقال دوزى إن الذين رحلو إلى مصر كانوا خمسة

عشر الفا خلا النساء والأطفال فلما وصلوا الأسكندرية اعترضهم أهلها ومنعوهم من دخول المدينة فمكثوا فى سفنهم حتى أتيحت لهم الفرصة فغلبوا الوالى ودخلوا المدينة وظلوا بها حتى قدم عبد الله بن طاهر حوالى سنة ٢١١ فلما رأى شرهم حاربهم ثم اتفق معهم على الجلاء عن الأسكندرية فرحلوا عنها الى جزيرة كريت وظلوا يحكمونها حتى سنة ٣١٥ هـ (٩٦١ م) إذ انتزعها منهم الأمبراطور ارمانوس

هذه هى الهجرة الوحيدة التى ذكرها لنا المؤرخون وقد كان لهؤلاء الأندلسيين تأثير كبير فى الثورات التى حدثت فى هذه السنوات القليلة التى مكثوها بالأسكندرية ولا سيما فى ثورة الجروى التى سنتحدث عنها بعد ذلك ، وفى هذه الثورات أنشد شعراء مصر أشعاراً كثيرة ذكروا فيها وقائعهم وحوادثهم .

(٣) ومن ناحية ثالثة : كانت مصر طوال العصر العباسى مرجلا يغلى بالفتن والثورات وكان الحكم فى مصر مضطربا اضطرابا شديدا فالولاة كانوا يعزلون بعد عام أو بعد بضع عام وجرى خلفاء العباسيين على سنة تغيير الولاة فى مصر فلم يتمكن الولاة من إصلاح البلاد الداخلية ، وانتهز بعض الولاة فرصة ولايته فارتشى فى أحكامه وشدد الحكم على المصريين ، فثار المصريون جميعا سواء أكانوا من العرب أو من الأقباط ، وكان لهذه الثورات أثر قوى فى ايقاظ روح الشعر فى مصر فجرى الشعر على السن الشعراء متحدثين بما كان فى البلاد من حوادث حتى أن أكثر ماحفظ لنا من شعر هذا العصر انما كان يتحدث عن هذه الثورات .

(٤) نلاحظ بعد ذلك تطورا عظيما فى الدراسات التى كانت

بمصر فى العصر العباسى . فقد عرفنا أن أكثر الدراسات التى كانت فى العصر الاموى كانت دراسات دينية من قراءات وتفسير ورواية الحديث أو دراسات تتصل بالدين كالتاريخ الذى كان يقصد منه أولا تفسير الآيات التاريخية فى القرآن . ولم نعرف طوال العصر الأموى اهتمام المصريين بالعلوم العربية الخالصة كرواية الشعر وعلوم اللغة والنحو الى غير ذلك ولكن فى العصر العباسى نجد أكثر العلماء يهتمون بالعلوم العربية الخالصة اهتماما كبيرا بجانب اهتمامهم بالعلوم الدينية فالليث بن سعد فقيه مصر كان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر . وابن الوزير التجيبى كان محدثا فقيها وكان عالما بالشعر والأدب، وعبدالحميد بن الوليد المصرى المتوفى سنة ٢٢١ﻫ كان عالما بالأخبار والنحو ، والشاعر المصرى الحسين بن عبدالسلام المعروف بالجمل الأكبر عرف عنه شدة اتصاله بالإمام الشافعى وكان أحد رواته . والشاعر سعيد بن عفير كان مؤرخا ومحدثا وشاعرا وأديبا واماما فى اللغة والنحو حتى قيل إن مصر لم تخرج أجمع من للعلوم منه وكان الوالى عبدالله بن طاهر يقول عنه «رأيت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء النيل والهرمين وابن عفير» . ولما وفد على مصر عبد الملك بن هشام صاحب السيرة وكان إماما فى اللغة والنحو اجتمع بالإمام الشافعى وتناشدا كثيرا من أشعار العرب وروى عنهما المصريون الشعر ، ووفد أبو نواس على مصر فلما علم المصريون بوجوده هرعوا إليه واجتمعوا حوله فأملاهم أشعاره . من هذه الأمثلة نستطيع أن ندرك هذا التطور الذى حدث فى الثقافة فى مصر

وكيف اهتم المصريون فى هذا العصر بالدراسات الأدبية اهتماماً كبيراً كان له أثر واضح فى رقى الحياة الأدبية فى مصر .

وكما وفد الشعراء على أمراء مصر فى العصر الأموى كذلك نجد كثيرا من الشعراء العباسيين المعروفين يفدون على مصر فأبو نواس وفد على الخصيب ، ودعبل الخزاعى وابراهيم بن العباس بن الأحنف وفدا على المطلب الخزاعى ، والبطين الحمامى دخل مصر مع عبد الله بن طاهر ، وقال ابن منظور إن ديك الجن جاء مصر ووجد لأبى نواس أشعاراً تروى فى مصر لايعرفها أهل العراق ، ووفد ابن المولى وربيعة الرقى على يزيد بن حاتم ، وجاء أبو تمام الى مصر وهو صغير وتلقى كثيرا من الدراسات الأدبية فيها وفى مصر أنشد الشعر بل ذهب بعض المؤرخين إلى ان أبا تمام أنشد أول شعره بمصر حتى ذهب الكندى وابن زولاق والسيوطى الى أن أباتمام مصرى وقالوا إنه شاعر مصر الأكبر .

من هذه العجالة نستطيع أن ندرك أن الحياة الأدبية فى مصر فى العصر العباسى كانت مزدهرة وأن الدراسات الأدبية كانت منتشرة ومع ذلك كله لانجد بين شعراء مصر شاعرا بلغ الى درجة فحول الشعراء الذين عرفتهم الأقطار الاسلامية الأخرى وتعليل ذلك عندى أن الرواة ومؤرخى الآداب لم يهتموا بمصر فلم يحفظوا شعر المصريين ولهذا السبب لم تصلنا قصائد كاملة من شعراء مصر فى هذا العصر العباسى وأخشى أن أقول إن المصريين تنقصهم العصبية ، فقد رأيناهم لايهتمون بإمام مصر الليث بن

سعد وفضلوا مذهب مالك والشافعى وهما من الغرباء ، فالغريب عند المصريين أكرم لديهم من اخوانهم ، ومن ناحية أخرى من الطبيعى أن يتأخر الإنتاج الأدبى فى مصر عن نظيره فى العراق والشام ، فمنذ الجاهلية كانت العراق والشام تعدان من بلاد العرب وما الغساسنة والمناذرة إلا من العرب ومنذ الجاهلية كانت القبائل العربية تسكن بلاد الشام والعراق ، أما مصر فلم تكن علاقتها بالعرب بهذه القوة ، ولم تفد عليها قبائل عربية كثيرة إلا بعد الفتح ، فضعف الانتاج الأدبى بمصر بينما قوى الانتاج الدينى والتاريخى لأن النبوغ فى الثقافة الدينية أسهل من النبوغ فى الأدب ، ولأن الذين أسلموا من المصريين ليس من السهل عليهم أن ينبغوا فى الأدب بينما من السهل أن ينبغوا فى العلم ، وأكثر من هذا أن التحمس الدينى فى هذا العصر كان أقوى من التحمس للأدب ، لذلك كله لانجد شاعرا مصريا بلغ مرتبة الفحول .

ومهما يكن من شىء فإن الشعر الذى وصلنا فى هذا العصر يعطينا صورة لما كانت عليه الحالة فى مصر السياسية والاجتماعية والأدبية ، ثم تدلنا على أن الشعر المصرى ابتدأ ينمو ويقوى ويتأثر بالبيئة المصرية الخالصة ، ويعبر عما كان بمصر من اتجاهات وخواطر مختلفة وألوان الثقافات المتعددة ، وضروب الحركات السياسية وغير السياسية ، وليس أدل على ذلك من هذه الأشعار التى قيلت فى الاضطرابات العديدة التى كانت فى مصر فى ذلك العصر .

أثر الفتن فى الشعر

نستطيع أن نقسم الفتن التى كانت بمصر فى هذا العصر إلى :

١ — ثورات سياسية ـ إن صح هذا التعبير ـ كان يقوم بها

قبائل العرب ضد الولاة والأمراء لجور أحكامهم ، وسوء سياستهم من ذلك ما كان فى ولاية موسى بن مصعب الخثعمى الذى ولى فى أواخر سنة سبع وستين ومائة من الهجرة ، فقد تشدد الوالى فى جمع الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولا ، وجعل خراجا على أهل الأسواق وعلى الدواب ، وعاد إلى الرشوة فى الأحكام ، فأظهر الجند كراهته ، ولم يستطع عماله أن يدخلوا الحوف وتحالف القيسية واليمنية على قتاله ، واتفق أهل الحوف أيضا مع جند الفسطاط على الثورة ضد هذا الوالى ، فخرج موسى مع جنده لقتال الثائرين فانهزم جند الفسطاط عنه وقتل الوالى سنة ثمان وستين ومائة من الهجرة بعد عشرة أشهر من ولايته ، هذا الحادث كان له أثر فى الشعر ، إذ أنشد الشعراء فى ذلك مترنمين بانتصار أهل الحوف من ذلك ما قاله سعيد بن عفير :

ألم ترهم ألوت بموسى سيوفهم وكانت سيوفا لا تدين لمترف
فما برحت به تعود وتبتدى إلى أن تروى من حمام مدنف
فأصبح من مصر وما كان قد حوى بمصر من الدنيا سليبا بنفنف
ولكن أهل الحوف لله فيهم ذخائر إن لا ينفد الدهر تعرف[١]

وفى ولاية الحسين بن جميل امتنع أهل الحوف من أداء الخراج سنة إحدى وتسعين ومائة من الهجرة ، وخرج أبو الندى مولى « بلى » فى نحو ألف رجل يقطع الطريق وأغار على بعض قرى الشام وساعده فى ذلك رجل من جذام يقال له المنذر بن عابس وآخر يدعى سلام النوى ، فكثر فسادهم ، وأوقعوا الرعب فى نفوس

(١) الولاة للكندى ص ١٢٧

المصريين جميعاً ، فبعث هارون الرشيد بقائده يحيي بن معاذ لقمع هذه الحركة ولإخضاع أهل الحوف ، فتم ليحيي ذلك وقدم الفسطاط ومعه أبو الندى وابن عابس فمدح الشعراء القائد يحيي فمن ذلك ماقاله أبو عثمان السكرى :

ياقيس عيلان إنى ناصح لكم	أدوا الخراج وخافوا القتل والحربا
إنى أحـــذركم يحيي وصولته	فما رأيت له تقياً إذا غضبا

وقال أيضاً :

قد جبينا قيساً ولم تك تجبي	فقتلنا أبا الندى وابن عابس
وتركنا لخماً وحي جذام	لايطيقون رفع كف تلامس
آمن الله بالمبارك يحيي	حوف مصر إلى دمشق فبالس
وأباد الخلاع من كل أرض	بعد ما حاد عنهم كل فارس [١]

وقد يطول بنا الحديث عن هذه الثورات الكثيرة التى كان يقوم بها عرب مصر ضد الولاة والحكام ، ولكن أرى أن ألم بثورة الجروى التى شغلت ولاة مصر والخلافة العباسية مدة طويلة [٢] ، فقد كان عبد العزيز بن الوزير الجروى صاحب الشرطة بمصر فى ولاية المطلب الخزاعى سنة ثمان وتسعين ومائة من الهجرة وعزل بعد قليل ، وبعث على رأس الجش لمحاربة أهل الحوف ، ثم أعيد إلى الشرطة سنة تسع وتسعين ومائة فى ولاية العباس بن موسى ، ولكن الجند ثاروا ، وأجمعوا على تولية المطلب الخزاعى مرة أخرى

(١) الكندى ص ١٤٥

(٢) تجد ثورة الجروى فى الكندى ص ١٥٥ يوما بعدها .

فاضطر الجروى إلى الهروب إلى تنيس ، فلما تم الأمر للمطلب وأطاعه وجوه أهل الحوف ، أرسل إلى الجروى بعقده على تنيس وأمره بالحضور إلى الفسطاط ، فامتنع الجروى فبعث المطلب بوال آخر على تنيس ، فلم يستطيع دخولها ، وسار الجروى لمحاربة السرى ابن الحكم الذى أرسله الوالى لحرب الجروى ، فأسر السرى وسجن وتوالت جيوش الوالى لحرب الجروى فكانت تهزم الواحدة تلو الأخرى ، وجد الوالى فى أمر الجروى فاخرج الجروى السرى بن الحكم من السجن بعد أن تعاهدا على أن يخلعا الوالى ويخلفه السرى وبعد حروب طويلة ، أرسل الوالى فى طلب الأمان من السرى على أن يسلم إليه الأمر ويخرج عن مصر ، وقد تم ذلك وخرج المطلب الخزاعى إلى مكة وفى هذا أشار دعبل الخزاعى بقوله :

فكيف رأيت سيوف الجريش ووقعة مولى بنى ضبة (١)
أحجتك أسيافهم كارها وما لك فى الحج من رغبة

وتم أمر مصر إلى السرى فى رمضان سنة مائتين من الهجرة ، فطلب الوالى إلى الجروى أن يذهب لتأديب لخم بالإسكندرية ، وكاد الجروى يفتح حصنها فخشى السرى أن يملكها الجروى ، فأوعز إلى أحد رجاله أن يخالف الجروى ، فاضطر الجروى إلى أن يرجع إلى تنيس سنة إحدى ومائتين وفسد ما بينه وبين السرى وفى ذلك قال سعيد بن غفير :

ألا من مبلغ الجروى عنى مغلغلة يعاتب أو يلوم

(١) مولى بنى ضبة هو السرى بن الحكم

أقمت تنازل الأبطال حتى ... تميز ذو الحفيظة والسؤوم
وصلت بهم فما وهنت قواهم ... وطير الموت دائرة تحوم
ولو هجمت جموعك حين حاوا ... عليهم باد جمعهم المقيم
وكيف رأيت دائرة التوانى ... أتتك بصحو نحس لايقيم
أتاك وقد أمنت ونمت كيداً ... لصل لاينام ولا ينيم

ثم ولى سليمان بن غالب مصر فى ربيع الأول سنة إحدى ومائتين فحاربه السرى بن الحكم ، ولكن هزم السرى وأسر هو وابنه ميمون وسجنا فى إخميم واستقام الأمر لسليمان فقال المعلى الطائى فى ذلك :

إذا شن فى أرض سليمان غارة ... أثار بها نقعاً كثير المصائب
ألم تر مصرا كيف داوى سقيمها ... على حين دانت للعدو المناصب
حماها ولولا ماتقلد أصبحت ... حبيساً على حكم القنا والمقانب

ولكن أعيد السرى مرة أخرى للولاية ، وهرب سليمان إلى الجروى ، وانتقم السرى من كل أعدائه فأخذ يقتلهم ويصلبهم ، حتى قامت فتنة ابراهيم بن المهدى ببغداد ، واتصل إبراهيم بالجند فى مصر وأمرهم بخلع المأمون ، والوثوب بالسرى ، فلبى دعوته جمع من المصريين منهم الحارث بن زرعة بالفسطاط والجروى بالوجه البحرى وسلامة الطحاوى بالصعيد وعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدى ، فحاربوا السرى ، وملك الجروى الاسكندرية ، وأخرج الطحاوى عمال السرى من الصعيد ، وسار الجروى حتى التقى بجيش السرى بشطنوف فهزم السرى سنة ثلاث ومائتين وقتل ابنه ميمون بن السرى فرثاه معلى الطائى بقوله :

لو رد غرب منية بشجاعة   أحد لدافع ركنها ميمون
لو كان تجريد السيوف يردها   لحماه منها منصل ويمين
مازلت أطمع في رجوعك سالما   ويروعني شفقا عليك ظنون
فليفجعن غدا بقتلك طاهر (١)   وليفجعن بقتلك المأمون

وقال أبو نجاد الحارثى فى ذكر هذه الحروب :

جمع رعاعك يا سرى فإنها   حرب تحس سعيرها قحطان
قتلوا أبا حسن وجروا شلوه   كالكلب جر بشلوه الصبيان
ولت تجيب وأسلمته جيادها   عيلان يوم تواكلت عيلان
فاستخرجوه ملبياً فأتى به   يجرى ويهرج حوله السودان
أبشر فإن أفول نجمك بعده   عرض السماء ونجمك الدبران
لا تبك فالعقبى لاخوته غداً   أو بعده فكما تدين تدان

وأشرف الجروى على الفسطاط وأراد أن يحرقها فخرج إليه الفقهاء وسألوه الكف عن ذلك فانصرف عنها ، ثم علم أن أهل الإسكندرية أخرجوا عامله ، ودعوا للسرى ،فسار إليهم فى رمضان سنة وثلاث ومائتين ، وثار القبط بسخا فهزمهم الجروى فمدحه المعلى الطائى يخاطب الخليفة المأمون .

فقل لأمير المؤمنين نصيحة   وما حاضر شيئا كآخر غائب
لقد حاطنا عبد العزيز بسيفه   ولولاه كنا بين قتل وناهب

وسار الجروى إلى الأسكندرية فقتل فى سنة خمس ومائتين واستطاع السرى أن يهزم سلامة الطحاوى الثائر بالصعيد ، وفى ذلك قال المعلى

(١) هو طاهر بن الحسين قائد المأمون

أراد الطحاوى التى لا شوى لها فأوقد نارا كان بالنار صاليا
ودب لأقطار البلاد بفتنة فجاشت بسقم لايجيب المداويا
وراسله من كان يحق بفاقة وأصبح ذاميل إليه ممـاليا
جنت مااستحق القتل ياصاح كفه وكل امرىء يجزى بما كان جانيا

وتوفى السرى بالفسطاط بعد قتل الجروى بثلاثه أشهر وولى بعده ابنه أبو النصر بن السرى ، وكان على بن عبدالعزيز الجروى قدخلف أباه ، فأرسل ابن السرى جيشا لمحاربة ابن الجروى ولـكن هزم هذا الجيش ، واكتفى ابن الجروى بذلك فلم يتبع الجيش المنهزم ، وحنق بعض المصريين عليه لذلك وظهر هذا فى قول سعيد بن عفير يخاطب ابن الجروى .

ألا من مبلغ عنى عليـا رسالة من يلوك على الركوك
علام حبست جمعك مستكفا «بشطينوف» فى ضنك ضنيك
وقد سنحت لك الغفران ممن رماك بجيشه الوهن الوكيك
أمن بقيا فلا بقيا لمن لا يراها عنـــد فرصته عليك

وفى سنة سبع ومائتين أرسل المأمون خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى واليا على مصر فامتنع ابن السرى من تسليمها وحاربه ، فانضم ابن الجروى إلى جيش خالد ، واستمر القتال مدة طويلة ، فمل الجيشان الحرب ، وحدث أن ارتفع النيل فى هذا الوقت فسار خالد إلى الحوف ، فلما رأى ابن الجروى ذلك أراد أن يخرج خالد بن يزيد عن ملكه ، فمكر به حتى أنزله «نهيا» ، وهناك تركه ابن الجروى فى جهد وصفه المعلى بقوله :

سلا خالدا لما انجلى عنه شكه وأسلمه فى عدوة البحر خاذله
فزالت أمانيه غداة سما لنا بعارض جيش يمطر الموت وابله

فلما انكشف النيل سار ابن السرى إلى خالد وحاربه فأسر خالد وفى ذلك قال المعلى :

ألا لا أرى خيلا أضر له الوغى وأجبن فى الهيجاء من خيل خالد
وقواده أشرار كل قبيلة تمالوا على إسلامه فى الشدائد
فما أسروا منه جبانا معضدا ولكن أبا شبلين عبل السواعد
فان يقتلوه يقتلوا منه سيداً شجاعا جوادا ماجدا وابن ماجد
وإن كففوا عن قتله فهى منة لآل سرى فى مناط القلائد

ولما رأى المأمون هذه الثورات والفتن قسم مصر بين ابن السرى وابن الجروى فولى كل واحد منهما مافى يديه ، فأقبل ابن الجروى على جمع الخراج فقاومه قوم من أهل الحوف وكتبوا إلى ابن السرى يستعدونه على ابن الجروى ، فتقابل الجيشان فى « بلقين » واستمر القتال طويلا حتى اضطر ابن الجروى إلى أن يفر إلى دمياط وفى ذلك قال المعلى :

ألا هل أتى أهل العراقين وقعة لنا بحمى بلقين شيبت الولدا
وما كان منا قتلهم عن جهالة خطاء ولكنا قتلناهم عمدا
ولما تبينت المنية فى القنا نكصت تناد حين ضل النداسعدا
فوليت على ربع المحلة هاربا على أبله مايركب الجور والقصدا
فكيف رأيت الله أنزل نصره علينا وولاك المذلة والطردا
سنهدى إلى المأمون منا نصائحا نضمنها طى الصحائف والبردا

بفعل علي والذي كان مجمعاً عليه بإظهار الخلاف الذي أبدا

وسار ابن السري إلى تنيس ودمياط واضطر ابن الجروي إلى أن يهرب إلى الفرما والعريش فخاطبه سعيد بن عفير بقوله .

ألا ياعلي بن عبدالعزيز إلى أين صرت تريد الفرارا
فلست بأول من كاده عدو فكر عليه اعتكارا
وأجر مصيرك أن يسحبوا إليك فتوحا عظاما كبارا
فتدرك ثأرك من أهله وتلبس بعدالكبو الفسارا [1]

فلما سمع ذلك ابن الجروي أغار على الفرما سنة تسع ومائتين وهرب أصحاب ابن السري من تنيس ودمياط . وسار ابن الجروي حتى قابل جيش ابن السري بشطنوف فهزم ابن الجروي ولحق بالعريش فمدح المعلى الطائي ابن السري بقوله :

ألم تر خيله صبحت عليا تدف على مناسجها النساعا
فولى عن عساكره وخلى على الأسل المدائن والرباعا
ولكن فات فوق أقب نهد كرجع الطرف لايخشى اصطلاعا
فحسبك أن قومك من جذام وسعد لاترى لهم اجتماعا
دعتهم طاعة لك فاستجابوا ومن عجب لمثلك أن يطاعا

وعاد ابن الجروي مرة أخرى سنة عشر ومائتين فملك تنيس ودمياط وهزم جيش ابن السري ، ولم تهدأ هذه الفتن حتى دخل عبدالله بن طاهر مصر سنة إحدى عشرة ومائتين وأخذها من ابن السري ، كما خضع له ابن الجروي .

* * *

(١) الفسار معرب كلمة فارسية (أفسر) بمعنى التاج

وقامت فى مصر فتن أخرى من أجل السلطان بين الأمويين والعباسيين . ويحدثنا ياقوت أنه فى أيام المهدى خرج دحية الأموى بمصر ودعا لنفسه واستمر فى دعوته إلى أيام الهادى وكانت الدولة ترسل إليه الجيوش فلم تستطع قهره وكانت نعم أم ولد دحية تقاتل فى طليعة الجيش لاسيما فى واقعة بويط وفى هذا قال شاعرهم :

فلا ترجعى يا نعم عن جيش ظالم ... يقود جيوش الظالمين ويجنب
وكرى بناطر داً على كل سائح ... إلينا منايا الكافرين تقرب
كيوم لنا لازلت أذكر يومنا ... بفاو ويوم فى بويط عصبصب
ويوم بأعلى الدير كانت نحوسه ... على فئة الفضل بن صالح تنعب[1]

فهذه أشعار قيلت فى حروب بين جيش الثائرين وجيوش الخليفة ولو لم تحفظ هذه الأشعار ما كنا نعلم شيئا عن هذه الوقائع فإن كتب التاريخ التى وصلتنا لم تذكر تفاصيل هذه الحروب بل أغفلتها ولكن الشعراء يفخرون دائما بما يحرزه أهلهم من نصر فيسجلون الوقائع فى شعارهم .

ونلاحظ أن الشاعر استعمل فى الأبيات السابقة كلمة أيام التى كان يستعملها العرب منذ الجاهلية .

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن الحوادث السياسية المصرية ، والحروب الداخلية التى كانت فى هذا العصر ، قد أثرت فى الأدب أثرا كبيرا ، فقد اضطر الشعراء إلى أن يسجلوا هذه الحروب ، وأن يدافعوا عن المتحاربين ، ولكن أكثر هذا الشعر فقد ولو قدر لهذا الشعر البقاء لكان أصدق مرآة لهذه الحوادث الكثيرة المضطربة ، ولكن الذى وصلنا منه قدر يسير ، يعطينا صورة مصغرة مشوهة لهذه الحوادث

---

(١) معجم البلدان جـ ٢ ص ٢١١ طبع مطبعة السعادة سنة ١٩٠٦ م

ب — فتنة العصبية العربية :

ولعل أصدق صورة لعصبية القبائل فى مصر هى هذه الحادثة التى ظهرت فيها العادات الجاهلية القديمة بأجلى مظاهرها . تلك هى حادثة « فرس مراد » المعروفة « بقضية جناح والزعفران » ، ذلك أن عشيرة « مراد » كان لهم فرس يفخرون بها ويسمونها الزعفران ، فأخرجت الفرس يوم الرهان ، كما أخرجت عشيرة « يحصب » فرسا لهم تسمى الجناح ، وجعل كل فريق لصاحبه الفرس المسبوق ، وجعلوا للسباق غايته ، فخرج الطائفتان ومعهم عامة أهل مصر ، فكان السابق فرس مراد فى أول الأمر حتى كادت تدخل الغاية ، فخرج كمين من يحصب وضرب وجه الزعفران فتحيرت الفرس ، فسبقتها الجناح إلى دخول الغاية . ساء مرادا ذلك واستلوا سيوفهم واقتتل الطائفتان قتالا عنيفا حتى اضطر الأمير ليث بن فضل إلى أن يخرج إليهم ويحجز بينهم وأحال أمرهم إلى القاضى عبد الرحمن العمرى الذى ولى سنة ١٨٥ ه وقد عرف هذا القاضى بحبه للمال وأخذه الرشوة ؛ فأتت يحصب بأموال عظيمة إلى القاضى ، فحكم لهم بالفرس ودفع إليهم الزعفران ولكن استمر النزاع حتى ولى القضاء القاضى البكرى الذى ولى سنة ١٩٤ ه فرد الفرس إلى مراد . هذا الحادث يذكرنا بصورة لها فى أيام الجاهليين هى قصة داحس والغبراء ، وكما كثر شعر الجاهليين فى قصتهم أنشد المصريون شعرا فى قصتهم ولاسيما أن القاضى العمرى كان مكروها من المصريين ، ونقم عليه الشعراء فأخذوا هذا الحادث وسيلة إلى هجائه ، فمن ذلك قول يحيى الخولانى [1] .

---

(١) الكندى ص ٤٠٢ وما بعدها .

إن كان مهر أخى زوف أفات به ريب الزمان عليه جور زنديق
فكم يد لبنى زوف وإخوتهم فى آل فهر تغص الشيخ بالريق
إن حاكم عمرى جار فى فرس فسوف يرجعه عدل ابن صديق

ومن الطبيعى أن نجد شعراء آخرين دافعوا عن القاضى العمرى فى هذه القضية ، فمن ذلك قول عبد الله بن بحيرة من ولد معاوية بن حديج يرد على الشاعر يحى الخولانى :

طلبت فما نلت حسن الطلب ورمت عظيما ولما تصب
وعولت موتا على رميهم بقوس الضلال ونبل الكذب
فإن كان فى فرس عتبكم فعندى لكم فرس من قصب
وإلا فهو كريم النجار قليل العظام كثير العصب

فأجابه يحى :

ألا أيها الشاعر المنتدب يحامى عن العمرى العطب
ورامى مراد وخولانها بنبل الجهل غير الصيب
لعمرك ما أنقص العمرى من الناس إلا كريم الحسب
ملا الأرض جوراً بأحكامه وأظهر فيها جميع الريب

* * *

ومن العصبية القبلية أيضا فخر الحضارمة إذا ولى أحدهم ففى سنة تسع وتسعين ومائة ولى القضاء لهيعة بن عيسى الحضرمى فقال شاعرهم

لقد ولى القضاء بكل أرض من الغر الحضارمة الكرام
رجال ليس مثلهم رجال من الصيد الجحاجحة الضخام (١)

---

(١) الكندى ص ٤٢٦

وقال يزيد بن مقسم الصدفى

ياحضرموت هنيئاماخصصت به   من الحكومة بين العجم والعرب
فى الجاهليـــة والإسلام يعرفه   أهل الرواية والتفتيش والطلب

ح — فتن بين العرب والمصريين :

ولون آخر من ألوان العصبية العربية هو سمو العرب بأنفسهم وتعاليهم على غيرهم من الشعوب ، حتى على من أسلم من هذه الشعوب ، فقد كون العرب فى مصر طبقة ارستقراطية — إن صح هذا التعبير — لم تقبل ان يسمو إليها المصريون، ولذا كانت العلاقات بين العرب والمصريين سيئة فى العصر العباسى وقام القبط بثورات عنيفة ابتغاء طلب المساواة بالعرب ولكن هؤلاء استطاعوا ان يخمدوا الثورات المتوالية ، ونلمح من الاشعار التى وصلتنا عن هذه الاضطرابات كيف كان العرب يترفعون على المصريين ، حتى اضطر من أسلم منهم إلى أن يتخذ لنفسه نسباً عربياً حتى يتساوى بالعرب ، ولكن عرب مصر رفضوا أن ينتسب غير عربى إليهم ، ولعل قضية أهل الحرس تبين علاقة العرب بالمصريين ذلك أن جماعة من القبط أسلموا وعرفوا بأهل الحرس ، تحرش العرب بهؤلاء القوم وآذوهم فجمع أهل الحرس من بينهم نقوداً دفعوها إلى القاضى العمرى ليثبت لهم نسباً عربياً ، وخرج بعضهم إلى الرشيد ببغداد يدعون له نسباً ، كما أتوا بجمع من أعراب الحوف الشرقى وبعض أعراب الشام ورشوهم بالمال فشهدوا أمام القاضى أن أهل الحرس من العرب وأن نسبتهم إلى بنى حوتكة (من قضاعة) فقبل القاضى شهادتهم إلا شهادة حوى بن حوى بن

معاذ العذرى ، وسجل لهم نسباً بذلك فثار عرب مصر ، وقام الشعراء يهجون القاضى وأهل الحرس ، من ذلك قول يحيى الخولانى فى هجاء حوى :

يا ليت أم حوى لم تلد ذكراً   أو ليت أن حوياً كان ذا خرس
كسا قضاعة عاراً فى شهادته   لله در حوى شاهد الحرس
شهادة رجعت لونها قبلت   لألحق الزور منها العير بالفرس

وقول يحيى الخولانى أيضاً :

ومن أعجب الأشياء أن عصابة   من القبط فينا أصبحوا قد تعربوا
وقالوا أبونا حوتك ، وأبوهم   من القبط علج حبله يتذبذب
وجاءوا بأجلاف من الحوف فادعوا
بأنهم منهم سفاهاً وأجلبوا
ألا لعن الرحمن من كان راضياً
بهم رغما ما دامت الشمس تغرب[1]

وقال معلى بن المعلى الطائى فى هجاء القاضى العمرى :

كم كم تطول فى قرانك   والجور يضحك من صلاتك
تقضى نهارك بالهوى   وتبيت بين مغنياتك
فاشرب على صرف الزما   ن بما ارتشيت من الحواتك
إن كنت قد ألحقتهم   عرباً فزوجهم بناتك
وليكشفن بما أتيت   صدور قوم عن مساتك
وكأننى بمنيسة   تسعى إليك بكف فاتك

---

(١) الكندى ص ٣٩٩

أفقرته من ماله بقضية أو لم يؤاتك
لا تعجلن أبا الندى حتى تصير إلى وفاتك
إن المقامع تطلقن من الجحيم إلى مماتك
بل لو ملكت لسان أكـثم ما وصلت إلى صفاتك [١]

ونلاحظ أن الشاعر هنا كنى القاضي بأبي الندى وهي كنية اللص الذي ظهر سنة أحدى وتسعين ومائة ، وثم تراه قتهكم بالقاضي إذ دعاه أن يزوج أهل الحرس من بناته ، وهو حكم وضعي سار عليه المسلمون حتى أصبح من الأحكام الفقهية ذلك أن المولى لا يتزوج عربية ، وبعد أن عزل القاضي العمري أرسل عرب مصر وفداً الى الخليفة الامين فذكروا له ما فعل العمري بأهل الحرس فكتب الأمين الى القاضي البكري يأمره أن لا يمنح أحدا من غير العرب اللحاق بالعرب ، وأن يرد أهل الحرس إلى ما كانوا عليه من أنسابهم ، فأمر البكري أهل الحرس باقامة البينة ، وجمع بعض أهل القناعة والعدالة من مصر فشهدوا أن أهل الحرس من القبط الذين أسلموا ، فردهم القاضي إلى اصلهم ومزق سجلهم ، ففرح عرب مصر بذلك وقال معلى الطائي :

يابني البظراء موتوا كمداً واسخنوا عيناً بتخريق السجل
لو أراد الله أن يجعلكم من بني العباس طرا لفعل
لكن الرحمن قد صيركم قبط مصر من القبط سفل
كيف ياقبط تكونوا عربا ومريس أصلكم شر الجيل

وقال أبو رجب العلاء بن عاصم الخولاني

---

(١) الكندي ص ٤٠١

ولقد قمعت بنى الخبائث عندما ... راموا العلا وتحوتكوا وتعربوا
فرددتهم قبطا إلى آبائهم ... ونسبت أصلهم الذى قد غيبوا
وتركتهم مثلا لكل ملصق ... نسباً إذا التقت المحافل يضرب

وقال يحى الخولانى .

اشكروا الله على إحسانه ... فله الحمد كثيراً والرغب
رجع القبط إلى أصلهم ... بعد خزى طوقوه وتعب
ودنانير رشوها قاضيا ... جائرا قد كان فينا يغتصب
أخذ الأموال منهم خدعة ... وتولى عنهم ثم هرب
أبلغ البكرى عنى أنه ... عادل فى الحكم فراج الكرب(١)

كانت روح العصبية العربية ظاهرة واضحة أيام الامويين والعباسيين مما جعل القبط يثورون ، وكان أشد هذه الثورات أيام المأمون ، إذ اضطر الخليفة نفسه إلى أن يحضر إلى مصر ، وأن يقمع هذه الفتن بشدة وحزم فلم يقم بعدها للمصريين قائمة ، ثم أن العرب وجدوا أنفسهم فى عهد المعتصم محرومين مما كان لهم من مزايا فخمدت روح العصبية وصار العرب كالمصريين سواء بسواء ، وبالرغم من أن بعض العلماء عطفوا على من أسلم من المصريين وعاملوهم كالعرب فولوا بعضهم الأعمال الهامة فى الدولة ، ولكن هذا لم يرض جمهور العرب فسخطوا ، من ذلك ماروى أن بعض من أسلم من القبط وجد عطفا من القاضى لهيعة بن عيسى ، الذى ولى

---

(١) راجع قضية أهل الحرس بكتاب الولاة والقضاة للكندى ص٣٩٧ — ٣٩٩ وءن ص ٤١٣ — ٤١٥

قضاء مصر مرتين فى عهد المأمون ، فقد فسح هذا القاضى مجلسه للمصريين ، وألان جانبه لهم وألحق طائفة منهم فى أعمال الدولة ، فأسند كتابة القضاء إلى سعيد بن تليد — وكانت كتابة القضاء فى ذلك العهد من أسمى ما يصبو إليه الفقهاء — كما اتخذ شهوداً جعلهم بطانته منهم معاوية الأسوانى وسليمان بن برد وغيرهما فى نحو من ثلاثين رجلا فتقول العرب فى القاضى مع علمهم بعلمه ودينه وسمو منزلته ، وقد ظهر أقوال المصريين فى أشعارهم من ذلك ما قاله الشاعر أبو شبيب أنيس بن دارم .

قبح الله زماناً راس فيه ابن تليد
بعد مقراض وخيط وأبيرات حديد
وأبو الزنباع خناق غراميل العبيد
بعد سيف خشبى وسهام من حديد
وابن تدراق الأفافـين البليد بن البليد
وابن بكار كراكيـر وغطاس الثريد
وأبو الروس المريسى بن دباغ الجلود
واللقيط ابن بكير نطفة الفدم الطريد
وابن سهم حارس الجيزة حلوان البريد
عصبة من طينة النيل ميامين الخدود
لبسوا بعد التبابين نفيسات البرود
لازموا المسجد ضلا لا من الأمر الرشيد
لحوانيت بنوها بفنا كل عمود

وتسـوموا وتـكنوا بعـــد جرح وشنود
وألاحـوا بجبـاه من نطاح الحصر سود
تحت أميـال طوال كبراطيـــل اليهود
نصبوهـا كالمقاعيـــد على روس القرود
وتراهم للوصـايا وعـدالات الشهود
فى مراء وجـدال وقيـام وقعـود
وخشوع وابتهـال وركوع وسجود
على القسمة أضرى من تمـاسيح الصعيد
وأشاروا للهـــدايا بأبى عبـد الحميد [١]

ومن ذلك أيضاً ماروى فى قضية « ابن القطاس » فقد كان سعيد ابن زياد الملقب بابن القطاس ممن عرف بين المصريين بالعلم والفضل وكان أحد الشهود الذين قبل بعض القضاة أمثال لهيعة بن عيسى وابن المنكدر وغيرهما شهادته، كما كان أحد الذين يتولون التدريس فى المسجد ، فلما ولى محمد بن أبى الليث قضاء مصر رماه ابن القطاس بالبدعة ، ودعا عليه ، فنقل ذلك إلى القاضى ، وأتى إلى القاضى من ذكر له أن ابن القطاس مولى لم يجر عليه عتق ، وشهد آخرون بأنه مولى رجل من الأزد يقال له ابن الأبرش ، وادعى ابن الأبرش رقبته ، فأمر القاضى بحبس ابن القطاس خمسة أيام ونودى عليـه فى سوق الرقيق فاشتراه القاضى بدينار وأعتقه ، وفى ذلك قال الجمـل فى مدح القاضى .

---

(١) الكندى ص٤٢٢

وبطشت بالقطوس بطشة قائم بالحق غير مقصر ومبذر
مازلت تفحص عن أمور شهوده في السر والعلن المبين الأظهر
فربطتــه في رقة ومنعته وطأ الحرائر وهو غير محرر
هذا النــداء ، وهذه هــاد لهم إن جاء فيه بغير فلس أقشر
يفتي وينظر في المكاتب دائبا والعبد غير مكاتب ومدبر[1]

ومما لاشك فيه أن المصريين أنشدوا شعراً كثيراً جداً في علاقة عرب مصر بالمصريين ولكن هذا الشعر فقد ولم يبق منه إلا قدر يسير قد ذكرنا أكثره .

أثر محنة خلق القرآن

أصاب مصر من فتنة خلق القرآن ما أصاب الأقطار الإسلامية الأخرى ، فقد روى الكندي أن المأمون طلب إلى أخيه أبي إسحق المعتصم أن يكتب إلى نصر بن عبدالله كيدر نائبه على مصر أن يمتحن القضاة والشهود فمن أقر منهم أن القرآن مخلوق وكان عدلا قبلت شهادته وأقر بموضعه ، وكان القاضي بمصر إذ ذاك هرون بن عبدالله فامتحن وأقر بأن القرآن مخلوق ، وتبعه عامة الشهود وبعض الفقهاء وهرب منهم من لم يوافق ، وورد كتاب المعتصم على القاضي هرون بحمل الفقهاء في المحنة فاستعفى هرون من ذلك ، فكتب ابن أبي دؤاد إلى محمد بن أبي الليث بالقيام في المحنة ، وذلك قبل ولايته القضاء ، فحمل البويطي وخشنام المحدث في جمع كثير غيرهما ، ولما

---

(١) الولاة للكندي ص ٤٥٧

ولى الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين أمر أن يأخذ الناس بالمحنة وورد كتابه على ابن أبي الليث الذى ولى القضاء سنة ست وعشرين ومائتين ، فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ولا معلم حتى أخذ بالمحنة وهرب كثير من الناس وملئت السجون بمن أنكر المحنة ، كان «مطر» غلام ابن أبي الليث يأخذ قلانس العلماء أمثال هرون بن سعيد الأيلى ومحمد بن عبدالله بن عبد الحكم وغيرهما ويسوقهم بعمائمهم ، وفى هذا كله أنشد شعراء مصر ، فمن ذلك ماقاله الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر وكان منقطعاً إلى مدح القاضى ابن أبي الليث فى ذلك العصر .

فحميت قول أبى حنيفة بالهدى	ومحمد واليوسفى الاذكر
وفتى أبى ليلى وقول فريقهم	زفر القياس أخى الحجاج الأنظر
وحطمت قول الشافعى وصحبه	ومقالة ابن علية لم تضجر
والمالكية بعد ذكر شائع	أخملتها فكأنها لم تذكر
أعطتك ألسنة أتتك ضميرها	وأتتك ألسنة بما لم تذكر
فأطفت بالأيلى [١] ينعق صائحا	فى كل مجمع مشهد أو محضر
ومحمد الحكمى [٢] أنت أطفته	وأخوه ينعق بالصياح الأجهر
كل ينادى بالقران وخلقه	فشهرتهم بمقالة لم تشهر
لم ترض أن نطقت بها أفواههم	حتى المساجد خلقه لم تنكر [٣]
لما أريتهم الردى متصوراً	زعموا بأن الله غير مصور [٤]

(١) هو هرون بن سعيد الايلى (٢) هو محمد بن عبدالله بن عبدالحكم

(٣) أمر القاضى ابن أبى الليث أن يكتب على المساجد بالفسطاط لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق فالشاعر أشار فى هذا البيت إلى ذلك .

(٤) الكندى ص٤٥٢ ـ ٤٥٣

وكان أحمد بن صالح قد هرب إلى اليمن فى هذه المحنة ، ولزم يوسف أبن أبى طيبة منزله ولم يظهر ، وحاول محمد بن سالم القطان الهرب ولكن ظفر به فحمل إلى العراق ، وهرب ذو النون المصرى ثم رأى أن يرجع فأقر بالمحنة وإلى هذا كله أشار الجمل بقوله :

أحجرت يوسف فى خزانة بيته فطوته عنك وطالما لم يحجر
كفرت بك الأرضون حين سألتها خبر ابن صالح الخبيث الأكفر
جحدته اقطار البلاد فما على حركاته وسكونه من مظهر
وثوى ابن سالم خفية فى بيته ثم امتطى غلس الظلام الأستر
فاتى به كعريج او كأبى الندى والناس بن مهلل ومكبر [1]

وأخذ القاضى فى اضطهاد الفقهاء من ذلك أن الفقهاء ، وشيوخ مصر إذ ذاك كانوا يرتدون القلانس الطوال ويبالغون فيها ، فأمرهم ابن أبى الليث بتركها ، ومنعهم من لباسها وأمرهم أن يتشبهوا بزى القاضى فلم يأبهوا بأمره ، فانتظر حتى أتى إليه عدد منهم وهو فى مجلس حكمه فأمر غلاميه عبد الغنى ومطرا أن يضربا رؤوس الشيوخ حتى ألقوا قلانسهم على الأرض ، وأخذها الصبيان والرعاع يلعبون بها وفى ذلك قال الجمل :

وأخفت أيام الطوال وأهلها فرموا بكل طويلة لم تقصر
ما زلت تأخذهم بطرح طوالهم والمشى نحوك بالرؤوس الحسر
حتى تركتهم يرون لباسهم بعد الجمال خطيئة لم تغفر
يتفزعون بكل قطعة خرقة يجدونها من أعين ومخبر

---

(١) شرحه

فاذا خلا بهم المكان مشوا بها وتأبطوها فى المكان الأعمر
فلئن ذعرت طوالهم فلطالما ذعرت ومن مروا بها لم يذعر
لبسوا الطوال لكل يوم شهادة ولقوا القضاء بمشية وتبختر
مالى أراهم مطرقين كأنما دمغت رؤوسهم بحمى خيبر[١]

هذا بعض ماوصلنا عن محنة الفقهاء فى مصر ومن يدرى لعل المصريين أنشدوا فى ذلك شعرا كثيرا يخالفون به المعتزلة لاسيما فى مسألة خلق القرآن ، إذ كان للمعتزلة فى مصر حلقة زعيمها ابن صبيح[٢] كانت تدافع عن خلق القرآن ، ولكن يخيل إلى ان مذهب المعتزلة لم يجد له مكانا فى نفوس المصرين حتى أن سيبويه المصرى كان يقف فى جمع كثير ، وفى الحاضرين ابو عمران موسى بن رباح الفارسى المتكلم وأحد شيوخ المعتزلة بمصر ، فكان سيبويه يصيح ويقول : الدار دار كفر ، حسبكم أنه ما بقى فى هذا البلد العظيمة أحد يقول القرآن مخلوق إلا أنا وهذا الشيخ أبو عمران ، فقام أبو عمران يعدو حافياً خوفا على نفسه حتى لحقه رجل بنعله[٣]

بعض اغراض الشعر

لم تكن هذه كل أغراض الشعر المصرى فى هذا العصر بل نجد بجانب ذلك شعرا قيل فى المدح والهجاء والرثاء أى فى الأغراض التى لاتتصل إلا بالشاعر وعواطفه وميوله ، وليس بعجيب أن نرى هذه الأغراض فى الشعر المصرى ، فكل الشعر العربى فى جميع عصوره لم يخل منها ، ففى الجاهلية نرى الشعراء يمدحون ولكن

(١) الكندى ص ٤٦١ (٢) القضاة للكندى ص ٤٥٢

(٣) أخبار سيبويه المصرى لابن زولاق ، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

مدحهم كان أقرب إلى الواقع ، وأبعد عن المبالغة ، ثم أخذ المدح يزداد مبالغة بازدياد الحضارة والركون إلى الرخاء واضطر الشعراء إلى التزلف والتملق حتى ينالوا حظوة عند الأمراء والخلفاء . وفى الشعر المصرى نجد بعض الشعراء يقربون من شعراء الجاهلين فى صدق مدحهم ولا يسرفون فى وصف الممدوح بما ليس فيه ، فشعر سعيد بن عفير كان قريب الشبه من شعر زهير بن أبى سلمى الجاهلى كلاهما لم يمدح بقصد النوال ، وكلاهما كان يمدح خصال الرجل وخلقه أكثر من أى شىء آخر ولا لشىء ، ففى مدح سعيد لهبيرة ابن هشام الذى عذب وكاد يقتل لأنه أجار ابراهيم الطائى الثائر على الوالى المطلب الخزاعى ولم يقبل هبيرة أن يسلم إبراهيم للوالى ، نرى الشاعر قد شبه هبيرة بالسموأل بن عاديا فى الوفاء . ومدحه بجلده على تحمل العذاب فى سبيل ذلك الوفاء

لعمرى لقد أوفى ، وفاق وفاؤه   هبيرة فى الطائى وفاء السموأل
وقاه المنايا إذ أتاه بنفسه   وقد برقت فى عارض متهلل
فما انفك محبوسا ومطلب له   عليه قصيف بالوعيد المهول
فما زاده الإبعاد إلا توقرا   وصبرا ولم يخشع ولم يتفكل
إلى أن تجلت عنه أبيض ماجد   كريم الثنا فى المشهد المتدخل (١)

فسعيد هنا يمدح رجلا كريما وفيا ، ليس له سلطان ولا إمرة ، ولم يطمع فيما كانت تصبو إليه نفوس الشعراء الآخرين . ونجد من ناحية أخرى بين الشعراء المصريين من تكسب بشعره كالشاعر المعلى الطائى الذى اتصل بكثير من الولاة والأمراء ومدحهم ، بل كان

---
(١) الكندى ١٥٢ — ١٥٣

لا يتحرج من أن يمدح أحدهم ثم يمدح عدوه إذا صار الأمر بيد ذلك العدو ، من ذلك ماقيل إنه اتصل بالسرى وابنه ومدحهما ، وكانا ثائرين على الولاة ، ثم وقف بين يدى عبد الله بن طاهر تحت المنبر وقال له : أصلح الله الأمير أنا المعلى الطائى ، وقد بلغ منى من جفاء وغلظ فلا يغلظن على قلبك ، ولا يستخفنك الذى بلغك ، أنا الذى أقول :

يا أعظم الناس عفواً عند مقدرة
وأظلم الناس عند الجود للمال
لو أصبح النيل يجرى ماؤه ذهباً
لما أشرت إلى خزن بمثقال
تغلى بما فيه رق الحمد تملكه
وليس شىء أعاض الحمد بالغالى
تفك باليسر كف العسر من زمن
إذا استطال على قوم بإقلال
لم تخل كفك من جود لمختبط
ومرهف قاتل فى رأس قتال
وما بثت رعيل الخيل فى بلد
إلا عصفن بأرزاق وآجال
إن كنت منك على بال منتت به
فإن شكرك من قلبى على بالى(١)

---

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨١ (المطبعة الرحمانية) .

فسر الوالى وأجزل عطاءه ، فالشاعر مدحه لجوده وطمعه فى صلاته . ولعل أكثر شعراء هذا العصر تكسبا بالشعر هو الحسين ابن عبد السلام الشهير « بالجمل الأكبر » إذ اتصل بالقاضى محمد ابن أبى الليث ومدحه ولم يأبه لصوت المصريين الذين سخطوا على القاضى لسوء معاملته — وقدمنا مثلا من ذلك كله فى حديثنا عن محنه خلق القرآن — ثم نراه يتصل بأحمد بن المدبر والى خراج مصر ، ويطلب منه العطاء كما كان يفعل مروان بن أبى حفصة مع معن بن زائدة الشيبانى ، فقد قيل إن ابن المدبر كان من عادته أنه إذا مدحه شاعر ولم يرض بشعره ، أمر من يحمله إلى المسجد ويأمره أن يصلى عدداً معلوما يفرضه عليه ، فعرف الشعراء ذلك فدخل عليه الجمل الأكبر وأنشده :

قصدنا فى أبى حسن مديحا ... كما بالمدح تنتجع الولاة
فقلنـا أكرم الثقلين طرا ... ومن كفيه دجلة والفرات
فقالوا يقبل المدحات لكن ... جوائزه عليهن الصلاة
فقلت لهم وما تغنى صلاتى ... عيـالى انمـا تغنى الزكاة
فاما إذ أبى إلا صـلاتى ... وعاقتنى الهموم الشاغلات
فيأمر لى بكسر الصاد منهـا ... فتصبح لى الصلاة هى الصلات
فيصلح لى على هذا حياتى ... ويصلح لى على هذا الممات [١]

وظل هذا الشاعر يتكسب بالمدح حتى ولى أحمد بن طولون فآثره بمدحه وأخذ عطاءه ، فاعتبره كثير من المؤرخين شاعر ابن

---

(١) زهر الآداب جـ ٢ ص ١٨١ (المطبعة الرحمانية) وتحفه المجالس للسيوطى ص ٣٥٥

طولون ولـكن المنية عاجلت الشاعر فى أوائل حكم الطولونيين أى فى سنة ثمان وخمسين ومائتين .

لانكاد نجد بين أيدينا من الشعر الذى بقى لنا من هذا العصر معانى جديدة فى المدح بل اتخذ شعراء مصر نفس المعانى التى اتخذها غيرهم من شعراء العرب من وصف الممدوح بالجود والكرم والشجاعة ، ولانكاد نجد إلا أثرا قليلا لمصر فى هذا الشعر الذى رأيناه فى شعر المعلى من ذكر ، النيل ولعل روح الفكاهة المصرية قد أثرت أيضاً فى شعر الشعراء كالذى نراه فى الأبيات التى رويناها للجمل فى مدح ابن المدبر

كذلك نستطيع أن نقول عن الهجاء نقد رأينا كيف كان الشعراء يهجون الولاة والقضاة فى مصر ، ويحصون مساوئهم وأكثر شعراء هـذا العصر هجاء هو الشاعر يحى الخولانى الذى وقف بالمرصاد للقاضى العمرى فرماه بالرشوة ، وكناه أبا الندى . وهى كنية مصرية خالصة لم يعرفها شعراء العرب ، ولم يذكرها إلا المصريون ، وهجاه أيضا بأنه كان يحب سماع الغناء وفى ذلك يقول الشاعر يحى .

ربنا راكب على فرس
يامن رأى هربذا[1] على فرس
فقلت : من ذا اللعين؟ قيل أبو
الندا غدا مسرعا إلى عرس
كيما يرى قينة ذكرت بها
تشدو بصوت يخال كالجرس
أصبح فى المخزيات منغمسا
وليس فى غـــيرها بمنغمس [2]

(١) هربذ كزبرج مفرد هرابذة قومة بيت النار للهند وخدم نار المجوس .
(٢) الولاة والقضاة ص ٤٠٠

كذلك الشاعر يحى بن الفضيل الذى هجا الوالى عنبسة بن اسحق الضبى ، ورماه بدين الخوارج وبالجنون « لأن الوالى كان يذهب الى المسجد وهو ينادى فى شهر رمضان بالسحور ، فلم يعجب الشاعر ذلك وأرسل إلى الخليفة يقول :

من فتى يبلغ الإمام كتابا عربيا ويقتضيه الجوابا
بئس والله ما صنعت الينـا حين وليتنا أميراً مصابا
خارجيا يدين بالسيف فينا ويرى قتلنا جميعا صوابا
مر يمشى إلى الصلاة نهـارا • وينادى السحور ضل وخابا[1]

والشاعر اسحق بن معاذ بن مجاهد هجا القاضى المفضل بن فضالة فقال :

خف الله وارقد واتئد يا مفضـل
فإنك عن فصل القضاء ستسأل
وإنك موقوف به ومحاسب
فدونك ، فانظر كيف فى الحكم تفعل
أفى العدل أن أقصى وأخرج متبعا
وتدنى بفضل منك خصمى وتدخل
ويفتح إن يدنو له البـاب جهرة
ويغلق دونى إن دنوت ويقفل
وتقبل منه فى مغيبى شهوده
وبينتى ليست إذا غاب تقبل
فها أنذا أصبحت خصمك فى الذى
قضيت به والحق ما ليس يجهل

---

(١) الكندى ص ٢٠١

فاصغ إلى السمع منك وأنبئى
بأى وجوه الفقه أصبحت تعمل [١]

وقول سعيد بن عفير فى هجاء الوالى الحسين بن جميل سنة تسعين ومائة

ما كنت أحسب أن الحين يجمع ما
أمسى بمصر من الأنذال فى الامر
أما الأمير فحناج وصاحبه
على الخراج سوادى من الأكر
هذا الهنائى[٢] من الفسطاط يخلفه
والباهلى[٣] على أعماله الأخر
كل لصاحبه شكل يلائمه
فهم سواسية فى اللؤم كالحمر
وما هناءة إلا ظلف ذى يمن
والباهليون مأوى اللؤم من مضر
فما يسوغ لنا عيش فينفعنا
مع مانرى لهم من رقة الخطر [٤]

ولم يصلنا شىء من الهجاء بين الشعراء كالذى نراه بين شعراء

---

(١) الكندى ص ٣٨٠—٣٨١

(٢) الهنائى هو كامل الهنائى الذى ولى الشرطه فى ذلك الوقت

(٣) الباهلى هو معاوية بن صرد الذى ولى الشرطه بعد الهنائى

(٤) الكندى ص ١٤٢—١٤٣

الأقطار الإسلامية الأخرى ، والهجاء الذى وصلنا يكاد يكون ذماً للمهجو دون تعريض بأسرته ، فلم يسرفوا فى الهجاء كما لم يسرفوا فى المدح .

أما الرثاء ، فالمعروف أن من عادة المصريين منذ القدم الإسراف فى البكاء والنحيب والعويل حزناً لوفاة قريب أو صديق ، وشعراء العرب كانوا يسرفون فى الرثاء ويبكون ، ولكن ما وصلنا من الشعر المصرى فى الرثاء يختلف تمام الاختلاف عن عادة المصريين وشعراء العرب ، فقد قصر شعراء مصر رثاءهم على سرد مناقب الميت ، وكيف لاقى الموت بشجاعة وجلد ، ويتلقى الشاعر نعى الميت بصبر ، عالما أن هذا مصير كل حى كقول الشاعر سعيد بن عفير .

ساقت عمير إلى مصر منيته ... بإمرة لم يكن فيها بمسعود
حتى أتته المنايا وهو ملتحف ... ثوبين من حبرات البأس والجود
فاذهب حميداً فلا تبعد فكل فتى ... يوما وإن كرمت أفعاله يودى[1]

وقول سعيد أيضاً فى رثاء هبيرة بن هشام بن حديج الذى قتل فى حروبه مع السرى سنة مائتين :

لعَمْرى لقد لاقى هُبَيْرَةُ حتفَهُ
بأفضَل ما تُلقى الحتوف السوارعُ
بأنف حَمِىٍّ لم تخالِطهُ ذِلّة
وعِرض نقى لم تَشِنْه المطامع

(١) الكندى ص ١٨٧

عَشيَّةَ يَستكفيه مُطَّلِبُ الذى
به ضاق ذرْعاً والمنايا كوارع

فما أنفك يحميه ويجعل نفسه
له جُنَّةً حتى احتوته المصارع

فلاقى المنايا فوق أجْردَ سابح
وفى الكف مأثور من الهند قاطع

فبينا يخوض الهوْل من غمراته
وأعداؤه من حوله قد تجاشعوا

تقطّر فى أهْويّة عن جواده
فصادفه حَيْنٌ من الموت واقع

فلم أرَ مقتولا أجل مصابه
على من يعادى والذين يجامع

من ابن حديج يوم أعلن نعيه
وقام به فى الناس راء وسامع[1]

وقد حفظت قصيدة فى الرثاء تكاد تكون كاملة أنشدها الشاعر المعلى الطائى يرثى جارية له قيل إنه كان يحبها لأدبها وعلمها ، وكانت شاعرة ، وقيل أيضاً إن المعلى باعها بأربعة آلاف دينار ، فلما دخل عليها قالت له : بعتنى يا معلى ؟ قال : نعم . قالت : والله لو ملكت منك مثل ما تملك منى ما بعتك بالدنيا وما فيها . فاضطر المعلى إلى أن يرد الدنانير وأن يستقيل صاحبه ويعتذر إلى صاحبته[2] وتوفيت هذه الجارية بعد ثمانية أيام من هذا الحادث فرثاها المعلى بقصيدة

(١) الكندى ص ١٦٠ (٢) العقد الفريد حـ ٢ ص ١٧٩

أرى أنها من آيات الشعر لجمال معناها ، وسمو عاطفتها ، ورشاقة لفظها .

أخذ الشاعر يناجى الموت ويعاتبه كأنه شخص ماثل أمام عينيه ، ويتحدث إليه كما يتحدث إلى شخص يعرفه ، فهو يلوم الموت لأنه اقتنص جاريتـه التى عبر عنها بشق نفسه ، فهو لا يستطيع أن يهنأ بالنصف فقط ، وهو يلوم الموت ويستعطفه استعطافاً أملاه عليه حزنه لفقدها وحبه لها ، فقال إن الموت لم يرحم شبابها ، ثم يأخذ فى وصف عظامها اللينـة ، وشعرها وعينيها ومشيتها ، ويترحم على ذلك كله وأخيراً يعاتب الموت مرة أخرى لأنه ترك حبيبته فى قبر تلعب الريح بترابه ، وتمتد إليه يد البلى ، وأن أحداً لا يستطيع زيارة هذا القبر لأن فى زيارته الهلاك ثم يناشد القبر أن يبقى على محاسنها ، ويحفظ بِرها وظرفها . فالشاعر فى هذه القصيدة حزين حقا ، متألم أشد الألم لفراق جاريتـه ، ولـكنه حزن هادىء — إن صح هذا التعبير — لم يرسل الدمع ، ولم ينتحب ، وهو فى هذا الحزن يذكر أنه سيلتقى بها يوم القيامة :

يا موت كيف سلبتنى «وصفا» قدّمتهـا وتركـتنى خلفـا

هلاّ ذهبت بنـا معا فلقد ظفرت يداك فسمتنى خسفا[1]

وأخذت شق النفس من بدنى فقبرته وتركت لى النصفـا

فعليك بالبـاقى بلا أجـل فالموت بعد وفاتهـا أعفى[2]

يا موت ما أبقيت لى أحدا لمـا رفعت إلى البلى « وصفا »

هلا رحمت شـباب غانيـة ريّـا العظام وشعرها الوحْفا[3]

(١) الخسف الذل والهوان (٢) أعفاه من الأمر برأه

(٣) الوحف الشعر الـكثيف الأسود

ورحمت عينى ظبيـة جعلت بين الرياض تناظر الخشفا[1]
تقضى إذا انتصفت مرابضة وتظل ترعاه إذا أغفى
فإذا مشى اختلفت قوائمه وقت الرضاع فينطوى ضعفا
متحيراً فى المشى مرتعشا يخطو فيضرب ظلفه الظلفا
فكأنه «وصف» إذا جعلت تحوى تحير[2] محاجراً[3] وطفا[4]
يا موت أنت كذا لكل أخ إلف يصون ببره الإلفـا
خليتنى فرداً وبنت بهـا ما كنت قبلك حاملا وكفا[5]
فتركتها بالرغم فى جدث للريح ينسف تربه نسفـا
دون المقطم لا يُلبِّسُهـا فى زينة قلبا ولا شنفا
أسكنتهـا فى قعر مظلمة بيتاً يصافح تربه السقفـا
بيتـا إذا ما زاره أحـد عصفت به أيدى البلى عصفا
لا نلتقى أبداً معـاينة حتى نقوم لربنـا صفـا
لبست ثيـاب الحتف جارية قد كنت ألبس دونها الحتفا
فكأنهـا والنفس زاهقـة غصن من الريحـان قد جفا
يا قـبر أبق على محاسنهـا لقـد حويت البر والظرفا[6]

فأنت ترى الشاعر عميقاً فى حزنه ، مستسلماً لما رزىء به ، ولكنه لم يذكر بكاءه كغيره من الشعراء إذ لا نكاد نجـد قصيدة

---

(١) الخشف مثلثة : ولد الظبى أول ما يولد

(٢) حار يحار ويحتر واستحار : نظر إلى الشىء

(٣) محاجر لجمع محجر : ما دار بالعين

(٤) الوطف : كثرة شعر الحاجبين والعينين

(٥) الوكف : الاثم

(٦) العقد الفريد جـ ٢ ص ١٧٩

فى الرثاء بدون دمع منهمر ، فالبكاء عند الشعراء مظهر من مظاهر الحزن وهو أيضاً يدل على بساطة فى الحياة وسذاجة فى الشعور ، فكما أن الطفل الصغير يبكى إذا تألم ، والمرأة تبكى إذا أغضبها شىء . كذلك شعراء العرب كانوا يبكون إذا رثوا ، ولا أدرى لمَ لم يتبع شعراء مصر فى هذا العصر سنة شعراء العرب، أو طريقة المصريين فى المآتم . ومن يدرى لعل للمصريين فى الرثاء أشعارا كثيرة فيها هذا اللون من البكاء والنحيب ولكن الشعر فقد

أما حياة اللهو والمجون ومجالس الخمر والغزل فلا أكاد أجد لها ذكراً فيما وصلنا من الشعر فى هذا العصر ، ولا أستطيع أن أقول إنه لم يوجد فى مصر شعراء لهوا كما لها غيرهم ، وتغزلوا كما تغزل غيرهم ، وحياة مصر وأعيادها كانت تدعو إلى أن يتحدث عنها الشعراء ، ويكفى أن أنقل شيئاً مما ذكره المقريزى عن أعياد المصريين ، فقد قال فى حديثه عن عيد الشهيد ، « ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد وكان من أنزه أفراح مصر وهو الثامن من بشنس ويكون لذلك اليوم عيد ترحل إليه النصارى من جميع القرى ، ويركبون فيه الخيل ، ويلعبون عليها ، ويخرج عامة أهل مصر على اختلاف طبقاتهم ، وينصبون الخيم على شطوط النيل وفى الجزائر ولا يبقى مغن ولا مغنية ، ولا صاحب لهو ، ولا رب ملعوب ، ولا بغى ، ولا مخنث ، ولا ماجن ، ولا خليع ، ولا فاتك ، ولا فاسق ، إلا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم ، وتصرف أموال لا تنحصر ، ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصى والفسوق ،

وتثور فتن ، وتقتل أناس ، ويباع من الخمر خاصة في ذلك اليوم . وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائماً بناحية شبرا [١] .

وقد ظل هذا العيد بمصر إلى أن أمر بإبطاله الأمير بيبرس سنة ٧٠٢ هـ . ومن هذه الأعياد أيضاً عيد الغطاس وفيه يشارك المسلمون النصارى ، وفي هذا العيد لا يتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجوهر والملاهي والعزف والقصف ، وهي أحسن ليلة تكون بمصر ، وأشملها سرورا [٢] وقد شاهد المسعودي الغطاس سنة ثلاثين وثلثمائة هجرية ووصفها ، ومنع المصريون سنة سبع وستين وثلثمائة من إظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس ، ثم سمح لهم سنة ثمان وثمانين وثلثمائة . وكذلك عيد الصليب ، وفيه كان المصريون يخرجون إلى خارج الفسطاط ، ويتظاهرون بالمنكرات والمحرمات وقد أبطل هذا العيد سنة اثنتين وأربعمائة أيام الحاكم الفاطمي [٣] .

من الطبيعي أنه كان بين الشعراء في هذا العصر من شارك الناس في لهوهم وعبثهم ، وأنشد شعراً في هذه الحياة الصاخبة الماجنة . ولكن هذا الشعر فقد ولم يبق منه ما يدل عليه ، فلم يروه الرواة ، ولم يدونه المؤرخون ، ولا أستطيع أن أعلل ذلك . وكذلك لم يصلنا شعر في وصف الخمر مع أن الكندي يحدثنا أن العلويين خرجوا بمصر أيام الوالي يزيد بن حاتم ، فأرسل الوالي إلى أصحابه ، فجعلوا يأتونه سكارى ، فقال لهم : إن تضوحكم الليلة لكثير [٤] . وخشي

(١) المقريزي ج ١ ص ١١٠ (٢) المقريزي ج ٢ ص ٢٦
(٣) المقريزي ج ٢ ص ٢٩ (٤) الكندي ص ١١٣

الوالى على بن سليمان عاقبة انتشار الخمر بين المصريين فأمر بمنع الملاهى والخمور فى أيامه [١] ، ومع ذلك كله لم يصلنا شعر فى مجالس الخمر ولا فى وصفها . وكان بمصر قيان ومغنون شأنها فى ذلك شأن كل الأقطار الإسلامية ، ويحدثنا الكندى أن القاضى العمرى كان يشدو بأطراف الغناء على مغانى أهل المدينة ، ويبرز كثيراً فى مجالسه ، ولا يتحاشى أن يقول هذا غنى به ابن سريج ، وهذا به الدلال وهذا من جيد غناء الغريض ، ولم يكن بمصر مسمعة إلا ركب إليها ، وسمع غناءها ، وربما قوم ماانكسر من غنائها ، ويرى ذلك من الدين [٢] وقد هجاه خصومه بذلك فقال يحيى الخولانى :

ألا قم فاندب العربا … وبك الدين والحسبا

ولا تذهك تبكى العد … ل لما بان فاغتربا

لقد أحدثت قاضى السو … ء فى فسطاطنا عجبا

يظل نهاره يقضى … بغير العدل منتصبا

ويسهر ليله لسما … عه القينات والطربا

ويشربها معتقة … عقاراً تشبه الذهبا

ويعجبه سماع العو … د والمزمار ياعجبا

فيا للناس من قاض … يحب اللهو واللعبا [٣]

نستطيع أن ندرك كيف أخذ المصريون على القاضى كلفه بالغناء وإعجابه بسماع العود والمزمار ، وشرب الخمر ، فى حين أن خلفاء

(١) الكندى ص ١١٣ (٢) الكندى ص ٣٣٩

(٣) شرحه ص ٤٠٠

العباسيين فى بغداد كانوا يلهون ويمجنون . ويظهرون اللهو والمجون ويشاركهم فى هذه الحياة الشعراء والندماء .

الشعراء الوافدون

لم ينقطع فى هذا العصر أيضا وفود الشعراء على مصر لمدح الولاة والأمراء ، بل كان بين الولاة أنفسهم من أنشد الشعر ، كالوالى الفضل بن صالح المتوفى سنة ١٧٢ هـ فقد كان شاعراً فصيحاً أديبا ومن شعره :

عاش الهوى واستشهد الصبر وعاش فى الحزن والضر
وسهل التوديع يوم نوى ما كان قد وعره الهجر [١]

والوالى عبدالله بن طاهر الذى ولى مصر سنة إحدى عشرة ومائتين كان بارع الأدب حسن الشعر [٢] ومن شعره ما أرسله للخليفة المأمون وقد أمره بالزيادة فى الجامع العتيق فكتب له ابن طاهر

أخى أنت ومولاى ومن أشكر نعماه
فما أحببت من شىء فإنى الدهر أهواه
وما تكره من شىء فإنى لست أهواه
لك الله على ذاك لك الله لك الله [٣]

وكان الوالى يزيد بن حاتم الذى ولى مصر سنة أربع وأربعين

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٦١ (٢) شرحه جـ ٢ ص ١٩٢

(٣) شرحه وقد وردت هذه الأبيات فى كتاب الولاة للكندى ص ١٨١ مع اختلاف يسير ولكن الكندى روى أن ابن طاهر أرسل هذه الأبيات مع طلب الأمان لعبد الله بن السرى الذى تحدثنا عنه .

ومائة مقصدا للناس لكرمه ، محبا للشعر وأهله [١] ، قصده كثير من الشعراء منهم ربيعة بن ثابت الرقى ، قيل إنه مدح يزيد ، فتشاغل هذا عنه ببعض الأمور ، واستبطأه ربيعة فرحل عن مصر وقال :

أرانى ولا كفران لله راجعاً بخفى حنين من نوال ابن حاتم

فبلغ هذا القول يزيد ، فأرسل فى استدعاء الشاعر ورده إلى مصر ، فلما دخل عليه قال له : أنت القائل «أرانى ولا كفران ؟» قال : نعم قال هل قلت غير هذا ؟ . قال : لا . قال : والله لترجعن بخفى حنين مملوءة مالا ! ! فأمر بخلع خفيه ، وأن تملأ له مالا ، ثم قال له أصلح ماأفسدت من قولك . فما قاله الشاعر فى مدح يزيد لما عزل عن مصر :

بكى أهل مصر بالدموع السواجم
غداة غدا منها الأغر ابن حاتم [٢]

ويذكر السمعانى أن المسهر التميمى الشاعر وفد أيضاً على ابن حاتم ومدحه وأجزل الأمير عطاءه ، كما قصده الشاعر محمد بن عبد الله بن مسلم المعروف بابن المولى ومدحه بقصيدة طويلة منها :

وإذا تباع كريمة أو تشترى
فسواك بائعها وأنت المشترى [٣]

ومن قوله أيضاً فى مدح زيد :

يا واحد العرب الذى أضحى وليس له نظير

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢
(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ١٥٦ والنجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢
(٣) النجوم جـ ٢ ص ٢

لو كان مثلك آخر ما كان فى الدنيا فقير

ويحدثنا الطبرى أن البطين الحمصى الشاعر وفد على مصر بصحبة الوالى عبد الله بن ظاهر[١].

أبو نواس فى مصر :

وفى هذا العصر وفد أبو نواس على مصر ، ولمكانة أبى نواس فى الشعر ، ولكثرة ما حفظ لنا من شعره فى مصر رأينا أن نطيل بعض الشىء فى حديثنا عن وفوده على مصر .

حدثنا جامع أخبار أبى نواس[٢] أن الشاعر خرج إلى مصر متنكراً فى زى الشطار مع سليمان بن أبى سهل ، فلما دخل على الخصيب ازدراه واستخف به ، ثم أرسل أبو نواس كتباً إلى الخصيب فلم يستنشده ، فكان ينصرف مهموما ، وعلم المصريون بوجود أبى نواس بينهم ، فهرعوا إليه واستمعوا إلى شعره وكتبوه فأنشد بعضهم هذا الشعر إلى الخصيب فاستحضره وأنشده قصيدته التى مطلعها :

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور مايرجى لديك عسير

ونحن لانستطيع أن نقبل هذه الرواية إذ كيف يرفض أمير أن يستمع لأبى نواس مع مكانته فى عالم الشعر إذ ذاك ! فى الوقت الذى كان ينشد فيه أبو نواس الخليفة فى بغداد ، وينادم ولى العهد ، يرفض أمير مصر أن يستمع إليه ؟ . وهناك رواية أخرى ذكرها صاحب

(١) تاريخ الطبرى وحوادث سنة ٢١٠ هـ
(٢) أخبار أبى نواس نسخة خطية بدار الكتب المصرية

أخبار أبي نواس أيضاً تحدثنا أن الخصيب هو الذى استزار أبا نواس فشخص هذا إليه وبينما هو فى طريقه صادف قوما من أهل الأدب لهم شرف وهيبة ، فآنسهم ومضوا جميعا حتى دخلوا معه مصر ، فسار أبو نواس إلى الخصيب الذى أحسن مقابلته وسأله عن خبره فى رحلته واستنشده . هذه الرواية تناقض السابقة ، وهى أقرب إلى الصواب لأن أبا نواس كان معروفاً فى ذلك العصر فى كل البلاد الاسلامية وينشد شعره الأدباء بل نرى بعضهم قد تتبع أخبار أبي نواس كالذى قيل إن النضر بن أمية الحمصى الشاعر قال : لما خرج أبو نواس من بغداد إلى مصر ، كتب الناس ببغداد إلى أهل الشام بذلك ، فلم يزل القوم فى الشام يرقبون قدومه حتى قدم . ويحدثنا السيوطى أن أهل الأدب بمصر لما عرفوا قدوم أبي نواس هرعوا إليه واستنشدوه فكان يجلس فى المسجد الجامع والناس حوله ينشدهم أشعاره وهم يكتبون[١] فهذا يدلنا على أن أبا نواس لم يكن بالشاعر المجهول عند المصريين وغير المصريين ، ولذلك فإنى أرجح هذه الرواية الأخيرة

أما الخصيب الذى استقدم الشاعر فلا نكاد نعرف عنه شيئاً ولم يذكره المؤرخون بين ولاة مصر وأمرائها . ولكن جامع ديوان أبي نواس قال : هو الخصيب بن عبد الحميد العجمى ثم المرادى أمير مصر ، وهو دهقان من أهل المزار شريف الآباء ، وكان رئيساً فى أرضه فانتقل إلى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازى ثم انتقل إلى الامارة[٢] . وفى حديث المقريزى عن المدن قال : منية

---

(١) تحفة المجالس للسيوطى ص ٢٣٧

(٢) ديوان أبي نواس ص ٧٧ ، طبع مصر سنة ١٣٢٢

الخصيب ، هذه المدينة تنسب إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر [١] ، ولكن كتب التاريخ لم تذكر الخصيب أيضاً بين ولاة خراج مصر ، وإذا أمعنا فى دراسة ولاة مصر وأمرائها فى عصر الرشيد ، نجد المؤرخين قد أهملوا ذكر صاحب الخراج فى سنة ١٨٠ هـ وسنة ١٨٣ هـ وسنة ١٨٩ هـ أى أن الخصيب كان أميراً على خراج مصر فى إحدى هذه السنين ، والذى أرجحه أنه كان فى سنة ١٨٩ هـ إذ هى السنة التى ولى فيها عبد الله بن محمد على مصر وفى سنة ١٩٠ هـ جعل على الشرطة أحمد بن حوى ، وعلى الصلاة هاشم بن حديج ، وقد ورد ذكر هذين الأميرين فى شعر أبى نواس ، وإذن فقد كان أبو نواس فى مصر سنة ١٩٠ هـ

تكاد تجمع الروايات على أن أول قصيدة أنشدها أبو نواس فى مصر هى قصيدته الرائية .

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور مايرجى لديك عسير

وفيها يقول :

تقول التى عن بيتها خف مركبى
عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب
بلى . . إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر
جرت فجرى فى جريهن عبير

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٣١

ذرينى أكثر حاسديك برحلة

إلى بلد فيه الخصيب أمير [١]

وهو فى هذه القصيدة يصف رحلته من العراق ، ويذكر المدن التى مر بها ثم يحدثنا عن طمعه فى نوال الخصيب ، بل هو فى كل شعره الذى أنشده فى مدح الخصيب كان يتحدث دائماً عن أمله فى العطاء الجزيل ، ويمنى نفسه بالمال الكثير :

يابنتى أبشرى بميرة مصر وتمنى وأسرفى فى الأمانى

أنا فى ذمة الخصيب مقيم حيث لاتعتدى صروف الزمان

قدعلقنا من الخصيب حبالا آمنتنا طوارق الحدثان [٢]

وقوله أيضاً :

وإنى جدير إذ بلغتك بالمنى

وأنت بما أملت منك جدير

وفى قصيدة أخرى قال :

أنت الخصيب وهذه مصر

فتدفقا فكلاكما بحر

لا تقعدا بى عن مدى أملى

شيئاً فمالكما به عذر

ويحق لى إذ صرت بينكما

ألا يحل بساحتى فقر

(١) ديوان أبى نواس ص ٨٠ وأخبار أبى نواس لابن منظور ص ٢٣٧

(٢) ديوان أبى نواس ص ٧٨

النيل ينعش ماؤه مصرا
ونداك ينعش أهله الغمر [١]

فلولا هذا الطمع فى المال ماأتى أبو نواس من بغداد إلى مصر وقد ولد الأمل فى نفسه ثقة بأن الخصيب سيغدق عليه العطاء فإذا الشاعر صادق فى مدحه للخصيب مغتبط بحضوره إلى مصر ، عظيم الأمل فى الثروة ، والخصيب كان يعطف على الشاعر ويعطيه ، حتى قال ابن منظور إن الخصيب أعطاه أول يوم ألف دينار ، وأعطاه مثلهـــا ثانى يوم ، وأعطاه أخرى ثالث يوم ، وقربه الخصيب إليه ونادمه .

وهذا المدح الذى أنشده أبو نواس للخصيب يشبه مدح المتنبي لكافور الأخشيدى ، فكلاهما وفد على مصر بسبب النوال والغنى وإن كان المتنبي قد طمع أكثر مما طمع فيه أبو نواس وكانت نهاية أيام الشاعرين فى مصر تكاد تكون واحدة ، إذا اضطر أبو نواس أخيراً إلى أن يهجو الخصيب ، وأن يرميه بالبخل ، وقيل إن سبب هذا الهجاء هو أن أبا نواس كان يسكره شراب مصر ، وكان الخصيب يخص نفسه بشراب يحمل إليه . فغضب أبو نواس وهجاه بقوله :

يخص خصيب بالشراب ويرتجى
لديه نوالا إن ذا لعجيب
وليس خصيب بالخصيب لضيفه
ولكنه وعر المحل جديب

(١) شرحه ص ٨٠

فمن كان ذا أهل بمصر وثروة
فإنى بها صفر اليدين غريب

وهجاه مرة أخرى بقوله :

نفس الخصيب جميعه كذب
وحديثه لجليسه كرب
تبكى الثياب عليه معولة
أن قد يجر ذيولها كلب

وقال مرة أخرى :

خبز الخصيب معلق بالكوكب
يحمى بكل مثقف ومشطب
جعل الطعام على بنيه محرما
قوتاً وحلله لمن لم يسغب
فاذا هم رأوا الرغيف تطربوا
طرب الصيام إلى أذان المغرب [1]

وهكذا انتقل أبو نواس من مدح الخصيب إلى هجائه ، ويغلب على ظنى أن الخصيب لم يف بوعده لأبى نواس ، أو أن أبا نواس كان يطمع فى أضعاف ما ناله من الخصيب ، كما كان الحال بين كافور والمتنبى بعد ذلك بقرن ونصف تقريبا .

ونجد فى ديوان أبى نواس بعض قصائد فى هجاء هاشم بن حديج

(١) الديوان ص ١٨٣

السكندى ، وفى كتاب أخبار أبى نواس عدة أبيات فى هجاء معاوية ابن حديج الفيلسوف ، مما يدل على أن أبا نواس كان على صلة ببنى حديج الذين كان لهم شأن كبير فى تاريخ مصر الإسلاميه ، ومؤسس هذه الأسرة فى مصر هو معاوية بن حديج التجيبى السكندى ، وفد على مصر فى جيش الفتح ، وكان رسول عمرو بن العاص إلى الخليفة يبشره بفتح الإسكندرية ، وكان رابع أربعة عينهم عمرو على خطط الفسطاط وبعد مقتل الخليفة الثالث كان ابن حديج زعيم العثمانية بمصر ، إذ بايعه المصريون على الطلب بدم الخليفة المقتول ، فقام محمد بن أبى حذيفة ولكن ابن حديج اضطر إلى أن يهرب إلى دمشق ، ثم عاد إلى مصر لانتزاعها من أيدى العلويين ، وهو الذى قتل محمد بن أبى بكر وألقاه فى جيفة حمار وأحرقه . كان هذا الرجل رأس أسرة بنى حديج الذين أصبح منهم بعض الأمراء والقضاة كعبد الرحمن بن معاوية ابن حديج الذى خرج ببيعة أهل مصر للوليد بن عبد الملك الأموى وعبدالله بن عبد الرحمن بن معاوية الذى ولى مصر من قبل أبى جعفر المنصور سنة ١٥٢ ، وفى سنة ١٩٠ — وهى السنة التى فيها كان أبو نواس فى مصر كما رجحت — صرف عبد الله بن محمد العباسى عن ولاية مصر ، فخرج واستخلف عليها هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن ، وهو الذى هجاه أبو نواس .

أما سبب هذا الهجاء فقد ذكر جامع ديوان أبى نواس أن الشاعر مدح هاشماً فلم يعطه شيئاً فهجاه ، ونقل عن كتاب الروضة للمبرد أن هاشماً أراد أن يستبق أبا نواس عنده فى مصر فرفض هذا البقاء

وخرج من مصر يهجو هاشما ويهجو المصريين .

قفوا معشر الراحلين اسمعوا أنبئكم عن بنى كنده
وردنا على هاشم مصره فبارت تجارتنا عنــده
رأيتك عند حضور الخوا ن شديدا على العبد والعبده[1]

ونراه فى هذا الهجاء يعير بنى حديج بقتل محمد بن أبى بكر الصديق .

فإن حديجا له هجرة ولكنها زمن الرده
وما كان إيمانكم بالرسول سوى قتلكم صهره بعده
وما كان قاتله فى الرجال بحمل لطهر ولا رشده[2]

وقوله :

يا هاشم بن حديج ليس فخركم
بقتل صهر رسول الله بالسدد
أدرجتم فى اهاب العير جثته
فبئس ما قدمت أيديكم لغد

ولكن يخيل إلى أن هناك سببا آخر لهجائه بنى حديج يضاف إلى ما ذكره جامع ديوان أبى نواس ، فقد كانت المنافسة التى بين أحمد بن حوى العذرى وهاشم بن حديج شديدة جداً ، وتجلت هذه المنافسة في قضية أهل الحرس التي تحدثنا عنها ، وكان أبو نواس شديد الصلة بابن حوى حتى أن الشاعر هجا كل المصريين إلا ابن حوى .

---

(١) ديوان أبى نواس ص ١٣٨ (٢) شرحه ص ١٣٩ .

دم المكارم بالفسطاط مسفوح
والجود قد ضاع فيها وهو مطروح
يا أهل مصر لقد غبتم بأجمعكم
لما حوى قصب السبق المساميح
أموالكم جمة والبخل عارضها
والنيل مع جوده فيه التماسيح
لولا ندى ابن حوى أحمد نطقت
منى المفاصل فيكم والجوارح[١]

وفى قصيدته السينية التى هجا بها هاشم بن حديج قال :

ما منك سلمى ولا أطلالها الدرس
ولا نواطق من طير ولا خرس
يا هاشم بن حديج لو عددت أبا
مثل القلمس لم يعلق بك الدنس
إذ أصبح الملك النعمان وافده
ومن قضاعة أسرى عنده حبس
فابتاعهم بإخاء الدهر ما عمروا
فلم ينل مثلها من مثله أنس
أورحت مثل حوى فى مكارمه
هيهات منك حوى حين يلتمس[٢]

---

(١) ديوان أبى نواس ص ١٢٧ — ١٢٨ .
(٢) ديوان أبى نواس ص ١٣٩

ومع ذلك كله فقد عاد أبو نواس إلى نفسه ، وذكر نسبه فى اليمنية وأن اليمنية تجمع بينه وبين هاشم بن حديج ، فعاتب نفسه واعتذر إلى هاشم عن هذا الهجاء .

أهاشم خذ منى رضاك وإن أتى
رضاك على نفسى فغير ملوم
فأقسم ما جاوزت بالشتم والدى
وعرضى وما مزقت غير أديمى
فعذت بحقوى هاشم فأجارنى
كريم أراه فوق كل كريم
وإن امرأ أغضى على مثل زلتى
وإن جرحت فيه لعين حليم
تطاول فوق الناس حتى كأنما
يرون به نجماً أمام نجوم(١)

أما صلة أبى نواس بشعراء مصر ، فحدثنا السيوطى أن أدباء مصر وشعراءها تسابقوا لمصاحبة أبى نواس ، وكتابة شعره ، وكان بينهم رجل يعرف بالحسن بن عمر الأجهرى ، كان شاعراً ضعيف الشأن فأراد أن يعلى شأنه ، فهجا أبا نواس بقوله

ألا قل للنواسى الضعيف الحال والقدر
خبرنا منك أحوالا فلم نحمدك فى الخبر
وما إن ذعت بالمنظر ولكن ذعت بالذكر

---

(١) شرحه ص ١٢٦ .

وكان هذا الشاعر من أوحش الناس صورة ، فنظر إليه النواسى وقال بماذا أهجوك ، وبأى شىء أصفك ، وقد سبقنى الله تعالى إلى توحيش منظرك ، وتقبيح مخبرك ، وهل أكون إن قلت شيئاً إلا سارقا من ربى ، ومتكلفاً ما قد كفانى . فقال له بعض من معه من المصريين : على كل حال لا يقول هذا إلا إنه أفحمك . فقال النواسى

بما أهجوك لا أدرى   لسانى فيك لا يجرى
إذا فكرت فى هجو   ك أبقيت على شعرى

وحدثنا صاحب أخبار أبى نواس قصة دعابة أبى نواس ولهوه مع الفتيان الثلاثة ، وهذا الشعر الذى أنشده فى أصحابه هؤلاء ، كل هذا يدلنا على أن أبا نواس اشترك مع الشعب المصرى فى لهوه ومجونه.

لأبى نواس أشعار كثيرة قيلت فى مصر ولكنها لم تصل إلينا فيقول جامع شعره إن لأبى نواس بمصر قصائد لا يعرفها اهل العراق

ويروى ديك الجن وقد دخل مصر بعد أن تركها أبو نواس أنه وجد للنواسى أشعاراً كثيره منها .

إذا ذكرت بغداد لى فكأنما   تحرك فى قلبى شباه سنان
وأوبة مشتاق بغير دراهم   إلى أهله من أعظم الحدثان

وروى حمزة الأصفهانى أنه وجد رسالة فى شعر أبى نواس وقد سقط منها الشعر الذى قاله بالشام ومصر ، مع أن المصريين يروون للنواسى أشعاراً كثيرة لم تقع إلى أهل العراق ، قال وقدم علينا رجل من حمص حافظ لشعر أبى نواس وزعم أن أباه كان قد لقى أبا نواس بحمص فكتب عنه قصائد له أنشدها فى مصر .

وفى كتاب أخبار الحسن بن هانىء لابن منظور نجد روايات كثيرة تدلنا على أن أبا نواس كان صديقاً لأحمد بن يوسف المعروف بابن الداية . ولكنى أعتقد أن أحمد بن يوسف هذا لم يقابل أبا نواس لأن ابن الداية توفى بمصر بعد وفاة أبى نواس بنحو قرن ، أى بعد انتهاء الدولة الطولونية . فقد وهم إذن ابن منظور حين روى عن ابن الداية أنه كان صديقاً لأبى نواس ، وربما كان أحمد ابن يوسف كاتب العباسيين المعروف هو صاحب أبى نواس فوهم ابن منظور وظنه ابن الداية لتشابه اسميهما .

خرج أبو نواس من مصر بعد أن مكث فيها سنة كما ذكر صاحب أخباره ، وقد هجا مصر والمصريين بالأبيات التى ذكرتها سابقا ، ثم نراه يهجو النيل أيضاً .

أضمرت للنيل هجرانا وتقلية   إذ قيل لى إنما التمساح فى النيل

وفى شعر أبى نواس فى مصر ، نجد أثر مصر واضحاً قوياً ، فمثلا هو يذكر دائما قصة (موسى وفرعون) التى كانت فى مصر . فنراه قد شبه شعره بعصا موسى تلقف ما يقول غيره من الشعراء .

فقد قيل إن أبا نواس لما دخل لأول مرة عند الخصيب رأى جماعة من الشعراء أسن منه ، فطلب من الخصيب أن ينشدوا قبله ، فلما أنشدوا تبسم أبو نواس وقال : أنشدك أيها الأمير قصيدة هى بمنزلة عصى موسى تلقف ما يأفكون ، ثم أنشده قصيدته الرائية وفيها يقول :

وأطرق حيات البلاد لحية   خصيبية التصميم حين تسور

ومدح الخصيب مرة أخرى بقوله :

حيـة تصرع الرجال إذا ما صـارعوا زأيه على الأذقان

وحذر المصريين من الاستمرار فى الفتنة والثورة بقوله :

منحتكم يا أهـل مصر نصيحتى ألا فخـذوا من ناصح بنصيب

فإن يك باق افك فرعون فيكم

فـإن عصى موسى بكـف خصيب

رماكم أمـير المؤمنين بحية أكول لحيات البلاد شروب

ولا أكاد أعرف لأبى نواس شعراً فى هذا المعنى أنشده فى غير مصر مما يدل على أن هـذا المعنى من أثر مصر فى شعر أبى نواس ، ثم ذكر النيل مراراً وما به من التماسيح ، وهو معنى مصرى لا يتأتى لشاعر لم ير النيل ، وما به من التماسيح .

* * *

ووفد على مصر أيضاً الشاعر الهجاء دعبل بن على الخزاعى طمعاً فى نوال أحد أقاربه المطلب بن عبدالله الخزاعى والى مصر، ومدحه دعبل أولا بقصيدته التى فيها :

أبعـد مصر وبعـد مطلب ترجو الغنى إن ذا من العجب

إن كاثرونا جئنـا بأسرته أو واحدونا جئنا بمطلب

فولاه المطلب إقليم أسوان فمكث به أياماً ولعله لم يرض بما ناله فغضب ، ولم ينج المطلب من هجائه إذ قال فيه :

أمطلب أنت مستعذب حميا الأفاعى ومستقبل

وعاديت قوماً فما ضرهم وشرفت قوما فلم ينبلوا

فاضطر الوالى إلى أن يعزله وكان المطلب يقول كلما قابل دعبلا

ما تفكرت فى قولك قط ، وإن كاثرونا جئنا بأمرته ، إلا كنت أحب الناس إلى ، ولا تفكرت والله فى قولك ، وعاديت قوماً ، إلا كنت أبغض الناس إلى [١]

وحدث أنه عزل المطلب عن مصر فلم يقبل أن يسلمها لمن خلفه فتحاربا فانهزم المطلب واضطر إلى أن يفر إلى مكة فقال دعبل فى ذلك :

فكيف رأيت سيوف الحريش ووقعة مولى بنى ضبـــة
أحجتك أسيافهم كارها وما لك فى الحج من رغبة [٢]

يريد بمولى بنى ضبة السرى بن الحكم الوالى الذى جاء بعد المطلب

ولقد سعدت مصر سنة تسعة وتسعين ومائة بوفود الإمام محمد بن إدريس الشافعى على مصر بصحبة عبد الله بن الوالى العباس بن موسى وقيل إن الشافعى قدم مصر بعد أن أحس بالشر فى بغداد ، فقد اشتدت الفتنة فى إظهار القول بخلق القرآن فهرب من بغداد إلى مصر [٣] ومهما يكن السبب الذى جاء من أجله الشافعى إلى مصر فإنه أقام بها ناشراً لآرائه وعلمه ملازما للاشتغال بجامع عمرو بزاوية الخشابية التى عرفت به [٤]

كان الشافعى شاعرا ويحدثنا السيوطى أن الشافعى اجتمع بعبد الله بن هشام صاحب السيرة وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة [٥] ومع ذلك فالشافعى كان يهتم بالفقه أكثر من اهتمامه بالشعر ولأنه كان يقول :

---

(١) تراجع أخبار دعبل بمصر ج ١٨ ص ٤٨ من كتاب الأغانى .
(٢) الولاة والقضاة للكندى ص ١٦١ .
(٣) ثمرات الأوراق مطبوع على هامش محاضرة الأدباء ص ٤٤ .
(٤) الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق ج ٤ ص ١٤٠ .
(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠٦ .

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد[1]

* * *

كان مجيء هؤلاء الشعراء إلى مصر من العوامل التي ساعدت روح الشاعرية المصرية وأيقظت ما كمن منها ، ومن الجائز أن بعض الشعراء المصريين كانوا يحاولون تقليد الشعراء الوافدين ، وقد رأينا كيف كان يجتمع المصريون في المسجد الجامع لاستماع شعر أبي نواس وكيف اهتموا به ، فهذا يدل على نمو الروح الأدبية في مصر وتطورها .

شعراء مصريون راحلون

يمتاز هذا العصر أيضا بظهور شعراء مصريين ، أو ممن أخذوا بحظ من الثقافة في مصر ، وقضوا فيها شطرا من حياتهم الأولى ، ثم غادروها إلى مقر الخلافة ، حيث اتصلوا بالخليفة ورجاله ، ومع أننا نستطيع أن نسمي هؤلاء الشعراء مصريين أو متمصرين — إن صح هذا التعبير — فان شعرهم اصطبغ بصبغة البلاد التي حلوا بها فلم يعد لهم أية صلة بمصر ، ولذلك لا يعدهم الأدباء من المصريين ، فشاعر كأبي تمام مهما قيل عن أصله ومولده ، فلا شك أنه جاء مصر وهو صغير ، وكان يسقي الماء في المسجد الجامع ، وجالس الأدباء والعلماء في مصر ، وحفظ في مصر الآلاف من الأراجيز والقصائد التي ساعدته على تهيئة ملكة الاختيار من شعر العرب ، وجعلته يجمع منها حماسته ، وفي مصر قال أبو تمام أول شعره ، وما زال في مصر حتى شاع ذكره فبلغ الخليفة العباسي المعتصم خبره

(١) راجع ما كتبناه آنفا عن الشافعي .

فاستقدمه وأحسن إليه[١] ومكث أبو تمام بالعراق وخراسان حتى آخر أيام حياته .

لم يكن أبو تمام مصرى المولد ولكنه قضى شطرا من حياته فيها كما قضى أكثر أيام حياته بعيدا عنها ، ومع ذلك فالمصريون يعتبرونه واحداً منهم بل يغالون ويدعون أنه شاعرهم الأكبر ، ويفخرون به حتى عده الكندى أحد فضائل مصر[٢] وذلك لنبوغه وشهرته الواسعة وكثرة الشعر الذى أنشده ، ولعله أول رجل تخرج فى المدرسة المصرية تروى له هذا العدد الكبير من القصائد .

وحياة أبي تمام فى مصر غامضة أشد الغموض فلم تصلنا أخباره ولا نعرف شيئا عن أساتذة الذين أخذ عنهم ، ويغلب على ظنى أن أبا تمام قد استمع إلى هذه الدروس التى كانت تلقى فى حلقات المسجد الجامع بالفسطاط ، وكان فى ذلك الوقت الشافعى وابن هشام رواى السيرة وابن عبد الحكم والليث بن سعد ، ممن يلقون علومهم فى هذه الحلقات ، ولعل أبا تمام قد أدرك سعيد بن عفير والمعلى الطائى ويحيى الخولانى والحسين بن الجمل الأكبر ويوسف السراج وغيرهم من شعراء مصر فى هذه الفترة ، فاستفاد مما سمعه من علوم أولئك وشعر هؤلاء حتى نمت ملكة الشعر عنده فأنشد هذا الشعر الذى استطاع به أن يخمل شعراء عصره .

وأول ما نعرفه عن تكسبه بالشعر فى مصر فهو اتصاله

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٣٢٢ .

(٢) فضائل مصر للكندى نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٢ تاريخ .

بعياش بن لهيعه والتاريخ لا يذكر عياشا إلا أنه كان صاحب الشرطة فى مصر سنة ٢٠١ ﻫ وأن أباه هو القاضى لهيعة بن عيسى الحضرمى الذى ولى القضاء مرتين الأولى سنة ١٩٦ ﻫ إلى أن عزل سنة ١٩٨ ﻫ . ثم وليها مرة أخرى فى المحرم سنة ١٩٩ وظل فى منصبه إلى أن توفى سنة ٢٠٤ ﻫ ، أما ابنه عياش فقد انقطعت أخباره ولا نعلم عنها شيئا ، ويذكر الرواة أن أبا تمام أول ما قال الشعر فهو فى عياش .

تقى جمحاتى لست طوع مؤنبى
وليس جنيبى إن عذلت بمصحبى

فلم توقدى سخطا على متنصل
ولم تنزلى عتبا بساحة معتب

رضيت الهوى والشوق خدنا وصاحبا
فإن أنت لم ترضى بذلك فاغضبى

إلى أن يقول :

تركت حطاما منكب الدهر إذ نوى
زحامى لما أن جعلتك منكبى

وما ضيق أقطار البلاد أضافنى
إليك ولكن مذهبى فيك مذهبى

وأنت بمصر غايتى وقرابتى
بها وبنو الآباء فيها بنو أبى

ولا غرو أن وطأت أكناف مرتعى
لمهمل أحفاضى ورفهت مشربى

فقومت لى ما أعوج من قصد همتى
وبيضت لى ما أسود من وجه مطلبى

فاعطاه عياش وأجزل مكافأته ، وظل الشاعر متصلا بعياش إلى أن فسد ما بينهما فنرى الشاعر حينا يعاتبه وأخرى يهجوه حتى مات عياش . ولا ندرى سبب هذا التحول من المدح إلى الهجاء إلا ما يرويه ابن عبد ربه أن أبا تمام استسلف عياشا مائتى مثقال فشاور فيه زوجته فقالت « هو شاعر يمدحك اليوم ويهجوك غدا فاعتل عليه واعتذر إليه ولم يقض حاجته »[1] فعاتبه أبو تمام بقصيدته التى أولها :

صدفتْ لهيا قلبي المستهتر فبقيتُ نهب صبابة وتفكر

والتى يقول فيها :

الفطر والأضحى قد انسلخا ولى
أمل ببابك صائمٌ لم يُفطِر
حَول ولم ينتج نداك وإنما
تتوقع الحُبْلى لتسعة أشهر
جِشْ لى ببحر واحد أغرقك فى
مدح أجيش له بسبعة أبحر

ويفهم من شعر أبى تمام أن بعض القوم سعوا به عند عياش ، ومن يدرى لعل بعض شعراء مصر حسدوا هذا الشاب على صلته بالأمير ، فأوقعوا بينهما مما أدى الشاعر إلى أن يقول .

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ١٤٤ .

أظن عنـــدك أقواما وأحسبهم
لم يأتلوا فى ما أعدوا وما ركضوا

يرمونى بعيون حشوها شزر
نواطق عن قلوب حشوها مرض

لولا صيانة عرضى وانتظار غد
والـكظم حتى على الدهر مفترض

لما فـكـكت رقاب الشعر عن فـكرى
ولا رقابهم إلا وهم حيض

ولـكن العلاقة بين عياش وأبى تمام فسدت نهائيا فهجاه الشاعر بعدة قصائد منها قوله :

النار والعار والمـكروه والعطب
والقتل والصاب والمران والخشب

أحلى وأعذب من سيل تجود به
ولن تجود به يا كلب يا كلِبُ

ويتوعده مرة أخرى بقوله :

ولأشهرن عليك شنع أوابد
يحسبن أسيافا وهن قصـائد

فيها لأعناق اللئـام جوامع
تبقى ، وأعناق الـكرام قلائد

يلزمن عرض قفاك وسم خزاية
لم يخزها بأبى عيينة خالد

وظل يهجو عياشا إلى أن مات عياش فلم يتورع امام الموت بل هجاه بقصيدة منها .

فكت أكف الموت غل قصائدى
عنه وضيغمها عليه يزير
ما زال غل الموت ثانى عطفه
حتى أتاه الموت وهو أسير
من بعد ما نزهت فى سوءاته
حسنات شعر بحرهن بخور
يا خلقة الله التى من طرزها
نشآ فكان القرد والخنزير

لم يحفظ لنا التاريخ شيئاً عن علاقة أبى تمام بشعراء مصر فى هذا الوقت إلا ما رواه ابن رشيق صاحب العمدة إن أبا تمام هاجى السراج [1]، وما جاء فى الوساطة ، وما عدوت فى هذا الفصل قضية أبى تمام ولا خرجت عن شرطه أن يقول فى يوسف السراج شاعر مصر فى وقته

فلو نبش المقابر عن زهير   لعول بالبكاء وبالنحيب
متى كانت معانيه عيالها   على تفسير بقراط الطبيب
وكيف ولم يزل للشعر ماء   يرف عليه ريحان القلوب [2]

ويفهم من هذا أنه كانت هناك منافسة فنية فى الشعر بين شاعر مصر يوسف السراج وبين أبى تمام وأن أبا تمام كان يعيب على السراج

---

(١) العمدة ص ٦٩ جـ ١   (٢) الوساطة ص ٢٥ .

فنه وشعره ، فهو يأخذ على شاعر مصر معانيه الفلسفية التى لم تعرف عند زهير أى عند القدماء كما يأخذ عليه الغريب والتعقيد فى شعره بينما الشعر فى نظر أبى تمام يجرى كالماء السلس الذى يرف عليه ريحان القلوب ، والغريب أن أبا تمام الذى ينقد شاعر مصر على هذا النحو هو نفسه من أشد الشعراء إغراقا فى التعقيد المعنوى واللفظى ، ومن أكثر الشعراء استعمالا للغريب فهل نستطيع أن نقول إن فن أبى تمام هو أثر من آثار مصر .

ونرى أبا تمـام يتصل بالأمير عبد الله بن طاهر حين قدم مصر وهزم عبيد الله بن السرى الثائر بمصر سنة ٢٢١هـ ومدحه بقصيدة منها

لعمرى لقد كانت بمصر وقيعـــة
أقامت على قصد الهوى كل مائل
على الخندق الأقصى وما كان حوله
وما قد يليه من فضاء وساحل (١)

وأنشد أبو تمام شعراً فى الحروب التى كانت بمصر فى هذا العهد من ذلك قصيدته فى رثاء عمير بن الوليد الذى قتل يوم الثلاثاء لثلاث عشرة من ربيع الآخر عام أربعة ومائتين وقد قتل فى حرب بينه وبين أهل الحوف وفى هذه القصيدة ظهر أثر حفظه للأشعار ولعادات الجـاهلية من بكاء على الميت ولطم الخدود ، وهى نفس عادات المصريين التى لم يشر إليها الشعراء المصريون وإنما تشاهد كل يوم

أعيدى للنوح معولة أعيدى وزيدى فى بكائك ثم زيدى

---

(١) الولاة للكندى ص ١٨١ .

وقومى فى نساء حاسرات خوامش للنحور وللخدود

هو الخطب الذى ابتدع الرزايا وقال لأعين الثقلين جودى

ألا رزئت خراسان فتاها غداة ثوى عمير بن الوليد

ألا رزئت بمسئول منيل ألا رزئت بمتلاف مفيد

ألا إن الندى والجود حلا بحيث حللت من حفر الصعيد

بنفسى أنت من ملك رمته منيته بسهم ردى سديد

واستمر فى بكائه ونحيبه ثم انتقل إلى ذكر الميت فوصفه بالشجاعة فى القتال والجود والسخاء .

ويا يوم الثلاثاء اعتمدنا بفقد فيك للسند العميد

فكم أسخنت فينا من عيون وكم أعثرت فينا من جدود[1]

ضاق أبو تمام ذرعا بما هو فيه من فقر وإملاق وكان يطمع فى المال الكثير :

لقد طلعت فى وجه مصر بوجهة بلا طالع سعد ولا طائر سهل

وساوس آمال ومذهب همة مخيمة بين المطية والرجل

نأيت فلا مال حويت ولم أقم فأمتع إذ فجعت بالمال والأهل

لئام طغام أو كرام بزعمهم

سواسية ما أشبه الحول بالقبل[2]

واضطر إلى أن يرحل من مصر غير آسف على فراقها وإن حن إليها بعد خروجه منها فذكر إخوانه بالفسطاط

---

(١) الكندى ص ١٨٦ وديوان أبى تمام (طبعه محمد جمال ترخيص نظاره لمعارف نمرة ٤١٣) والجزء الخامس من نهاية الأرب ص ٢٠٤ .

(٢) ديوان أبى تمام ص ٤٢١ .

بالشام أهلى وبغداد الهوى وأنا
بالرقتين وبالفسطاط إخوانى
وما أظن النوى ترضى بما صنعت
حتى تشافه بى أقصى خراسان
خلفت بالأفق الغربى لى سكناً
قد كان عيشى به حلواً بحلوان[1]

مانى الموسوس:

وهناك شاعر آخر يختلف عن أبى تمام اختلافا تاما ذلك هو محمد بن القاسم ويكنى بأبى الحسين ، ويعرف بمانى الموسوس لأنه كان بعقله شىء من الجنون ، هذا الرجل مصرى المولد والنشأة ، لكنه خرج من مصر ولم نعرف متى خرج ، إذ لم نعثر على شىء من أخباره غير أن أبا الفرج يحدثنا أن هذا الشاعر « قدم مدينة السلام ولقيه جماعة من شيوخنا منهم أبو العباس بن عمار وأبو الحسن الأسدى وغيرهما[2] وقد وصفه أحد الأدباء لمحمد بن عبد الله بن طاهر وقد طلب أحداً لمنادمته فقال له : قد خطر ببالى من ليس علينا بمنادمته ثقل ، قد خلا من إبرام المجالسين ، وبرىء من ثقل المؤانسين ، خفيف الوطأة إذا أدنيته ، سريع الوثبة إذا أمرته[3] .

لم يصلنا عن هذا الرجل سوى أخبار فى جنونه ، وأبيات قليلة مبعثرة فى كتب الأدب تحملنا عن القول بأن الشاعر كان كلفا بالغزل ووصف مجالس الخمر واللهو ، وبرع فى هذه الفنون ، وقد

(١) شرحه ص ٣٢٣ (٢) الأغانى جـ ٢٠ ص ٨٤ .
(٣) ذيل ابن خلكان جـ ٢ ص ٢٦٢ .

تأثر بالقدم فوقف على الديار وبقى الأطلال . وكان يحفظ كثيرا من الشعر ويرويه لأبى العباس ابن عمار وهذا يكتب عنه ، قال ابن عمار [1] كان « مان » يألفنى ، وكان مليح الإنشاد حلوه ، رقيق الشعر غزله ، فكان ينشد فى الشىء ثم يخالط فيقطعه ، وكان يوماً جالسا إلى جنبى فأنشدنى للعريان البصرى قوله :

ما أنصفتك العيون لم تكف

وقد رأيت الحبيب لم يقف

إلى آخر القصيدة فسألته أن يمليها على ففعل ، ثم قال : أكتب فعارضه أبو الحسين المصرى يعنى مانا نفسه فقال :

أقفر مغنى الديار بالنجف

وحلت عما عهدت من لطف

طويت عنها الرضـــا مذممة

لما انطوى غصن عيشها الأنف

حللت عن سكرة الصـــبابة من

خوف إلهى بمعرك قذف

سئمت ورد الصبا فقد يبست

منى بنـــات الخدور والخذف

سلوت عن نهد نسبن إلى

حسن قوام واللحظ فى وطف

وتوفى هذا الرجل سنة خمس وأربعين ومائتين .

---

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ٨٤ .

لمحة عن أشهر الشعراء فى ذلك العصر

١ — سعيد بن عفير

هو سعيد بن كثير بن عفير بن مسلمة بن يزيد بن الأسود الأنصارى ويكنى بأبى عثمان ، ولد بمصر سنة ست وأربعين ومائة ، وأتم علومه الدينية بمصر ، ثم رحل إلى بغداد فالمدينة حيث سمع الموطأ من الامام مالك وعاد إلى مصر فروى الحديث عن الليث بن سعد ، وابن لهيعة ، وصار أحد المحدثين الثقاة ، وعنه أخذ البخارى والنسائى ، وابن عبد الحكيم وبكار بن قتيبه وغيرهم[1] وأخذ بحظ وافر من العلوم الأدبية فدرس علم الأنساب والتاريخ وحفظ أيام العرب ومآثرها ووقائعها، والمناقب والمثالب ، وكان فى ذلك كله عالماً كبيراً ، وكان أديباً فصيح اللسان حسن البيان ، لاتمل مجالسته . ولا ينزف علمه ، ويقال إن مصر لم تخرج أجمع للعلوم منه «[2] وكان عبد الله بن طاهر يقول: رأيت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء ، النيل والهرمين وابن عفير[3]» . وبجانب هذا كله كان الشاعر ذكياً سريع البديهة ، حاضر الجواب فقد حدثنا ابن زولاق أن المأمون لما قدم مصر سنة سبع عشرة ومائتين جلس بقبة الهواء وبحضرته سعيد بن عفير ، فقال المأمون : لعن الله فرعون حيث يقول : أليس لى ملك مصر ، فلو رأى العراق وخصبها!! فقال سعيد بن عفير : ياأمير المؤمنين لاتقل هذا فإن الله

---

(١) حسن المحاضرة فى مواضع متفرقة ، ومسالك الأبصار للعمرى فى باب المحدثين (نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

(٢) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٧٤ . (٣) البلدان للهمدانى ص ٦٨ .

عزوجل قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » فما ظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله هذا بقيته !! [١].

ويحدثنا السيوطي [٢] أن ابن عفير ولي قضاء مصر ولكني لم أجد له ذكراً بين القضاة في كتاب الكندي ، ولا في رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلاني ، ولكنه كان صديقاً للقضاة ، وكانوا يرجعون إليه في كثير من المسائل الفقهية ، ويثقون بشهادته ، كما كان أحد الذين جعل إليهم التحكيم في قضية أهل الحرس التي مر ذكرها ، كما كان له رأي في اختيار قاضي مصر سنة اثنتي عشرة ومائتين ، فقد قيل إن عبد الله بن طاهر أمر بإحضار وجوه أهل مصر ، فحضر عدد كبير بينهم سعيد بن عفير ، فطلب إليهم ابن طاهر أن يختاروا قاضياً من بينهم ، فرشح بعضهم أصبغ بن فرج الفقيه العالم ، فعارضه سعيد ابن عفير وقال : ليس هذا الرجل كما وصفت ، هذا رجل بذيء طويل اللسان ، وسجع سعيد في وصفه . فقام أصبغ فقال : إن الأمير أمر أن يحضر في مجلسه الفقهاء وأهل العلم لا الشعراء ولا الكهنة [٣] . من هذا الحديث نستطيع أن ندرك أن ابن عفير عرف بين معاصريه بالشعر ، وهجاه خصومه بذلك .

اتصل ابن عفير بالحوادث التي كانت في عهده ، وأنشد الشعر في كل الاضطرابات التي كانت في مصر إذ ذاك ، لاسيما ما كان منها

---

(١) فضائل مصر وأخبارها لابن زولاق (نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم ٦٦٩) .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٨ (٣) القضاة للكندي ص ٤٣٤ .

بين سنة ثمان وستين ومائة وسنة تسع ومائتين وقد ظهر فى شعره روح العصبية العربية وقد ذكرنا صوراً من شعره فى ذلك .

وكان ابن عفير رجلا كريم النفس لم يتملق رئيساً ، ولم يمدح أميراً بقصدالعطاء ، فلم يتكسب بشعره كغيره من الشعراء ، بل بالعكس من ذلك ، نراه قد هجا الوالى المطلب الخزاعى ومدح معارضه هبيرة ابن هاشم ، ورثا أبا بشر الأنصارى الذى قتله الوالى [١].

لم يصلنا كل شعر هذا الرجل وإنما هى مقطعات قصيرة صغيرة ، لا نستطيع أن نعرف منها شاعريته ، ولا أدرى كيف قال الأستاذ « جيست » أن رثاء ابن عفير أرقى ما وصل إليه الشعر العربى فى كتاب الكندى وأجمله »[٢]. ولكن الأستاذ « جيست » كغيره من المستشرقين لا يستطيعون أن يتذوقوا الشعر العربى مهما بلغ علمهم وثقافتهم فى العلوم العربية ، لأن ذوقهم الفنى متأثر بالبيئة التى هم فيها ، وخاضع لألوان الحياة التى يحيونها ، وهى تختلف تمام الإختلاف عن البيئة والحياة العربية ، والذوق لا يأتى بالعلم والدرس فقط بل هو خاضع قبل كل شىء لما يحيط بالناقد من ضروب الحياة ، فالمستشرق يستطيع أن يحكم على شعر أنشد بلغته وقد يكون دقيقاً فى حكمه ، حكيما فى نقده ، ولكنه لا يستطيع أن يحكم على شعر عربى لبعده من بيئة هذا الشعر ، ثم إن الأستاذ جيست قد حكم على الشاعر بهذه المقطعات القصيرة الصغيرة ، وهى عندى لا تكفى لأن ترينا رقة الشعر وجماله ، فالناقد لا يحكم على شاعر بقصيدة قالها ، وإلا كنا كالقدماء الذين كانوا يفضلون شاعراً على آخر لبيت قاله حتى سخر منهم مروان

---

(١) الكندى ص ١٥٦ . (٢) الكندى ص ٤٣ .

ابن أبي حفصة فقد قيل إنه كان يروى شعراً لزهير ، وقال زهير والله أشعر الناس ، ثم أنشد للأعشى ، وقال الأعشى ، أشعر الناس ثم أنشد لامرىء القيس وقال امرؤ القيس أشعر الناس ، ثم ضحك وقال : والناس والله أشعر الناس .

ومهما يكن من شيء فإن ابن عفير لم يكن شاعراً فحسب ، فقد كان عالماً محدثاً وفقيهاً ، وأظن أن علم الرجل يفسد فى كثير من الأحيان شعره إذا أخضع فنه لعلمه ، ويخرجه من الشعر الطبيعى إلى الشعر القريب من النظم ، لأن الشاعر العالم يخضع لعقله أكثر مما يخضع لعواطفه وشعوره ، أما إذا استطاع أن يخضع علمه لفنه فهنا نستطيع أن نتذوق الشعر الفنى القوى الذى لا يدانيه شعر آخر .

وتوفى سعيد بن عفير كما قال الذهبى سنة ست وعشرين ومائتين (١) .

٢ — المعلى الطائى

لا نعرف عن هذا الشاعر إلا شيئا قليلا ، ولم يتحدث عنه المؤرخون إلا بقدر لا يسمح لنا أن نعرف شخصيته ، وكل ما نعرفه أنه كان معاصرا لابن عفير ، ولكنه لم يبلغ من العلم ما بلغه صاحبه ، ويخيل إلىّ أنه انقطع إلى الشعر والتكسب به ، فقد مدح الولاة ، واتصل بهم جميعا ، ودافع عن سياستهم ، وهجا أعداءهم ، فكان كغيره من الشعراء المادحين المتكسبين بشعرهم ، فكان يمدح الوالى فاذا عزل الوالى يمدح من يأتى بعده ، وقد رأيناه يمدح المطلب الخزاعى وابن السرى ، ويحدثنا ابن سعيد فى كتابه

---

(١) تاريخ الاسلام للذهبى نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

« المغرب فى أخبار المغرب » أن المعلى ممن عاصر أبا نواس[1] ، فمن الجائز أن يكون قد اتصل بأبى نواس لما وفد هذا على مصر ، ولكنا لا نعلم تماما مدى هذا الاتصال إذ لم يصلنا شىء من أخبارهما ويروى ابن سعيد هذه الأبيات الشهيرة للمعلى :

لولا بُنيَّات كزُغب القطا ... جمعن من بعض إلى بعض

لكان لى مضطرب واسع ... فى الأرض ذات الطول والعرض

وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشى على الأرض

إن هبت الريح على بعضهم ... أشفقت العين من الغمض[2]

ولكن أبا تمام فى حماسته ينسبها لحطان بن المعلى[3] ، ورواها ابن عبد ربه منسوبة إلى المعلى[4] ولا أستطيع أن أجزم لمن هذه الأبيات وإن كنت أميل إلى الأخذ بقول أبى تمام لأنه كان معاصرا للمعلى .

ويخيل إلى أن المعلى الطائى كان صاحب لهو ومجون . ولعل هذه الأبيات القليلة التى رواها أبو الفرج فى الأغانى تؤيد أن المعلى كان يشرب الخمر كما كان يشربها كثير من الشعراء فهو يذكر الخمر بقوله :

باكر صبوحك صبحة النيروز

واشرب بكأس مترع وبكوز

---

(١) المغرب ص ١٠١ (٢) شرحه .

(٣) ديوان الحماسة ص ١٠١ مطبعة السعادة سنة ١٩١٣ .

(٤) العقد الفريد جـ ١ ص ٣٦٤ .

ضحك الربيع إليك عن نواره
آس ونسرين ومرماحوز (١)

٣ - الجمل الأكبر :

اسمه الحسين بن عبد السلام ، ويعد فى طليعة شعراء هذا العصر فقد تمتع بشهرة فائقة فى دولة الشعر ، واتصل بكثير من الأمراء والقضاة ، ولد سنة سبعين ومائة ، وتلقى العلم بمصر حتى إذا وفد الشافعى على مصر ، صحبه الجمل وأخذ عنه ولا نعلم شيئاً عن حياة هذا الرجل أيضا ، سوى أنه كان يتكسب بشعره ، فمدح الولاة وغيرهم ابتغاء الأموال والهبات ، فقد مدح المأمون بمصر ، كما مدح عبد الله بن طاهر ، وأكثر مدائحه التى وصلتنا أنشدها فى مدح القاضى محمد بن أبى الليث ، وظل الشاعر يعرض شعره على الأمراء حتى كان ابن المدبر فاتصل به ، ثم اتصل بأحمد بن طولون ، وخص به فاتخذه شاعره ونديمه ، وعرف عن الجمل شره فى الطعام ، وقذارة الثوب ودناءة النفس(٢) ولست أدرى كيف نعته ابن يونس بهذه الصفات ، فى حين أننا نجد الجمل يقول فى إحدى قصائده :

إذا أظمأتك أكف اللئام كفتك القناعة شبعا وريا
فكن رجلا رجله فى الثرى وهامة همته فى الثريا
أبيا لنائل ذى ثروة تراه بما فى يديه أبيا
فان إراقة ماء الحيا ة دون إراقة ماء المحيا(٣)

---

(١) الأغانى جـ ١٧ ص١٢٧ (٢) معجم الأدباء لياقوت جـ ٤ ص ٧٦
(٣) شرحه

ومن الجائز أن الجمل كان من الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون . وعرف الجمل بشيء من الظرف ، وشهد له بذلك ، فان ابن سعيد فى حديثه عن الجمل الأصغر قال : لقبه كلقب الأكبر وكذلك اسمه ، وكان ينحو فى الظرافة والتطايب منحاه »[١] .

وكما عرف الجمل بالمدح فقد عرف بالهجاء ، فقد روى أن الحسين بن عبد السلام بكر إلى سليمان بن وهب عامل الخراج بمصر ، فلم يمكنه الحاجب من الدخول ، وأدخل شاعرين آخرين هما ابن شعوة وحمدويه ؛ فلم يستطع الجمل صبراً ، وأرسل إلى سليمان أبياتا منها :

ولعمرى لئن حجبنا عن الشيـــخ فلا عن وجه هناك وجيه
لا ولا عن طعامه التافه النز ر الذى حوله لطام بنيه
بل حجبنا به عن الخسف والمســـخ وذاك التبريق والتمويه
فجزى الله حاجبا فظا كل خير عنا إذا يجزيه[٢]

وقد روينا له أبياتا كثيرة عن الحوادث التى كانت بمصر فى ذلك العصر وتوفى هذا الشاعر سنة ثمان وخمسين ومائتين من الهجرة .

---

(١) المغرب ص ١٠٢ (٢) العقد الفريد جـ١ ص ٤١ .

الفصل الثالث

الشعر فى عهد الطولونيين والأخشيديين

نستطيع أى نقدر لهذا العصر قيمته الأدبية إذا عرفنا أن الدولة العباسية اضمحل أمرها ، وفقدت سلطانها ، وانقسمت إلى دويلات صغيرة صار الأمر فيها إلى حكامها ، ولم يبق للخليفة العباسى إلا الدعاء فى الخطبة ، بل كثيراً ما كان الولاة يقطعون خطبة الخليفة العباسى ، فصار أمير كل دويلة مستقلا فى شئون دويلته . وتنافس الأمراء فيما بينهم ، فكان بينهم حروب ، وأراد كل أمير أن يعرف فضله ، وتعلى كلمته ، فشجع الأمراء العلم ، وحبب كل أمير إلى العلماء أن يفدوا عليه ، واتخذ الأمراء من الشعراء وسيلة لنشر سلطانهم وازدياد نفوذهم فأغروا الشعراء بالأموال والهبات ، وتنافس الشعراء فى خدمة الأمراء ، فكانت فى الأقطار الإسلامية نهضة شعرية كبيرة ، وابتدأ ظهور الشعر الإقليمى — إن صح أن نسميه كذلك — إذ ظهر فى الشعر عناصر الأقاليم المختلفة ، ومميزات الدول المتباينة ، وأصبح فى كل إقليم شعراء ، وحفظ كل إقليم الشعر الذى أنشد فيه ، فبعد أن كانت بغداد هى مركز الحياة الأدبية وقلبها النابض ، صار الشعراء يقصدون الأقاليم المختلفة كما كانوا يقصدون بغداد من قبل ، وأصبحت النهضة الأدبية متفرقة

فى الأقاليم ، وكثرت الرحلات العلمية إلى مختلف الأمصار ، وأكثر الأمراء عطاء ونوالا هو أعظمهم حظاً من وفود الشعراء والعلماء .

وكان الطولونيون بمصر أهل كرم وبذخ ، يعطون الأموال الكثيرة ، ويهبون الهدايا . ويمدون السمط لكل طارق ، واستقدموا الشعراء والأدباء ، وقربوهم ووصلوهم ، فكونوا حولهم بلاطا أدبيا أشبه ما يكون ببلاط خلفاء العباسيين ، فأنتجت هذه الحياة فى مصر أيام الطولونيين شعراً كثيرا ، واجتمع فى مصر عدد من الشعراء قل أن يجود الدهر بمثلهم حتى بالغ القاضى أبو عمرو عثمان النابلسى فى عددهم ، إذ نقل عنه المقريزى أنه قال فى كتابه « حسن السيرة فى اتّخاذ الحصن بالجزيرة » رأيت كتابا قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون قال : فإذا كان أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة كم يكون شعرهم؟[1] ومع ما فى هذا القول من مبالغة فإن بنى طولون جمعوا حولهم عددا كبيراً من الشعراء فكثر بذلك الشعراء المتكسبون ، فلم يأت الأمير أمرا إلا ظهر فى شعر الشعراء ، فمثلا فى الخلاف الذى كان بين أحمد بن طولون والموفق العباسى سنة تسع وستين ومائتين نجد شعراء ابن طولون قد دافعوا عنه ، ومدحوه لأنه خلع الموفق عن ولاية العهد ، وأمر بجهاده وحربه ، من ذلك ما قاله قعدان بن عمرو .

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ١٢٤ .

طال الهدى بابن طولون الأمير كما
يزهو به الدين عن دين وإسلام
قاد الجيوش من الفسطاط يقدمها
منه على الهول ماض غير محجام
فى جحفل للمنايا فى مقانبه
مكامن بين رايات وأعلام
يسمو به من بنى سام غطارفة
بيض وسود أسود من بنى حام
لو أن روح بنى كنداج معلقة [١]
بالمشترى لم يفته أو ببهرام
حاط الخلافة والدنيا خليفتنا
بصارم من سيوف الله صمصام
يا أيها الناس هبوا ناصرين له
مع الأمير بدهم الخيل فى اللام
ليست صلاة مصليكم بجائزة
ولا الصيام بمقبول لصيام
حتى يرى السيد الميمون ذبكم
عن الإمام بأطراف القنى الدامى [٢]

---

(١) يقصد الشاعر هنا إسحاق بن كنداج الذى أسر الخليفة المعتمد أثناء فراره من الموفق فى طريقه إلى ابن طولون (٢) الكندى ص ٢٢٧ .

وكقول الشاعر منصف بن خليفه الهذلى :

يا غرة الدنيا الذى أفعاله
غرر بها كل الورى تتعلق
أنت الأمير على الشام وثغرها
والرقتين وما حواه المشرق
وإليك مصر وبرقة وحجازها
كل إليك فؤاده متشوق
هتك الخلافة «صاعد» [1] وخليله
«اسحق» لعباً والحسود الأخرق
أسيافنا بيض المنون فليتها
بنجيع من خذل الإمام تخلق
تمسى وتصبح ضارباً من دونه
بمهند منه الحتوف تفرق
يتلوك «سعد» والمقدم «تيتك»
«واللاذقى» وذو الحفيظة يلحق [2]

وفى أيام خمارويه بن احمد بن طولون خرج خمارويه لحرب اسحق ابن كنداج سنة ثلاث وسبعين ومائتين فهزم ابن كنداج وتبعه خمارويه حتى بلغ «سر من رأى» فمدحه القاسم بن يحى المريمى

(١) هو صاعد بن مخلد الذى ساعد ابن كنداج فى أسر المعتمد .

(٢) الكندى ص ٢٢٨ وقد وردت الأبيات الثلاثة الأولى فى النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٠ غير منسوبة لاحد فى رثاء ابن طولون ، وهذا خطأ كما يفهم من الشعر .

أتانا أبو الجيش الأمير بيمنه
فشرد عنا الجور وافتقر العسر
فإن يكُ أرضُ الرقتين به اكتست
ضياء وإشراقا لقد أظلمت مصر
فسائل به إسحق إذ سار نحوه
بجيش كعرض النيل يقدمه النصر
فأبلس إذ قيل الأمير بسالس
وأضحى ضعيف العقد إذ عقد الجسر
ولما رأى الجيش ابن كنداج مقبلا
أرته المنايا الحمر أعلامه الحمر
فولى شديداً ذا ارتياع كأنه
بكل بلاد طائر ما له وكر
لئن سر إسحق النجاة بنفسه
لقد ساءه فى جمعه القتل والأسر
فلا يغبطن بالعيش من بعد هذه
فقد كسرته كسرة ما لها جبر[1]

وقد خص القاسم بن يحيى بن معاوية المريمى شعره فى مدح خمارويه وقال فيه كل مدائحه حتى سئل مرة أن يرحل عن مصر فقال :

وكيف رحيلى عن بلاد غدا بها
أبو الجيش والنيل الذى ملأ الأرضا[2]

---

(١) الكندى ص ص ٢٣٦ — ٢٣٧

(٢) الجزء الثالث من كتاب المغرب ، نسخة خطية بدار الكتب المصرية

وما كادت تدول دولة الطولونيين ، وتعود مصر مرة أخرى إلى حكم العباسيين سنة اثنتين وتسعين ومائتين حتى رأينا الشعراء يرثون الطولونيين ، ويأسفونَ على أيامهم الزاهرة ، بل نجد شاعراً هو سعيد القاص ينظم تاريخهم فى قصيدة أرى أن أثبتها هنا لما فيها من إشادة بأفعال الطولونيين ومنشآتهم

جرى دمعُـهُ ما بين سحْـر إلى نحر
ولم يجْـرِ حتى اسلمتـه يد الصبر
وبات وقيـداً للذى خامر الحشـا
يئن كما أن الأسـير من الأسر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى
يبيت على جمر ويضحى على جمر
تتابُـعُ أحداث يُضيِّـعْـن صبره
وغدر من الأيام والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الأنوف وجدعها
ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر
طوى زينة الدنيـــا ومصباح أهلها
بفقـد بنى طولون والأنجم الزهر
فبادُوا وأضحوا بعد عِـزٍّ ومنعة
أحاديث لا تخفى على كل ذى حِجْـر
وكان أبو العبـاس أحمد ماجـداً
جميل المحَيَّا لا يبيت على وتر

كأن ليالى الدهر كانت لحسنها
وإشراقها فى عصره ليلة القدر

يدُلّ على فضل ابن طولون همّةٌ
محلقةٌ بين السّماكينْ والغفر

فإن كنت تبغى شاهداً ذا عدالة
يخبّرُ عنه بالجلّى من الأمر

فالجبل الغربى خطة يشكر
له مسجد يغنى عن المنطق الهذر

يدل ذوى الألباب أن بناءه
وبانيه لا بالضنين ولا الغمر

بناه بآجر وساج وعرعر
وبالمرمر المسنون والجص والصخر

بعيد مدى الأقطار سام بناؤه
وثيق المبانى من عقود ومن جدر

فسيح الرحاب يحسر الطرف دونه
رقيق النسيم طيب العرف والنشر

وتنور فرعون الذى فوق قلة
على شاهق عال على جبل وعر

بنى مسجداً فيه يروق بناؤه
ويهدى به فى الليل إن ضل من يسرى

تخال سنا قنديله وضيائه
سهيلاً إذا ما لاح فى الليل للسفر

وعين معين الشرب عين زكيـة
وغير أجـاج للرواة وللطهر
كأن وفود النيـل فى جنباتهـا
تروح وتغدو بين مـد إلى جزر
فأرقـــــــأها (١) مستنبطاً لمعينها
من الأرض من بطن عميق إلى الظهر
بناء لو أن الجن جاءت بمثله
لقيل لقـد جاء بمستفظع نكر
يمر على أرض المعـافر كلها
وشعبان والأحمور والحى من بشر
قبائل لانوء السحاب يمدها
ولا النيل يرويها ولا جدول يجرى
ولا تنس مارستانه واتساعه
وتوسعة الأرزاق للحول والشهر
وما فيه من قوامه وكفاته
ورفقهم بالمعتفين ذوى الفقر
فللميت المقبور حسن جهازه
وللحى رفق فى علاج وفى جبر
وإن جئت رأس الجسر فانظر تأملا
إلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر

(١) فى القاموس أرقأ : أصلح وفسد من الأضداد .

ترى أثراً لم يبق من يستطيعه
من الناس فى بدو البلاد ولا حضر
مآثر لا تبـــلى وإن باد ربها
ومجـد يؤدى وارثيه إلى الفخر
لقد ضمن القـبر المقدر ذرعه
أجل إذا ما قيس من قبتى حجر
وقام أبو الجيش ابنـه بعد موته
كما قام ليث الغاب فى الأسل السمر
أتته المنـايا وهو فى أمن داره
فأصبح مسلوبا من النهى والأمر
كذاك الليالى من أعارته بهجة
فيالك من ناب حديد ومن ظفر
وورث هرون ابنه تاج ماجد
كذاك أبو الأشبال ذوالناب والهصر
وقد كان جيش قبـــله فى محله
ولـكن جيشا كان مستنقص العمر
فقـام بأمر الملك هرون مدة
على كظظ من ضيق باع ومن حصر
وما زال حتى زال والدهر كاشح
عقاربه من كل ناحية تسرى

تذكرتهم لما مضوا فتتابعوا
كما ارفض سلك من جمان ومن شذر
فمن يبك شيئا ضاع من بعد أهله
لفقدهم فليبك حزنا على مصر
ليبك بنى طولون إذ بان عصرهم
فبورك من دهر وبورك من عصر (١)

ولهذا الشاعر أيضا عدة قصائد فى مدح الطولونيين يصف فيها ازدهار الحياة فى مصر ، وقوة البلاد فى عصرهم وما كانت ترتع فيه من نعيم ورخاء .

على أن هؤلاء الشعراء الذين أكثروا من مدح الطولونيين وخلعوا عليهم هذه الصفات والألقاب الشعرية التى نراها دائما فى مدح شعراء العرب ، لم يلبثوا أن تحولوا إلى مدح الأمراء والولاة العباسيين الذى أبادوا ملك الطولونيين ، وأخرجوا قوادهم ومواليهم فخلت منهم الديار المصرية وأحلوا بالطولونيين التطريد والتشريد فنرى شاعرا كاسماعيل بن أبى هاشم قد مدح الطولونيين بعدة قصائد كقوله بعد أن دالت دولتهم :

قف وقفة بفناء باب الساج
والقصر ذى الشرفات والأبراج
وربوع قوم أزعجوا عن دارهم
بعد الإقامة أيما إزعاج

(١) خطط المقريزى جـ ٢ ص ١١٩ .

كانوا مصابيحا إذا ظلم الدجى
يسرى بها السارون فى الإدلاج
وكأن وجوههم إذا أبصرتها
من فضة مصبوغة أو عاج
كانوا ليوثا لا يرام حماهم
فى كل ملحمة وكل هيـاج
فانظـر إلى آثارهم تلقى لهم
علماً بكل ثنيـة وفجاج
وعليهم ما عشت لا أدع البكا
مع كل ذى نظر وطرف ساج(١)

هذا القول يظهر فيه الوفاء للطولونيين والإخلاص لهم ونراه قد استمر على وفائه وإخلاصه ، يدلنا على ذلك شعره فى ثورة محمد ابن على الخليجى (٢) وكان أحد جند الطولونيين الذين أسرهم محمد ابن سليمان القائد ، وسار بهم إلى الشام ، وفى دمشق حدثت نفس ابن الخليجى أن يعود إلى مصر ، ويعيد الطولونيين إلى ملكهم ، وكاشف بذلك بعض أصفيائه فأجمعوا كلمتهم على ذلك ، وساروا

(١) الخطط ج ٢ ص ١١٩ والكندى ص ١٣٢ — ٢٥٣ .

(٢) سمى هذا الرجل فى الكندى ص ٢٥٩ بابن الخليج وفى المقريزى ج ٢ ص ١٢٤ ، ولكن صاحب النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٩٢ سماه الخلنجى ، وفى مروج الذهب ج ٤ ص ٢١٧ سمى بالخليجى وكذلك فى تاريخ الطبرى ج ١١ ص ٣٩٣ والذى يصح عندى أنه ابن الخليج أو الخليجى لقول الشاعر فى مدحه :

وكان أبوك خليج العفاة ... وبحر الثغور التى عالها

معه حتى استولوا على الرملة باسم ابراهيم بن خمارويه ، واجتمع إليه خلق كثير سار بهم إلى مصر وهزم جيوش عيسى النوشرى الوالى حتى استطاع ابن الخليجى أن يستولى على الفسطاط فى ذى القعدة سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وأرسل الخليفة المكتفى بالله جيشا لقتاله وعليهم أبو الأغر خليفة بن المبارك وغيره فقاتلهم ابن الخليجى بمنية الأصبغ وهزمهم سنة ثلاث وتسعين ومائتين[١] فمدحه الشعراء منهم اسماعيل بن هاشم بقوله :

أميرنا يابن البهاليل الغرر ... شفيت من عدونا أبى الأغر
صدورنا وقيت من كل حذر ... إذ جاء فى الشوك إلينا والشجر
فى جحفل كموج بحر قد زخر ... يتبعه أهل البوادى والحضر
صبرت إذ لاقيته وما صبر ... فر فى أسرع من لمح البصر
يقطر منه بوله قطر المطر ... أحدث فوق سرجه وما شعر
شفيتنا من تركهم مع الخزر ... ثم عفا أميرنا لما قدر[٢]

فهو هنا قد حفظ وفاء الطولونيين ولكن من الجائز أن يكون الشاعر قد مدحه خوفاً منه ، ومع ذلك فقد مدح أحد صنائع الطولونيين وهو بخلاف الشاعر سعيد القاص ، فقد رأينا قصيدته التى تحدث فيها عن الطولونيين ، ومع ذلك فقد مدح القائد بدرا الحمامى الذى هزم ابن الخليجى سنة ثلاث وتسعين ومائتين بقوله :

حالت معارفهم إلى إنكار ... وغدا الخميس لهم بيوم بوار

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ س ١٥١ وما بعدها .
(٢) الكندى س ٢٥٩ .

وتقاطعوا وتدابروا وتنافروا وتلاعنوا فيهـا كأهل النار
وأتوك بين معـذر فى عذره خجل وبين مصرح الإقرار
وتزعزعت تلك الرماح فصورت
ركن المقطم فى شفير هـار
طلعت نجوم فى الرماح يروحها فسقطن إذ طلعت نجوم قدار
لما انجلى ذاك الغبار رأيتهم صرعى وقد لبسوا بريم غبار
فاسعد بنصر الله والفتح الذى
عظمت به النعمى على الأبرار (١)

فهذا شاعر متقلب فى مدحه يمدح ذا السلطان والإمرة دون نظر إلى مبدأ أو عقيدة مثله فى ذلك مثل الشاعر أحمد بن محمد الحبيشى الذى مدح القائد محمد بن سليمان الكاتب لما دخل مصر وانتزعها من أيدى الطولونيين — فقد أنشد هذا الشاعر قصيدة بائية تكاد تكون نفس قصيدة أبى تمام التى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

فالشاعر المصرى فى قصيدته أخذ معانى قصيدة أبى تمام وأودعها شعره بل أخذ ألفاظ أبى تمام وصنع منها قصيدته وفيها يقول :

الحمد لله إقراراً بمـا وهبا قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا
الله أصدق هذا الفتح لا كذب فسوء عاقبة المثوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيـا محمدهـا وفرج الظلم والإظلام والكربا
لا ريب رب هياج يقتضى دعة وفى القصاص حياة تذهب الريبا
رمى الإمام به عذراء غادرة فافتض عذرتها بالسيف واقتضبا

(١) الكندى ص ٢٦١ .

محمد بن سليمان أعزهم نفساً وأكرمهم فى الذاهبين أبا
سرى بأسد الشرى لو لم يروا بشرا أضحى عرينهم الخطى لا القضبا
حم القضاء على اليحموم حين أتوا مثل الدبى يمتحون الدبة الدأبا
إنها علوت على الأيام مرتبة أبا على ترى من دونها الرتبا
لما أطال بنو طولون خطبتهم من الخطوب وعافت منهم الخطبا
هارت بهرون من ذكراك بقعته وشيب الرعب شيباناً وقد رعبا
وكم ترى لهم من جنة أنف ومن نعيم جنى من غدرهم عطبا
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأنها من زمان غابر ذهبا(١)

ولأترك مقارنة هذه القصيدة المصرية بقصيدة أبى تمام المعروفة التى أنشدها فى مدح المعتصم ويذكر فيها فتح عمورية إذ ليس هنا مجال البحث عن ذلك وأكتفى بالإشارة إليها، وأعود إلى الشاعر أحمد ابن محمد الحبيشى فأقول إنه كغيره من الشعراء الذين يمدحون أصحاب السلطان ويتغيرون بتغير الولاه والأمراء فهو فى هذه القصيده مدح عدو الطولونيين فلما استولى ابن الخليجى على مصر وأراد أن يعيد ملك الطولونيين نراه قد مدح الأمير لانتصاره على جيوش العباسيين بقوله:

غضبت لمصر وما نالها وشردت بالخوف من غالها
تلافيتها بعد إدبارها وأقبلت تطلب إقبالها
وكادت تؤوه شوقاً إليك وتظهر بالشوق بلبالها
وما شوقها كان من طبعها ولكن ربك أوحى لها
لقد فرج الله كرب النفوس وبلغها فيك آمالها
ولما رأيناك فى مصرنا منحنا الإمارة إجلالها

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ١١٨ والكندى ص ٢٤٨ .

وما زلت تطلبها همة وتركب بالسيف أهوالها
وتعلم نفسك أن الأمور إما عليها وإما لها
تمنوا لقاك فلما رأوك رأوا للمنية إظلالها
ومروا يطيعون فى كل شىء رأوه المنايا وإنزالها
وكان أبوك خليج العفاة وبحر الثغور التى عالها
به كانت الروم فى أمنها تفزّع للذنب أطفالها [1]

نستطيع من ذلك كله أن ندرك أن عدداً كبيراً من الشعراء ظهروا فى هذا العصر ، وأنشدوا شعراً فى مدح الأمراء وأن كثيراً منهم تقلب فى المدح بتقلب الأحوال السياسية فى البلد ، إذا لا همّ لأمثال هؤلاء الشعراء إلا إرضاء الأمير مهما كان هذا الأمير .

على أنه وجد بعض الشعراء الذين اتخذوا لأنفسهم رأياً خاصاً ، ومذهباً دافعوا عنه غير آبهين بأمير أو سلطان ؛ فى الوقت الذى كان فيه احمد بن طولون فى منتهى قوته واتساع سلطانه ، وفى الوقت الذى تقرب فيه الشعراء اليه وحاولوا إرضاءه وطمعوا فى نواله وتحدثوا عن نعمه وأياديه على البلاد ، فى هذا الوقت نجد شاعراً من شعراء الطولونيين هو محمد بن داوٌد قد أكثر من هجاء ابن طولون فلم يأت الأمير عملا إلا هجاه هذا الشاعر حتى إذا أقام الأمير المنشئات النافعة نجد الشاعر قد اتخذ هذه المنشئات وسيلة لهجاء الأمير دون خوف ، فمثلا بنى الأمير المارستان سنة تسع وخمسين ومائتين فهجاه الشاعر محمد بن داوٌد بقوله :

---

(١) الكندى ص ١٦٠ .

ألا أيها الأغفال إيها تأملوا
وهل يوقظ الأذهان غير التأمل
ألم تعلموا أن ابن طولون نقمة
تسير من سفل إليكم ومن عل
ولولا جنايات الذنوب لما علت
عليكم يد العلج السخيف المجهل
فياليت مارستانه نيط باسته
وما فيه من علج عتل مقلل
فكم ضجة للناس من خلف ستره
تضج إلى قلب عن الله مغفل(١)

ولما بنى أحمد بن طولون المراكب الحربية واتخذ الحصن فى الجزيرة هجاه الشاعر بن داوٗد بقوله .

لما ثوى ابن بغا بالرقتين مــلا
ساقيه زرقا إلى الكعبين والعقب
بنى الجزيرة حصنا يستجن به
بالعسف والضرب ، والصناع فى تعب
وراقب الجيزة القصوى تخندقها
وكاد يصعق من خوف ومن رعب
له مراكب فوق النيل راكدة
فما سوى القار للنظار والخشب

---

(١) شرحه .

يرى عليها لباس الذل منذ بنيت
بالشط ممنوعة من عزة الطلب
فما بناها لغزو الروم محتسباً
لكن بناها غداة الروع للهرب[1]

وظل هذا الشاعر يهجو أحمد بن طولون حتى توفى الأمير فلم يقلع عن هجائه بل رماه بأشد أنواع الهجاء ولم يتورع عن بسط لسانه فى الأمير حتى بعد وفاته من ذلك قوله :

مضى غير مفقود وما كان عمره
سوى نقمة للخلق شنعاء صيلم
لقد زيد فى اليحموم بالرجس لعنة
ولم يسق بالمرجوس ترب المقطم
ولم تبكه الأرضون لكن تبسمت
سروراً ولولا موته لم تبسم
يبشره إبليس عند قدومه
عليه بأحمى بقعة فى جهنم
لقد طهرت الأرض من سوء فعله
ومن وجهه ذاك الكريه المورم
فلا سقيت أجداثه صوب مزنة
وأنى وفيها شر أولاد آدم[2]

---

(١) خطط المقريزى ج ٣ س ٢٩٣ والكندى س ٢١٨ .
(٢) الكندى س ٢٣٢ .

ولا أدرى سبب هذا الهجاء الذى لا أكاد أعرف مثيلا له فى الهجاء العربى فإن الشعراء كانوا أمام حرمة الموت يتورعون عن هجاء الموتى، لكن هذا الشاعر المصرى كان موتورا - كما يخيل إلى - فلم يكفه أن يظهر فرحه لموت الأمير بل هجاه بهذه الأبيات وبغيرها مما يدل على أن المصريين فى هذا العصر اتخذوا الشعر وسيلة لهجاء الموتى وهو الأمر الذى لم نره فى شعر المصريين قبل ذلك العصر .

وفى هذا العصر أيضاً ظهر فى الشعر المصرى فن لم نجد له مثيلا فى العصور السابقة ، بل لا نجد له مثيلا فى الشعر العربى إلا فى شعر الأندلسيين ، فمؤرخو الأدب العربى قالوا إن الأندلسيين امتازوا برثاء الممالك والبلدان كلما اختطف عدوهم منها شيئاً ، وأشاد مؤرخو الأدب بقصيدة ابن عبدون الأندلسى التى رثا بها دولة بنى الأفطس والتى مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور

ومن يقرأ الشعر المصرى فى هذا العصر يجد أن هذا الفن كان معروفا فى مصر ، وأن شعراء مصر أكثروا فى الحديث عنه ، فبعد أن دالت دولة الطولونيين ، وعاد الأمر إلى الخليفة العباسى ودمرت القطائع ، وخرب الميدان قام شعراء مصر يرثون أيام الطولونيين ، وما بنوه ، ويعددون مفاخرهم ، ويصفون دورهم ، ويأسفون على ما لحق هذه المنشآت الجليلة من التدمير والخراب ، والترحم على الأيام الجميلة التى قضوها بين هذه المبانى مثل قول الشاعر محمد بن طشويه :

من لم ير الهدم للميدان لم يره ... تبارك الله ما أعلاه وأقدره
لو أن عين الذى أنشاه تبصره ... والحادثات تعاديه لأكبره
كانت عيون الورى تغشى لهيبته ... إذا أضاف إليه الملك عسكره
أين الملوك التى كانت تحل به ... وأين من كان بالإتقان دبره
وأين من كان يحميه ويحرسه ... من كل ليث يهاب الليث منظره
صاح الزمان بمن فيه ففرقهم ... وحط ريب البلى فيه فدعثره
وأخلق الدهر منه حسن جدته ... مثل الكتاب محا العصران أسطره
دكت مناظره واجتث جوسقه ... كأنما الخسف فاجاه فدمره
أو هب إعصار نار فى جوانبه ... فعاد معروفه للعين منكره

كم كان يأوى إليه فى مقاصره
أحوى أغن غضيض الطرف أحوره

كم كان فيه لهم من مشرب غدق ... فعب طرف الردى فيه فكدره
أين ابن طولون بانيه وساكنه ... أماته الملك الأعلى فأقبره
ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكر ... طوبى لمن خصه رشد فذكره(١)

وقال اسماعيل بن أبي هاشم:

يامنزلا لبنى طولون قد دثرا
سقاك صوب الغوادى القطر والمطرا

يامنزلا صرت أجفوه وأهجره ... وكان يعدل عندى السمع والبصرا
بالله عندك علم من أحبتنا ... أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا(٢)

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ١٢١ والكندى ص ٢٦٣ .
(٢) شرحه ج ٢ ص ١٢٢ والكندى ص ٢٦٦ .

وكقصيدة سعيد القاص التى مر ذكرها ، فمن ذلك نستطيع أن ندرك أن الشعراء المصريين أخذوا بنصيب وافر من هذا الفن الذى لم يكثر فيه غيرهم من شعراء الشرق ، كما يدلنا ذلك أيضاً على تطور الشعر فى مصر ، فبعد أن كان الشعر المصرى فى العصور السابقة يكاد يكون صورة من الشعر العربى فى الأقطار الأخرى من حيث المعانى والخيال مع اختلاف المعانى والخيال باختلاف الحياة المصرية ، وبعد أن كان الشعر شعر مناسبات — إن صح هذا التعبير — أصبح الشعر فى عصر الطولونيين والإخشيديين يأخذ مظهراً آخر لم نعرفه من قبل . وقد رأينا الشعراء فى العصر السابق يأخذون بحظ وافر من الثقافات المختلفة ، وبعضهم صاحبوا أئمة الفقه وأخذوا عنهم ، تطور الشعراء فى عصر الطولونيين فقد ترك أكثرهم العلم ، واهتموا بالفن الشعرى والتكسب به ، حقيقة وجد بعض الشعراء فى ذلك العصر أتقنوا كثيراً من فنون العلم ، فكان منهم الكتاب أمثال جعفر بن محمد ابن جدار وصالح بن رشدين وغيرهما ، وكان منهم المؤلفون أمثال ابن الداية الذى تحدثنا عنه ، والحسن بن على الأسدى صاحب كتاب الأنيس الذى وصفه بقوله :

فيه ما يشتهى الأديب من العـــ
ـــلم وفيه جلاء هم النفوس
فيه ماشئت من بدور معان
ضاحكات إلى وجوه شموس [١]

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي جـ ١ ص ٣٢٧ .

كما كان بين شعراء ذلك العصر بعض الفقهاء أمثال منصور الفقيه والحداد القاضى ، ومنهم المتكلمون كابن الجبى الشهير بسيبويه المصرى ، وبالغ بعضهم فى إطالة القصائد كالذى يروى عن قصيدة محمد بن أحمد بن الربيع بن سليمان الاسوانى التى لا يعلم فى الوجود أطول منها ، سئل قبل موته بسنتين كم بلغت قصيدتك إلى الآن قال : ثلاثين ومائة ألف بيت وقد ضمن قصيدته هذه كثيراً من الأخبار وقصص الأنبياء وبعض العلوم والآراء الفقهية وعلوم الطب (١) وبالرغم من وجود هؤلاء الشعراء العلماء كان أكثر شعراء ذلك العصر يهتمون بالشعر دون غيره .

وفى الشعر المصرى فى هذا العصر كثير من الحكم والأبيات التى جرت مجرى الأمثال ، وكثير من أشعار الزهد كالتى نراها فى أشعار منصور الفقيه وابن طباطبا وغيرهما .

أثر اللهو فى الشعر :

والظاهرة التى يجب أن نلاحظها على شعراء هذا العصر هى انغماس الشعراء فى تيار اللهو والمجون ، فقد غمرهم الترف ، فأخذوا بحظ وافر منه ، وكثر المجون فى هذا العصر ، وازداد بازدياد ثروة البلاد ، فرغب الشعب المصرى فى هذه الحياة الماجنة ، والمصرى بطبيعته ميال إلى الفكاهة والدعابة ، وإذا ذكر فى العراق جماعة أبى نواس ففى مصر جماعة محمد بن عاصم وسعيد بن فاخر قاضى البقر شاعر الأخشيد ، وأبى هريرة بن أبى العصام وغيرهم .

---

(١) فوات الوفيات للصفدى جـ ١ ص ٤٤٤ نسخة خطية بالمكتبة التيمورية

وقد ساعد على وجود هذه الحياة بمصر بذخ الأمراء وإسرافهم وأخذهم بحياة النعيم وشرب الخمر والإسراف فى شربها وسماع الغناء واللهو بالجوارى والقيان كما كان يفعل خلفاء بنى العباس .

فأحمد بن طولون مع تمسكه بأهداب الدين ، وكثرة علمه ، وما كان يؤثر عنه أنه كان يبكر كل يوم فيخرج لسماع قراءة الأئمة فى المحراب[1] كان مع ذلك كله يشرب الخمر ويسمع الغناء ، ويقرب المغنين .

حدثنا ابن الداية قال : قال أحمد بن أيمن : كنا عند أحمد بن طولون فقال لـكنيز المغنى أشتهى صوتا ما سمعته منذ خرجت من « سر من رأى » فقال : وما هو يا سيدى ؟ فقال هذا البيت :

ألا شفيتم غليلا لا أفارقه نفسى فداؤك من ذى غلة صادى

فحملنى النبيذ وما استهوانى من تقريب أحمد بن طولون وإيناسه على أن قلت : أنا أحسنه !! ففرح ابن طولون ، واندفعت أغنيه إياه — وكان أحمد بن أيمن ذا جثة عظيمة ، وعقيرة جهيرة حسنة الإيقاع — فطرب طربا شديدا ثم صفق بيديه ، فسبقته إلى سخف الطرب ، وقمت فرقصت على إيقاع اللحن فزاد سروره[2] .

وعرف خمارويه بن أحمد بن طولون باللهو والمجون ، والبذخ فى الحياة والإسراف فى الشراب حتى حدثنا التنوخى أن خمارويه كان إذا قعد للشرب يشرب أربعين رطلا من نبيذ مصر المعروف

---

(١) الأذكياء لابن الجوزى ص ٤٩ (طبعة سنة ١٢٧٧ هـ) .

(٢) سيرة ابن طولون لابن الداية ص ٤٩ .

بالشبروى ، ومن يشرب منه رطلا يستطيع أن يشرب من غيره أرطالا[١] ، وهذا لا شك إسراف من التنوخى أيضا ، ولكنه يدلنا على أن خمارويه كان كلفا بالشراب . ووجد بعض البلدان عرفت بصنع الخمور كمدينة أبوان (بالقرب من دمياط) كان أهلها نصارى ويعمل فيها الشراب الفائق فينسب إليها فيقال بونى[٢] .

ولا ننسى الأديرة الكثيرة التى كان ينزح إليها الشعراء وغيرهم من أصحاب اللهو والمجون ، فكما كان العراقيون يذهبون إلى دير عبدوس وغيره من الأديرة . كذلك ذهب المصريون إلى دير القصير ودير نهيا ودير ما رحنا وغيرها ، وكان خمارويه يذهب إلى دير القصير إذ بنى لنفسه غرفة فى أعلى الدير ذات أربع طاقات إلى أربع جهات ، وكان يذهب إلى هذا الدير مظهرا إعجابه بصورة مريم العذراء التى كانت فى هيكل الدير ، ويشرب على النظر إلى هذه الصورة[٣] . وكان الشعراء يذهبون إلى هذا الدير ، ووصفوه فى شعرهم ، وذكروا طيبه ونزهتهم به ، ثم لهوهم ومجونهم وأيامهم التى قضوها فيه . من ذلك قول أبى هريرة بن أبى العصام وكان من شعراء الأخشيديين وعاش حتى أوائل حكم الفاطميين .

كم لى بدير القصير من قصف

مع كل ذى صبوة وذى ظرف

---

(١) نشوار المحاضرة للتنوخى ص ٢٦١ .

(٢) معجم البلدان جـ ١ ص ٩٣ .

(٣) ورقة رقم ١٢٤ من كتاب الديارات لأبى الحسن الشابشتى نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

لحوت فيه بشادن غنج

يقصر عنه بدائع الوصف[1]

ويحدثنا المقريزى أن الحاكم بأمر الله الفاطمى أمر بهدم هذا الدير فى رمضان سنة أربعمائة . أما دير مارحنا فقد كان على شاطىء بركة الحبش وبقربه بئر تعرف ببئر نجاتى عليها جميزة يجتمع الناس إليها ويشربون عندها[2] ومن الشعراء الذين كانوا يذهبون إلى هذا الدير الشاعر العباس بن البصرى ، قال عنه الشابشتى : وكان ابن البصرى هذا من الخلعاء المجان ، وله شعر يجرى مجرى الهزل والطيب ، وخدم أبا القاسم أونوجور بن الأخشيد فأحسن إليه وكساه ، وصار يركب معه ، وكان يلبس طيلساناً أزرق يتشبه بالقضاة ، وكان أونوجور قد حمله على برذون أصفر غليظ بطىء السير ، فكان إذا سار مع أقوام من إخوانه قال لهم : صفوا لى موضعكم حتى ألحق بكم ! وكان مليح المجالسة كثير النادرة ، وكان يبيع الصيدلة فى مسجد عبد الله بمصر[3] . وقد قال هذا الشاعر فى دير مارحنا :

يا حامل الكأس أدرها واسقنى

قد ذعر الشوق فؤادى فانذعر

أما ترى البركة ما أحسنها

إذ تداعى الطير فيها فصفر

أما ترى نوارها أما ترى

حسن مسيل مائها إذا انحدر

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ج ١ ص ٣٢١ .

(٢) ورقة ١٢٦ من كتاب الديارات (٣) ورقة ١٣٠ من كتاب الديارات

كأنما صفر الدنانير بهـــا
مبذولة ليس بها من متجر
كأنما الجوهر فى ألوانـــه
نثر فى تلك النـــواحى فانتثر
كأنما كف جواد ولعت
فى ذلك الروض بتبديد البدر
وابيض النرجس فى أجفـانـه
دمع الندى لولا التشاجى لقطر
ونظـــرة الورد إلى أترابـــه
نظرة معشوق بلحظ منكسر
دعنى فـــا أملك إلا بالجوى
ما عيشة العاشق إلا فى كدر (١)

ولابن البصرى شعر كثير فى الأديرة التى كانت بمصر ولاسيما فى دير نهيا بالقرب من الجيزة ، قال ابن فضل الله العمرى عن هذا الدير « وديرها (أى دير نهيا) هـذا من أطيبها موضعا ، وأجلها موقعا ، عامر برهبانه وسكانه ، وله فى النيل منظر عجب ، لأن المـاء يحيط به من جميع جهاته ، ويزيد فى حسن متنزهاته ، فإذا تصرف الماء أظهرت أرضه غرائب النوار ، وعجائب الزهور المشرقة الأنوار وله خليج ينساب انسياب أرقم ، وعليه شطوط كأنها بالديباج ترقم »(٢) وفى هذا الدير قال ابن البصرى :

(١) ورقة ١٢٨ من كتاب الديارات .
(٢) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٦٢ .

يا من إذا سكر النديم بكأسه
غريت لواحظه بسكر الفيق
طلع الصباح فأسقنى تلك التى
ظلمت فشبه لونها بالزنبق
والق الصباح بنور وجهك إنه
لا يلتقى الفرحان حتى نلتقى
قلبى الذى لم يبق فيه هواكم
إلا بقيـــة نار شوق قد بقى
أو ما ترى وجه الربيع وقد زهت
أنواره بنهـــاره المتـــألق
وتجاوبت أطيـــاره وتبسمت
أشجاره من ثغر زهر مورق
لم يغـدها طل الرذاذ ببرده
حتى تفتح كل جفن مطبق
والبـدر فى وسط السماء كأنه
وجـه مليح من قنـاع أزرق
يا للديارات المـــــلاح وما بها
من طيب يوم مر لى بتشوق
أيام كنت وكان لى شغل بها
وأسير شوق صبابتى لم يطلق
يادير « نهيا » ما ذكرتك ساعة
ألا تذكرت الشباب بمفرقى

والدهر غض والزمان مساعد
ومقامنـــا ومبيتنا بالجوسق
يادير «نهيا» إن ذكرت فإنني
أسعى إليك على الخيول السبق
وإذ سئلت عن الطيور وصيدها
وجنوسها فاصدق وإن لم تصدق
فالغرّ فالكروان فالقارور إذ
يشجيك فى طـــيرانه المتحلق
أشهدت حرب الطير فى غيطانه
لما تحرق منـــه كل محرق ؟
والزمج الغضبان فى رهط له
ينحط بين رعد ومـــبرق
ورأيت للبازى سطوة موسر
ولغــيره ذل الفقير المملق
كم قد صبوت بغرتى فى شرتى
وقطعت أوقاتى برمى البنـــدق
وخلعت فى طلب المجون حبائلى
حتى نسبت إلى فعال الأخرق
ومهاجر ومكاسر ومنـــافر
قلق الفـــؤاد به وإن لم يقلق
لو عاين التفـــاح حمرة خده
لصبا إلى ديباج ذاك الرونق

يا حامل السيف الغداة وطرفه
أمضى من السيف الحسام المطلق
ارفق بعبدك لا تطل أشجانه
وارفق به ياصاحب الثغر النقى[١]

ولم يقتصر اللهو على أن يصف الشعراء هذه الأديرة بهذا الوصف الجميل الرقيق ، وذكر الطرد والصيد كالذى رأيناه فى قصيدة ابن البصرى السابقة ، بل نجد كثيراً من الشعراء يصفون مجالس الخمر ويذكرون مجونهم وفحشهم ويعرضون بالدين ، فمثلا الشاعر سعيد بن فاخر المعروف بقاضى البقر وكان شاعر الأخشيد وابنه[٢] قال :

حى على الكأس فى الصباح مطرحا نصح كل لاح
وانتهب العيش ما تأتى فأنت منه على جناح
وأجرنى من عقول قوم عموا عن الشرب والملاح
يارب دعنى بلا صلاح يارب ذرنى بلا فلاح
يدى مدى الدهر فوق ردف وراحتى تحت كأس راح[٣]

فهذا الشاعر المصرى الذى أنشد مثل هذا الشعر لا يقل فى الفجور والعبث عن أشد شعراء العراق مجوناً وفسقاً ، فهو هنا قد تهكم بالدين ودعا الله أن يديم عليه ذلك التهاون بالدين مما يدل على أن حياة اللهو كان لها أثر كبير فى شعراء ذلك العصر .

لم يكن قاضى البقر وحده الذى أنشد مثل هذا المجون والفحش بل نجد الشاعر أبا هريرة أحمد بن أبى العصام وهو من شعراء أواخر

(١) ورقة ١٢٩ و ١٣٠ من الديارات .
(٢) المغرب فى حلى أخبار المغرب ص ١٠٣ (٣) المغرب ص ١٠٣ .

الدولة الأخشيدية ، وقيل إنه عمر حتى شاهد عصر الحاكم بأمر الله الفاطمى ، قد انهمك فى اللذات ، وأسرف فى اللهو ، وأدمن على الشراب ، فوصف الخمر ومجالس اللهو ، وكان كزميله قاضى البقر متهاونا فى دينه ، لم يخش صاحب زندقة ولا سلطان أمير ، وكان كزميله يتهكم بالدين ، بل هو أشد تهكمامن زميله بفرائض الإسلام :

مجلس لا يرى الإله به غيـــــــــر مصل بلا وضوء وطهر
سجد للكؤوس من دون تسبيـــــــح سوى نغمة لعود وزمر [(1)]

إذن ظهر اللهو والمجون فى الشعر المصرى فى هـذا العصر ، ولم يبال الشاعر المصرى بالشعور الدينى الذى كان يسود البلاد . ونعجب إذا عرفنا أن مثـل هذا الشعر صـدر عن شعراء على اتصـال وثيق بالأمراء فهل نفهم من ذلك أن أمراء مصر فى هـذا العصر تهـاونوا بالدين إلى حد أنهم سمحوا للشعراء المتصلين بهم أن يعبثوا وينشدوا مثل هذه الأشعار ! !

الواقع أن أمراء مصر فى ذلك العصر قد أكثروا من الترف والنعيم وأرادوا أن يتمثلوا بخلفاء العباسيين فى لهوهم ومجونهم ، وشاركهم الشعراء والكتاب فى اللهو ، وإن كان الشعور الدينى ، والتمسك بأهداب الدين يعم البلاد ، يحدثنا المقريزى أن احمد بن طولون كان قد اتخذ حجرة بقربه فيها رجال سماهم المكبرين ، يبيت منهم فى كل ليلة أربعة يتعاقبون الليل ، ويكبرون ويسبحون ، ويقرأون القرآن تطريباً بألحان ، ويتوسلون بقصائد زهدية ، فلما ولى خمارويه أقرهم على حالهم ، وأجراهم على رسمهم ، وكان يجلس للشرب مع

(١) المغرب ص ١٩٤ .

حظاياه فى الليل وقيانه تغنين ، فإذا سمع أصوات هؤلاء يذكرون الله والقدح فى يده ، وضعه بالأرض وأسكت مغنياته ، وذكر الله معهم حتى يسكت القوم ، لا يضجره ذلك ولا يغيظه أن قطع عليه ما كان فيه من لذة بالسماع[1] مما يدل على أن الشعور الدينى كان متغلغلا فى نفس الأمير ولكنه كان يأخذ بحظه من اللهو . وشارك الشعراء أمراءهم فى هذا اللهو وأخذ الشعراء يدعون بعضهم بعضا على مجالس اللهو كما كان يفعل شعراء العراق ، فالشاعر المصرى عبد الله بن محمد بن أبى الجوع — وكان من شعراء الأخشيديين وعاش إلى أوائل الدولة الفاطمية ، وصادق أبا الطيب المتنبي فى مصر وروى عنه ، وكان من أكبر علماء اللغة فى عصره — دعا بعض إخوانه بقوله :

شعبان قد صار نضوا ... ولم نفد فيه لهوا
وليس ذلك منا ... جهلا ولا كان سهوا
فبالمـــــودة إلا ... بكرت للقصف عدوا
حتى نقوم فنرفوا ... ما خرّق الدهر رفوا
من بعد تقديم جدى ... مسمّن ظل يشوى
له ثلاثون يوما ... يحبو إلى الضرع حبوا
لما انتزعت حشاه ... عوضته البقل حشوا
وقد عنيت بجام ... ملأته لك حلوى
وقهـــــوة بنت كرم ... صفت من الذم صفوا
ما شعشعت قط إلا ... سطت على الهم سطوا

---

(١) الخطط جـ ٢ ص ١٠٩ .

جنبتها كل وغد يمحو المحاسن محوا
إلا إذا ما اقتنصنا عذب الخلائق حلوا
وشادن ذى دلال يشدوا فيلهيك شدوا
إما غنـــاء وإما عجائبا عنه تروى
حتى تظل بمـــا فيـــه من وقارك خلوا
وعنـــدنا لك ورد يحدو المسرة حدوا
ريحانه لا يوازى لونا وعطرا وسروا
فما اعتذارك فى أن تفنى زمانك صحوا
وأنت بعـــد قليل بالصوم والله تطوى[1]

وهكذا أصبح الشعر المصرى أداة للمراسلة بين الأصدقاء .

وبالشعر وصف الداعون ما أعدوا للزائرين من ألوان الأكل والشرب وما يتبع ذلك من ألوان اللهو والطرب . وهذا كله يدلنا على تطور الحياة المصرية ، وتطور الشعر بتطور الحياة نفسها .

* * *

الطبيعة فى الشعر المصرى :

ويظهر تطور الشعر المصرى فى هذا الفن الذى أجاده كثير من شعراء مصر فى ذلك العصر ، وهو فن الوصف ، فالطبيعة وما فيها من جمال بعثت على إغراء الشعراء على وصفها ، وشعراء مصر الذين لم يكن لهم نصيب فى وصف جمال الطبيعة قبل عصر الطولونيين أو قل إنه لم يصلنا عنهم شىء فى الوصف قبل عصر الطولونيين ،

---

(١) يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣١٤ .

أصبح عندهم وصف الطبيعة فنا يقصد لذاته ، بعد أن صقلت الحياة الجديدة مزاج الشعراء وصفت قريحتهم ، ولعل الشاعر ابن طباطبا العلوى كان أقدر شعراء مصر فى هذا العصر على الوصف ، وكان له من فنه بل من حياته ما جعله فى طليعة شعراء الوصف ، فهو شاعر قال الشعر حبا فى الفن الشعرى ، وعن طبيعة رجل فنان ، ولم يقصد لغرض آخر سوى اللذة الفنية ، فاستطاع أن يمتع نظره وحواسه بما حوله من الطبيعة ، وما فيها من جمال وبهاء فتأثر بما رآه ، وأنشد الشعر تحت تأثير جمال الطبيعة الذى فتن به . وأخذ فى تشبيه الموصوف وسبغ عليه من الخيال ، وألبسه ثوبا يتفق مع مزاجه الشعرى الفنى ، ففى وصفه للهلال قال :

وكأن الهـــــلال لمـا تبدى
شطر طوق المرآة للتـذهيب
أو كقوس قد انحنت أو كنؤى[١]
أو كنون فى مهرق مكتوب[٢]

ووصف البركة بقوله :

كم ليلة ساهرت أنجمها التى
عرصات[٣] أرض ماؤها كسمائها
قد سيرت فيها النجوم كأنمـا
فلك السماء يدور فى أرجائها

(١) النؤى : الحفير حول الخباء أو الخيمة لمنع السيل (٢) المغرب ص ٥٠ .
(٣) عرصات وعراص وأعراص جمع عرصة كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء

أحسن بها بحراً إذ التبس الدجى
كانت نجوم الليـل من حصبائها
ترنو إلى الجوزاء وهى غريقة
تبغى النجاة ولات حين نجائها
تطفو وترسب فى اصطفاق مياهها
لا مستعان لها سوى إيمائهـــا
والبـــدر يخفق وسطها فكأنه
قلب لها قد ريع فى أحشائها (١)

وقد ذكرنا كيف كان شعراء مصر يذهبون إلى الأديرة وغيرها من أماكن اللهو، وكيف كانوا يصفون هذه البقاع، ويتحدثون بطيبها وجمالها، ويترنمون بجمال طبيعتها، مما يدلنا على أن شعراء هذا العصر قد دقت شعورهم، ورق فنهم، فوصفوا الطبيعة وجمالها ولا أشك أن شعراً كثيراً قد أنشد فى الوصف، ولكن هذا الشعر فقد، ولم يبق منه إلا أبيات قليلة، وهى إن دلت على شىء فهى تدل على أن الشاعر المصرى نظر حوله فرأى مالم يره غيره، فأوحى إليه الشعر، ووصف ما رآه وما جال فى خاطره، وصفا قربه إلى الطبيعة فأدركها، وفى هذا اللون من الفن يتجلى فن الشاعر المرهف الحس، الدقيق الشعور، الطبيعى الشعر. وهذا اللون نجده يغلب على شعراء هذا العصر مما يميزهم عن شعراء العصور السابقة فإنا لم نعهد شاعرا من شعراء العصور السابقة قال مثل الذى أنشده الشاعر صالح بن موسى فى وصف البركة.

(١) حلبة الـكميت ص ٣٣٩ (مطبعة الوطن س ١٢٩٩ هـ).

أو ما ترى حسن الريا ض وما اكتسين من الزهر
وجه الربيع وحبذا وجه الربيع إذا ظهر
الوشى ينشر والملا حف والمطارف والحبر
هذا البنفسج فى الحدا د بغير حزن قد ظهر
وأتى البهار بصفرة فلكل حسن قد بهر
وكأن آذريونه كاسات خمر تبتدر
وكأنما المنثور عقـد فى جوانبه انتثر
والأقحوان فضاحك عن عسجد فيه درر
وشقائق النعمان كالـ أعلام ثم لمن نظر
وتورد الورد الذكـي وفاح مسكا فى السحر
وتجاوبت طير الغصو ن بكل لحن مشتهر
فمغرد حسن الغنا شدا وآخر قد زمر
وتسرقت أنفاسنا بنسيم أنفاس السحر(١)

من ذلك كله نستطيع أن ندرك إلى اى حد تطور الشعر فى مصر فى هذا العصر ، كما نلاحظ أن الشعراء عنوا بالمعانى كما أنهم عنوا بالألفاظ وتنسيقها وأكثروا من التشبيهات الرائعة التى أضافت إلى شعرهم جمالا ، كما نجد بعض الشعراء قد كلف بالزينة اللفظية وتعمدها كما كان يتكلفها أصحاب مسلم وأبى تمام ، وفى حديثنا عن الشاعر ابن جدار سنجد كيف تلاعب هذا الشاعر باللفظ تلاعباً غريباً لم نجد له مثيلا عند شعراء البديع .

---

(١) الديارات للشابشتى ورقة ١٢٨ وما بعدها .

أغراض أخرى للشعر :

أما فنون الشعر التى طرقها شعراء مصر فى هذا العصر فقد تحدثنا عن أكثرها كما أننا نجد شعراً كثيراً فى الرثاء كقصيدة محمد بن الحسن ابن زكريا فى رثاء الأخشيد التى أولها :

فى الرزايا روائع الأوجال والبرايا دريئة الآجال
وكذا الليل والنهار اعتبار للورى فى تفكر الأحوال
كل شىء وإن تمادى مداه قصره للفناء أو للزوال[١]

وكقول مهلهل بن يموت فى رثاء الأخشيد أيضاً :

أى عز مضى من الإسلام ! أى ركن أضحى جديث انهدام
ذاق موتاً محمد بن طغج هو ليث الشرى وغيث الغمام
فقد الناس مولى الإنعام فهم سائمون كالأنعام
مات رب العلا وراعى الرعايا والسرايا وكافل الأيتام[٢]

أما الهجاء فقد ذكرنا هجاء ابن أبى داؤد فى ابن طولون — وظهر فى هذا العصر الهجاء بين الشعراء ، كالذى كان بين صالح بن مؤنس ، وعبد الله بن أبى الجوع[٣] ، وفى هجائهما نرى شيئاً من الفحش كالذى كان فى هجاء جرير والفرزدق ، وهناك لون آخر من الهجاء لم يكن بين الشعراء ، إنما كان هجاء بين العلماء كالذى رأيناه فى العصور السابقة ، وبخاصة هجاء القضاة ، فابن

(١) هذه القصيدة بأكلها فى نهاية الأرب للنويرى جـ ٥ ص ١٨٤ .
(٢) هذه القصيدة بأكلها فى نهاية الأرب للنويرى جـ ٥ ص ١٨٦ .
(٣) يتيمة الدهر جـ ١ ص ٩٠٣ وما بعدها .

سكرة الشاعر هجا الحسين بن أبي الشوارب القاضي المتوفى سنة ٣٤٩ ﻫ بقوله :

ولقـد جنى قاضي القضـا ة حسين نجل أبي الشوارب
هـذا الذي هتـك الشرا ئع بالبـدائع والمثالب
هــذا المضمّر للفرو ج وللدماء بغير راكب[1]

وبالرغم من أن القاضي محمد بن أحمد بن الحداد — الذي ولي قضاء مصر سنة أربع وعشرين وثلثمائة من الهجرة — كان عالما فقيهاً حتى قال عنه ابن زولاق : كان فقيهاً متعبداً يحسن علوما كثيرة منها علم القرآن وعلم الحديث والأسماء والكنى والرواة والنحو واللغة واختلاف العلماء وسير الجاهلية وأيام الناس والأنساب ويحفظ شعرا كثيراً . غير مطعون عليه في قول ولا فعل مجموعا على صيانة وطهارة وكان من محاسن مصر حاذقا بعلم القضاء حسن التوقيعات . .[2] بالرغم من ذلك كله فلم يتركه خصومه من الهجاء فقد رميت في ولايته رقعة في الجامع فيها أبيات شعر منها :

قولوا لحدادنا الفقيـه العالم المـاهر الوجيه
وليت حكما بغير عهد وغير عقد نظرت فيه
ثم أبحت الفروج لمـا وقعت فيها على البديه
هذى فعال حملت فيها وزرك مع وزر من يليه
وهل ترى ذا ولست فيه بجائز من مخالفيه
أنكرت حالا من ابن عمرو ما أنت فيه ومرتضيه
والمكر في الناس داء سوء والعجب لمن يرتديه[3]

---

(١) الكندي ص ٥٤٦ (٢) شرحه ص ٥٥١ .
(٣) شرحة ص ٥٥٦ .

ولما بلغت هـذه الأبيات محمد بن موسى المعروف بسيبويه المصرى مدح ابن الحداد بقصيدة جاء فيها :

ما يضر البحر أمسى زاخرا   إن رمى فيـه صبي بحجر

والقاضى محمد بن بدر الذى ولى قضـاء مصر ثلاث مرات آخرها سنة تسع وعشرين وثلاثمائة ، هجا زميله القاضى ابن الوليد — الذى عزل عن القضـاء سنة ستة وثلاثين وثلثمائة — بقصيدة طويلة منها :

لو كنت تخشى قضيات المعاد لما
ألقيت فى كل أمر فاضح علما
أعمى عن الرشد فى كل الأمور فقد
أصبحت فى الدين بين النـاس متهما
يا ابن الوليد تدبر ما أتيت به
ولا تـكن للهوى مستكملا عمما
لو كنت تعلم قول الحق معتقداً
أو كنت تخشى عذاب الله معتصما
لما استعنت بجهاد اللعين وما
رأيت أنت له فى صالح قدما
جعلته كاتبا يمضى الأمور ولم
يمس فى العلم قرطاساً ولا قلما(١)

---

(١) الـكندى ص ٥٧٠ .

فهذا الهجاء يكاد يكون صورة لهجاء العلماء الذى رأيناه فى العصر السابق للعصر الطولونى .

من هذا كله نستطيع أن ندرك تطور الحياة العامة فى مصر ، وتطور الحياة العقلية والأدبية فيها ، وأن نقول إن مصر كانت عظيمة الحظ من العلوم الإسلامية والأدبية العربية ، وساهمت فى هذه الألوان المختلفة من الثقافات ، فظهر الأدب المصرى مصطبغاً بالصبغة المصرية الخالصة فاختلف الأدب المصرى عن الأدب فى الأقطار الإسلامية الأخرى .

الشعراء الوافدون :

وكانت الحياة فى مصر أيام الطولونيين والأخشيديين تجذب إليها شعراء وعلماء الأقطار الأخرى ، وتحبب إليهم المقام فى مصر أو الرحلة إليها ، وسأحاول أن ألم ببعض هؤلاء الشعراء الذين وفدوا على مصر فى ذلك العصر .

المتنبى فى مصر :

إذا تحدثت عن المتنبى فى مصر فلن أتحدث عن وفوده على كافور الأخشيدى ومدحه لهذا الأمير ثم هجائه له ، هذا كله معروف متداول ، حدث عنه كثير من الأدباء والمؤرخين ، وألموا بجميع نواحيه ، ولكنى سأحاول الحديث عما تركه الأدباء والمؤرخون ولم يتحدثوا عنه وهو أثر مصر فى المتنبى وأثر المتنبى فى مصر ، فلا أشك أن المتنبى كانت له صلة ببعض المصريين وأنه أنشد شعراً فى بعض الشخصيات المصرية غير كافور الأخشيدى وفاتك ، كما تحدثنا بعض الروايات أن من شعراء مصر من نقد المتنبى

وعاب شعره . وإذن فحياة المتنبي في مصر تكاد تكون حلقة من سلسلة حياته في حلب ، وأن العلماء والشعراء الذين كانوا في خدمة سيف الدولة الذين هاجموه واضطروه إلى الرحيل عنهم ، وجد أمثالهم في خدمة أمير مصر فهاجموه واضطروه إلى الرحيل أيضا .

وجد المتنبي في مصر خصما قويا في شخص الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة ، الذي وزر لأنوجور بن الأخشيد ثم لأخيه أبي الحسن علي ثم لكافور إلى أن انقضت دولة الأخشيديين . وكان عالما محدثا كما كان مكرما لأهل العلم والحديث وقد رحل إليه أبو الحسن الدارقطني وصنف له مسنداً ، وكتب الدارقطني عنه بمجالسه[1] ، كان يطمع ابن حنزابة في أن يمدحه المتنبي كغيره من الشعراء ، وروى ابن خلكان أن المتنبي نظم قصيدته التي أولها :

نادِ هواك صبرت أم لم تصبرا
وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

في مدح الوزير ابن حنزابة ، فلما لم يرضه صرفها عنه ولم ينشده إياها فلما توجه إلى عضد الدولة حول القصيدة إلى مدح ابن العميد[2] ، فمعنى هذا أن الوزير كان حاقدا على المتنبي لأن الشاعر لم يمدحه ، وكان الشاعر حاقداً على الوزير لأن الوزير لم يرضه فكانت نتيجة ذلك أن أخذ الوزير يغرى

---

(١) راجع ترجمته في ياقوت جـ ٧ ص ١٦٣ (طبعة فريد رفاعي بك) وابن خلكان جـ ١ ص ١١٠ .

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ١١١ .

الشعراء والعلماء بمعارضة المتنبي ، وكانت فرصة للشعراء المصريين الذين كانوا يحقدون على المتنبي ما بلغه من قوة الشعر وذيوع الصيت فكثر حساد المتنبي فى مصر ، منهم أبو القاسم ابن أبى العفير الأنصارى الشاعر ، الذى قيل إنه كان فى حضرة كافور الأخشيدى والوزير ابن حنزابة وأبى بكر بن صالح وكان المتنبي حاضراً ذلك المجلس ، فعارض المتنبي قول الأنصارى :

« نظر المحب إلى الحبيب غرام »

فقال المتنبي : إن العرب لا تقول إليه غرام ، وإنما تقول له . فقال الأنصارى : تقول إليه ولديه وله وحروف الخفض ينوب بعضها عن بعض!![1] ويخيل إلى أن أبا بكر بن صالح وابن حنزابة انتصرا للشاعر المصرى لأنه مدحهما وعرض بالمتنبي قوله :

أما الثناء فصادر بك وارد
باد بما تسدى إلى وعائد
لك يا أبا بكر إلى صنائع
أيقظن أحوالى وجدى راقد
أوليتنى نعما متى أنكرتها
شهدت علىّ مواهب وفوائد
وقصائد لى فيك لولا أنها
كلم شهدت بأنهن مشاهد
ولهن فى عين الولى شواهد
تترى وفى عين العدو جلامد

---

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٣٣ .

لما تعرض لى بمقت حاسد
أبدى الملام وكيف يرضى الحاسد
ما زال ينشد قائما حتى إذا
أنشدت عارضنى لأنى قاعد
فى مجلس أما الوزير فمنكب
فيه يؤيده وأنت الساعد
ولى ولا أنا شاكر لسؤاله
فيه ولا هو للاجابة حامد(١)

وورد فى كتاب الصبح المنبى وكتاب أخبار سيبويه المصرى لابن زولاق أن محمد بن موسى الملقب بسيبويه كان يقول : مدح الناس المتنبي على قوله :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدواً له ما من صداقته بد

ولو قال : ما من مداراته أو مداجاته بد لكان أحسن وأجود واجتاز المتنبي به ، فوقف عليه وقال : أيها الشيخ أحب أن أراك . فقال له : رعاك الله وحياك . فقال له : بلغنى أنك أنكرت على قولى :

« عدوا له ما من صداقته بد » فما كان الصواب عندك ؟ فقال له : الصداقة مشتقة من الصدق فى المودة ، ولا يسمى الصديق صديقا وهو كاذب فى مودته ، فالصداقة إذن ضد العداوة ، ولا

(١) شرحه .

موقع لها فى هذا الموضع ، ولو قلت ما من مدارته أو مداجاته لأصبت ، هذا رجل منا (يريد نفسه) قال :

أتانى فى قيص اللاز يسعى
عدو لى يلقب بالحبيب

فقال المتنبي : أمع هذا غيره ؟ قال : نعم

وقد عبث الشراب بوجنتيه فصير خده كسنا اللهيب
فقلت له متى استعملت هذا لقد أقبلت فى زى عجيب
فقال الشمس أهدت لى قيصاً مليح اللون من نسج المغيب
فثوبى والمدام ولون خدى قريب من قريب من قريب[1]

فتبسم المتنبي وانصرف ، وسيبويه يصيح عليه : أبكم الرجل وجلائل الله . .[2] وهذا الشاعر الذى عارض المتنبي هو أبو بكر محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى ولد بمصر سنة أربع وثلاثين ومائتين وتوفى فى صفر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة . كان عالما بعلوم القرآن والحديث أخذ عن النسائى وإسحق بن ابراهيم المنجنيقى والطحاوى وغيرهم وكان يعرف من النحو والغريب ما لقب بسببه بسيبويه ، وتفقه على مذهب الشافعي وتلمذ لأبى بكر بن الحداد ،

---

(١) يفهم من كتاب الصبح المنبي أن هذه الأبيات لسيبويه المصرى ، ولكن هذه الأبيات وردت فى يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٣٨ منسوبة الى محمد بن عباس البصرى .

(٢) الصبح المنبي ص ٦٣ وأخبار سيبويه المصرى لابن زولاق نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٢٠ ع تاريخ .

وأخذ علم الاعتزال عن الواسطى وجه المتكلمين بمصر إذ ذاك ، وكان يظهر الكلام فى الاعتزال فى الطرق والأسواق فيحتمل لما هو عليه ، وكان شاعرا من فحول الشعراء جالس أنوجور بن الأخشيد أمير مصر ، والحسين بن محمد المادرائى وزير مصر ، ونادمهما ، كما كان محبوباً عند جميع المصريين[1] .

وبجانب هؤلاء الشعراء الذين عارضوا المتنبي ، وجد آخرون صحبوا المتنبي وأخذوا عنه وحدثنا الثعالبي عن كثير منهم أمثال عبد الله بن محمد بن أبي الجوع[2] وصالح بن رشدين الكاتب وكان أحد أئمة الكتاب المهرة فى سائر الآداب صحب المتنبي وروى شعره[3] .

إذن انقسم الشعراء فى مصر بين حاسد للمتنبي وبين صديق له يروى عنه ، كما انقسم أمراء مصر فى أمره ، فكان ابن حنزابة الوزير ساخطا عليه لأن الشاعر لم يمدحه ، ولذلك هجاه المتنبي مع هجائه لكافور فقد قيل إن المتنبي قصد الوزير بقوله :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطى من أهل السواد يدرس أنساب أهل الفلا[4]

أراد بالنبطى الوزير ابن حنزابة ، بينما مدح المتنبي رجلا من

---

(١) راجع أخبار سيبويه المصرى فى معجم الأدباء . ويتيمة الدهر وكتاب أخبار سيبويه المصرى .

(٢) يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣١٤ (٣) شرحه ص ٣١٧ .

(٤) مسالك الأبصار العمرى نسخة خطية بدار الكتب المصرية . وابن خلكان جـ ١ ص ١١٢ .

قيس هو عبد العزيز الخزاعى زعيم أهل الحوف ، وهو الذى هيا للتنبي وسائل الهروب من مصر ، ولذلك قال فيه المتنبي :

لئن مر بالفسطاط عيشى فقد حلا
بعبد العزيز الماجد الطرفين

تناول ودى من بعيد فناله
جرى سابقاً فى المجد ليس برين

إذن اتصل المتنبي بالمصريين ، كما ألقى عليهم بعض العلوم فى مصر ويحدثنا الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام أن المتنبي قرأ كتاب « المقصور والممدود » لابن ولاد وأنه أخذ على مؤلفه غلطات وأن المتنبي أملا على المصريين ما أخذه على ابن ولاد من أخطاء . فإن صح هذا الخبر فإنه يدل على أن المتنبي لم ينقطع عن المصريين كما زعم القدماء بل كان يشارك فى الحياة العلمية والأدبية فى مصر [1]. وتحدث الأستاذ الدكتور طه حسين بك طويلا عن أثر مصر فى شعره المتنبي [2] فذهب إلى أن مصر اضطرت المتنبي إلى أن يعرف شيئا من الهدوء وإلى أن يكثر التفكير وإمعان النظر فى الحياة وإلى أن يحاول أن يستقصى أسرار الحياة ، فظهر فى شعره فى مصر رنة حزن وشكوى الدهر ثم ينتهى به الأمر إلى لون من السخرية بالدهر وحوادثه وإلى الاستهزاء بكل ما يمر به فى الحياة ، وأن يهزأ بالناس وبالمجتمع وبأمير مصر

---

(١) راجع ذكرى أبي الطيب للاستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام ص ٣٠٧ وما بعدها .

(٢) مع المتنبي للاستاذ الدكتور طه حسين بك من ص ٥١١ إلى ٦٤٦ .

الذى كان رفعه فى شعره وقد أسهب أستاذنا الجليل الدكتور طه بك فى ذلك كله فليرجع إلى كتابه الممتع ففيه كل غناء

الناشئان الأكبر والأصغر

أما الناشىء الأكبر ، فهو أبو العباس عبد الله بن محمد المعروف بابن شرشير أو الناشىء الأكبر ولد بالأنبار ، وأقام زمنا طويلا ببغداد ، وبها أنشد جل شعره ، وتلقى علومه التى عرف بها ، وتكسب بهذه العلوم ، فذاع فضله ، وانقاد له الشعر وفنونه ، حتى استطاع أن يعارض أشعار القدماء ، وباتساع علمه فى الكلام استطاع أن ينقض علل النحاة ، فرماه أعداؤه بالوسوسة ، ووشوا به ، فخاف قوة أعدائه ، فخرج إلى مصر يتجر بعلومه [1] . لم نعلم أن الناشىء الأكبر إتصل بأمير من أمراء مصر ، إذ أخذ من علمه وقوة فطنته مكتسباً يغنيه عن سؤال الأمراء ، فمكث فى مصر يعلم ما حذقه حتى سنة ثلاث وتسعين ومائتين .

كان هذا الشاعر قليل الحظ بعد مماته كما كان بائساً فى حياته ، فلم يعن بشعره أحد حتى ضاع ديوانه ، ولم يصلنا من شعره إلا النزر اليسير ، مع أن الرواة أجمعوا على أن الناشىء الأكبر يعد فى طبقة ابن الرومى والبحترى وأنظارهما[2] ثم هو يمتاز عن غيره من الشعراء بسعة اطلاعه فى العلوم ، وكان أستاذ أبى الحسن الأشعرى المعتزلى صاحب المذهب المعروف ، وقد وصلنا شىء من نظمه فى الكلام يدلنا على مقدرته واطلاعه ، فمن ذلك قوله :

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٦٣ (٢) شرحه .

ونحن أناس يعرف الناس فضلنا
بألسننا زينت صدور المحـــافل
تنير وجوه الحق عند جوابنـا
إذا أظلمت يوماً وجوه المسائل
صمتنا فلم نترك مجالا لصـامت
وقلنا فلم نترك مقالا لسائل(١)

ويروى البغدادى فى تاريخه أن للناشىء قصيدة واحدة فى فنون من العلم على روى واحد تبلغ أربعة آلاف بيت ، وروى ابن كثير فى « البداية والنهاية » قصيدة للناشىء فى نسب الرسول صلى الله عليه وسلم وهى طويلة تبلغ نحو ألف بيت ، ووصفها ابن كثير بقوله « وهذه القصيدة تدل على فضيلته وبراعته وفصاحته وبلاغته ، وعلمه وفهمه ، وحفظه وحسن لفظه ، واطلاعه واضطلاعه ، واقتداره على نظم هذا النسب الشريف فى سلك شعره ، وغوصه على هذه المعانى التى هى جواهر نفيسة من قاموس بحره »(٢) ، وأورد الحصرى فى كتابه « زهر الآداب » مقالا من كتاب للناشىء فى الشعر ، أوضح فيه معنى الشعر وأغراضه (٣) .

ولست أدرى أى شعر النـاشىء قيل فى مصر ، وأى كتبه التى ذكرها المؤرخون ألفت بها ولا شك أن الحياة العقلية والحياة الأدبية فى مصر كان لهما أثر كبير فى هذا الشاعر ، وربما أنشد النـاشىء بمصر

(١) زهر الآداب جـ ٤ ص ٣ .
(٢) البداية والنهاية نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية .
(٣) زهر الآداب جـ ٣ ص ٤٩ .

بعض أشعاره فى الصيد . فقد رأينا شعراء مصر فى هذا العصر كانوا يذهبون إلى الصحراء وتلال المقطم للمطاردة والصيد ، وقالوا أشعاراً فى ذلك ، فربما قلدهم الناشىء وتحدث فى جوارح الصيد وآلاته ، وما يتعلق به ، وربما أخذ كشاجم شيئا من أشعار الناشىء مستشهداً بها عندما وضع كتابه فى المصايد والمطارد .

أما الناشىء الأصغر فهو على بن عبدالله بن وصيف وكان متكلما بارعا كسميه [١] أخذ علم الكلام عن أبى سهل بن نوبخت المتكلم ، كما كان من كبار الشيعة . وفد على الكوفة سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وأملى شعره بجامعها ، وكان المتنبى وهو صبى يحضر مجلسه [٢] ، ووفد على سيف الدولة بحلب ومدحه ، ويحدثنا ياقوت أن الناشىء الأصغر قصد كافورا بمصر وامتدحه ، وامتدح ابن حنزابة وكان ينادمه [٣] ولكن لم يصلنا شىء من شعره فى مصر ، وتوفى سنة ست وستين وثلاثمائة ببغداد .

كشاجم

وفد على مصر فى ذلك العصر الشاعر الأديب أبو الفتح محمود ابن الحسين المعروف بكشاجم . وهو من أهل إقليم الرملة الذى كان تابعاً لمصر فى ذلك العصر ، ونفهم من ديوانه أنه جاء مصر عدة مرات . وكان كلما بعد عنها حن إليها . وإلى ما بها من رياض وحوائط ، وإلى حياة اللهو والمجون مما تصبو إليه نفس كشاجم الماجنة :

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٥٤ .

(٢) شرحه .

(٣) معجم الأدباء جـ ٥ ص ٢٣٥ (طبعة مرجوليت) .

قد كان شوقى إلى مصر يؤرقنى
فاليوم عدت وعادت مصر لى دارا
أغدو إلى الجيزة الفيحاء مصطحبا
طوراً وطوراً أرجى السير أطوارا
بينا أسامى رئيسا فى رياسته
إذ رحت أحسب فى الحانات خمارا
أما الشباب فقد صاحبت شرهم
وقد قضيت لبانات وأوطارا
من شادن من بنى الأقباط يعقد ما
بين الكثيب وبين الخصر زنارا[1]

أخذ كشاجم بحظ وافر من حياة اللهو التى كانت بمصر ، وذهب كما ذهب شعراء مصر إلى الأديرة ، فنى دير القصير كان كشاجم يتصيد الظباء لطعامه ، أو ليتخذ من لحمها ما يأكله مع شرابه ، بين عزف القيان وغنائهن .

سلام على دير القصير وسجنه
فجنات حلوان إلى النخلات
منازل كانت لى بهن مآرب
وكانت مواخيرى ومنتزهاتى
هنالك تصفو لى مشارب لذتى
وتصحب أيام السرور حياتى[2]

(١) ديوان كشاجم طبع بيروت سنة ١٣١٣ هـ .
(٢) ديوان كشاجم

فهذا يدلنا على أن الشاعر اختلط بالمصريين ، ولها كما لهوا ، والتمس من مجونهم ما يتحدث به فى هذا الشعر ، وتأثر بالبيئة المصرية الخالصة فوصفها فى شعره .

تدلنا حياة كشاجم على أن الشاعر كان متكسبا بشعره ، ولا ندرى بمن اتصل من المصريين ، وإن كنت أرجح أنه مدح كافوراً ثم عاد فهجاه ، وعرض به فى أشعاره ، فقد قيل إن الشاعر كان له غلام اسمه كافور فكان يهجو غلامه ويعرض بالأمير :

حكيت سميك فى برده   وأخطأك اللون والرائحة

كذلك هجا القاضى عبد الله بن محمد بن الخصيب المتوفى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، وكان القاضى قد اشترى داراً كبيرة ، وعمرها ، وأقام فيها دعوة عظيمة فقال كشاجم :

اشترى الدار الكبيرة   ودعا فيها الوكيره
صغر الباب وفى تصغـيره   أشأم طيره
قبره لا شك فيهـا   بعد أيام يسـيره[1]

وقال فيه أيضاً :

قبح الله الخصيـبى   فما أقبح أمره
اشترى الدار التى كا   نت قديماً لابن شعره
وهى الدار التى يبـتز فيها الله عمره
لا يتم الحول حتى   يجعل المجلس قبره[2]

ومهما يكن من شىء فإن كشاجما كان فقيراً ، متكسباً بشعره ، ولكنه لم يستطع أن يفوز بالمال الذى كان يريده . ولعل غروره

(١) الكندى ص ٥٧٨
(٢) شرحه .

واعتقاده بأنه نابغة عبقرى ، وأنه أشعر خلق الله وأكثرهم تأدبا ، لعل هذا كله كان سبباً فى شقائه ، فقد زعم أنه نبي الشعر :

على أنى نبى الشعـــــر قدجئت على فتره

ويخيل إلى أن كشاجما اتخذ مصر مقراً له ، فقد ترك بها أولاده وأسرته ، فقد روى الثعالبي أن الشاعر المصرى الهجاء صالح بن مؤنس هجا ابنى كشاجم أبا النصر وأبا الفرج بقوله :

يا ابنى كشاجم أنتما | مستعملان مجربان
مات المشوم أبوكما | فخلفتماه على المكان
وقرفتما فى عصرنا | ففعلتما فعل القران
لغلاء أسعار الطعا | م وميتة الملك الهجان[1]

* * *

ووفد على مصر فى ذلك العصر أبو الفيض سوار بن شراعة الشاعر الذى اتصل ببعض أدباء مصر وشعرائها ، وقد ذكرنا أنه كان صديقاً وفياً لابن الداية ، وكان سبب انتشار شعر ابن الداية فى العراق .

كما وفد على مصر عدد كبير غير الذين تحدثنا عنهم ، وقد يطول بنا الأمر لو تحدثنا عنهم جميعا . كما رحل عدد كبير من شعراء المصريين إلى الأقطار الأخرى ، فالشاعر المغنم المصرى أبو الحسن محمد بن سلمى الشيبانى كان من شعراء سيف الدولة[2] ، ورحل كثير من العلماء فى طلب العلم كغيرهم من علماء وشعراء الأقطار الأخرى ، فكانت الرحلة فى طلب العلم من أكبر المؤثرات التى ساعدت على انتشار الثقافات المختلفة ، وألوان المذاهب الأدبية والعلمية .

---

(١) يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣١٢

(٢) الفهرست ص ٢٤٠

لمحة عن أشهر شعراء ذلك العصر

ابن جدار :

هو أبو القاسم جعفر بن محمد بن أحمد بن جدار ، ذكره الصولى فى كتاب « أخبار شعراء مصر » وقال : لم يكن بمصر مثله ، كثير الشعر حسن البلاغة ، عالم . له ديوان شعر ، ومكاتبات كثيرة حسنة . .[١] ، كان كاتباً من كتاب الطولونيين ، وشاعرا من شعرائهم ، واختص بالعباس بن أحمد بن طولون ، فكان ينهى إليه كل ما كان يسمعه من الأخبار ، وينقل إليه ما يدور بقصر ابن طولون ، ويروى الحصرى : أن أبا حفص عمر بن أيوب كاتب أحمد بن طولون قال لابن جدار : يا أبا جعفر ، إنما مجلس المدام مجلس حرمة ، وداعية أنس ، ومسرح لبانة ، وندامهم ، ومرتع لهو ومعهد سرور ، وإنما توسطته عند من لا يتهم غيبه . ولا يخشى عتبه وقد اتصل بى ما تنهيه إلى أميرنا أبى الفضل ، أعز الله أمره ، من أخبار مجالستى ، فلا تفعل ! . . فاعتذر ابن جدار وحلف ما فعل ، وقام من مجلسه[٢] .

وكان لشعر ابن جدار أثر كبير فى عصيان العباس بن أحمد بن طولون ، فقد قيل إن العباس لما هم بالانخلاع عن طاعة أبيه ، كان مرتبك الرأى ، ولكن ابن جدار أنشده قصيدة يحرضه فيها على العصيان وجاء فى هذه القصيدة .

---

(١) معجم الأدباء جـ ٥ ص ٤١٥

(٢) زهرة الآداب جـ ٢ ص ١٤٣

إذا هممت فلا ترجع وقم وثب
فأنت أرفع من يسمو إلى الرتب[١]

ولما استبد العباس بالسلطان استوزر ابن جدار ، وخرج معه إلى برقة ، ولكن ظفر به أحمد بن طولون حين سيق له ولده الثائر وأصحابه الذين أيدوه فى حركته ، بل الذين دفعوه إليها ، فبنيت دكة عظيمة رفيعة السمك ، وأحضر ابن جدار من خاصة العباس ، فضرب ثلثمائة سوط ، وقطعت يداه ورجلاه ، وألقى من الدكة سنة ثمان وستين ومائتين[٢] .

كان ابن جدار صاحب لهو ، يميل إلى المجون ، مع أن غزله الذى وصلنا يدلنا على أنه عفيف ، مع رقة وعاطفة ، من ذلك قوله فى قينة أعجب بها وفتن بجمالها ، وطرب لصوتها

جاءت بوجـــه كأنه قمر
على قوام كـأنه غصن
ترنو بعينين من ليانهمـــا
من وسن فى جفونها وسن
غنت فلم يبق فى جـــارحة
إلا تمنت لو أنها أذن[٣]

ومع ميله إلى اللهو نراه قد أظهر شدة تدينه فى بعض أشعاره ،

---

(١) المغرب ص ٨٦ .
(٢) المقريزى ج ٢ ص ١١٥ والكندى ص ٢٢٤ .
(٣) معجم الأدباء جـ ٥ ص ٤١٥ .

فكان يطلب العفو ، ويستغفر ربه ، حتى نكاد نشك أن هذه الأشعار في الزهد هي من قول ابن جدار

يارب لى ألف ألف ذنب　　إن تعف يارب فاعف جماً
فابرد بعفو غليل قلب　　كأن فيه رسيس حمى[(١)]

ويمتاز شعر ابن جدار بكثرة تلاعبه بالألفاظ وتشبيهاته ، ولكن لم يصلنا من ديوانه الذى حدثنا عنه ياقوت عن الصولى إلا عدة أبيات قليلة مبعثرة في الكتب ، ومن شعره الذى أظهر فيه صنعته البيانية ، وتكلفه في قول الشعر حتى أن ابن عبد ربه قال عندما روى هذا الشعر : وقد يأتى من الشعر ما هو خارج عن طبقة الشعر منفرد في غرائبه وبديع صنعته ، ولطيف تشبيهه كقول جعفر بن جدار كاتب ابن طولون [(٢)] .

وطفلة رخصة المرائى　　ليست تجلى ولا تسمى
ألا وسلك من اللآلىء　　تعجز من يخرج المعمى
من طفلة بضة لعوب　　تلقاك بالحسن مستتما
منهن ريا وكيف ريا　　ريا إذا لاقت المشمى
تسحب ذيلين من خلوق　　قد أفنيا زعفران قما
كأنما أحنيا عليها　　من طيب ما بشرا وشما
فألفيا زعفران قم　　فانغمسا فيه واستحما
فهل تظن اسمها المريا　　يفوح لا مرطها المذما
هيهات يا أخت أهل يما　　غلطت فى الاسم والمسمى

---

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٤٢٨ .

(٢) العقد الفريد جـ ٣ ص ٤٣٦ .

لو كان هذا وقيل سم مات إذا من يقول سما
قد قلت إذ أقبلت تهادى كطلعة البدر أو أتما
لو كنت ممن لكنت مما لكننى قد كبرت مما
عاتبنى الدهر فى عذارى بأحرف فارعويت لما
قوس ما كان مستقيما وابيض ماكان مدلهما
وكيف تصبو الدمى إلى من كان أخا ثم صار عما
لى عنك يا أخت أهل يم شغل بما قد دنا وحما
فلست من وجهك المفدى ولست من قدك المحمى
أذهلنى عنك خوف يوم يحيا له كل ما أرما
ما كسبته يدى رهيناً خيراً وشراً أصبت ثما
تحشر فيه الجنان زفا وتحشر النار فيه زما
تقول هذى لطالبيها هيت ، وهذى لهم هلما
نفسى أولى بأن أذما من أمرها كل ما استذما[1]

فى هذه القصيدة ظهر تلاعب ابن جدار باللفظ مما أضعف المعنى وشوهه ، كما تظهر لنا وحدة القصيدة فى الشعر المصرى ، وعدم استقلال المعنى فى كل بيت كما ظن القدماء فى الشعر العربى .

منصور الفقيه

هو منصور بن اسماعيل بن عمر أبو الحسن التميمى المصرى الضرير ، كان إماما فى الفقه ، وفقه الشافعى على الأخص[2] ، ووضع

(١) هذه القصيدة بأكملها فى العقد الفريد جـ ٣ ص ٤٣٦ .
(٢) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ٣١٧ .

مؤلفات فى المذهب الشافعى منها « الواجب والمستعمل » والمسافر والهداية وغير ذلك[١] . اتفق ابن خلكان وياقوت[٢] على أن الشاعر ولد فى رأس العين بالجزيرة وأنه قدم مصر صغيراً ، وأخذ فيها جميع علومه كما أنه أنشد بها جل أشعاره ، وصار له منزلة رفيعة عند القاضى أبى عبيد ، بل صار من خواصه الذين كان يخلو بهم للمذاكرة والمحادثة ، ولكن حل البغض محل هذا الود ، وانقطع الإخاء بسبب المناقشات الفقهية ، فقد قيل إن أبا عبيد كان له كل عشية مجلس يذاكر فيه رجلا من أهل العلم ، وفى عشية منصور حدث بينهما مجادلات ، انتهت بخصام العالمين ، فتعصب الأمير « ذكا » وجماعة من الجند لمنصور ، وتعصب جماعة من العلماء على رأسهم ابن الربيع الجيزى للقاضى ، ثم حدث أن شهد ابن الربيع الجيزى على منصور بكلام زعم أنه سمعه منه ، فقال القاضى إن شهد عليه آخر بمثل ما شهد به ابن الربيع ضربت عنقه ، فخاف منصو خوفا شديداً حتى اعتل ومات سنة ست وثلاثمائة[٣] وقيل إنه كان حول نعشه آلاف من الجند ، أظهروا سب القاضى ، وقذفوه ، وندم القاضى نفسه على ما كان منه وتأسف على ما فاته من منصور .

رحل منصور إلى العراق حيث اتصل بالخليفة المعتز العباسى ومدحه بقوله :

ما واحد من واحد   أولى بمجد أو مروة
من أبوه وجــــده   بين الخلافة والنبوة[٤] .

(١) ابن خلكان جـ ٧ ص ١٢٥   (٢) معجم الأدباء جـ ٧ ص ١٨٥ .
(٣) ابن خلكان جـ ٢ ص ١٣٦   (٤) المغرب ص ٩٤ .

وكل الرواة يجمعون على جزالة شعره وجودته ، وأنه لم ينشد قصائد مطولة ، بل كل شعره مقطعات ، روى الحصرى عن شعره « وهو عالى المقطعات ، لا تزال تندر له الأبيات مما يستظرف معناه ويستحلى مغزاه ، ويبقى سناه »[1] . وأورد له الثعالبي كثيراً من الأبيات التى جرت مجرى الأمثال لدقة معانيها كقوله :

شاهد ما فى مضمرى من صدق ودى مضمرك
فما أريد وصفه قلبك عنى يخبرك[2]

وكقوله :

من قال لا فى حاجة مطلوبة فما ظلم
وإنما الظالم من يقول لا بعد نعم[3]

وعاب عليه بعض المصريين التفقه فأجابهم :

عاب التفقة قوم لا عقول لهم
وما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضر شمس الضحى والشمس طالعة
أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر[4]

ويخيل إلى أن الشاعر كان يكذب التنجيم الذى كان منتشراً بين طبقات الناس وظهر ذلك فى شعره .

من كان يخشى زحلا أو كان يرجو المشترى

---

(١) زهر الآداب جـ ٣ ص ٣٢١ .

(٢) لطائف المعارف نسخة خطية بمكتب الأزهر رقم ٥٦٢ .

(٣) شرحه (٤) طبقات الشافعية جـ ٢ ص ٣١٧ .

فإنى منـــــه وإن كان أبى منه برى[١]

وكقوله :

إذا كنت تزعم أن النجوم تضر وتنفع من تحتها
فلا تنكرن على من يقول بأنك بالله أشركتها[٢]

من ذلك يظهر شدة حرصه على دينه ، وعلومه الإسلامية الخالصة التى تنكر مثل هذه الأقوال التى انتشرت بين الناس ، ولا شك أن مثل هذا الرجل كان بعيدا كل البعد عن حياة اللهو التى جرفت أكثر شعراء مصر ، فكان هذا الشاعر يمثل طبقة الشعراء العلماء الذين لم يأخذوا بنصيب من تطور الحياة فى عصره .

ابن طباطبا :

كان بمصر بعض سلالة على بن أبى طالب . وأقاموا بها مكرمين معززين ، وكانوا على اتصال حسن بالولاة والأمراء ، لا يعنيهم من أمر البلد السياسى شىء ، فركنوا إلى الآداب والعلوم ، وأخذوا من هذه وتلك ، وأنشدوا الشعر ورووه ، فمن أعظمهم شأنا فى ذلك أبو القاسم أحمد بن محمد بن اسماعيل بن ابراهيم طباطبا بن اسماعيل ابن ابراهيم بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب[٣] كان عالما فاضلا ، وإليه كانت نقابة الطالبيين بمصر[٤] ، كما كان شاعراً ، وكان ابناه أبو محمد القاسم بن أحمد وأبو اسماعيل ابراهيم بن أحمد

---

(١) معجم الأدباء جـ ٧ ص ١٨٥ (٢) شرحه .
(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٩ (٤) المغرب ص ٤٩ .

شاعرين(١) وكان ابن ابنه الحسين بن ابراهيم شاعراً ، وقد روى لهم صاحب يتيمة الدهر بعض أشعارهم ، وإذن نستطيع أن نعد أسرة بني طباطبا في مصر من أسرات الشعر ، ولكن أكثر شعراء هذه الأسرة لم يكونوا في عصرنا هذا الذي نؤرخه ، — وسنعرض للحديث عنهم في بحثنا عن الأدب المصري في عهد الفاطميين — ويكفي أن نتحدث عن أبي القاسم أحمد بن محمد . درس هذا الشاعر الآداب وأكثر من إنشاد الشعر ، وظهر أثر دراساته في شعره ، فكان يميل إلى الأخذ بمذهب مسلم وأبي تمام في الإكثار من الزينة البديعية ، والتشبيهات وما إلى ذلك من ألوان الصنعة البيانية ، وأكثر شعره الذي وصلنا في الغزل ، والغزل المبني على القصص حتى يخيل إلينا أن الشاعر كان متأثراً بمذهب عمر بن أبي ربيعة ، ولكنه يختلف عن عمر ، فقد كان عفيفا في شعره ، وهذا أمر طبيعي لمن كان في مثل مكانته الأدبية والدينية ، فغزله يقوم على الوصف والحوار دائماً كقوله :

عيّرتني بالنوم جوراً وظلما   قلت : زدت الفؤاد هما وغما
لم أنم لذة ، ولا نمت إلا   طمعاً في خيالكم أن يلما(٢)

وكقوله أيضا :

قالت : أراك خضبت الشيب . قلت لها :
سترته عنك ياسمعي ويا بصري
فاستضحكت ثم قالت من تعجبها
تكاثر الغش حتى صار في الشعر(٣)

---

(١) يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣٣٠ (٢) شرحه جـ ١ ص ٣٢٩ .
(٣) شرحه

ويخيل إلى أن ابن طباطبا أصيب بفقد حبيب عزيز لديه ، إذ ظل يذكره حينا بعد حين ، ويكثر من الحديث عنه فى شعره ، فقال مرة :

خليلى إنى للثريا لحاسد ... وإنى على صرف الزمان لواجد
أيبقى جميعا شملها وهى سبعة ... وأفقد من أحببته وهو واحد
كذلك من لم تخترمه منية ... يرى عجبا فيما يرى ويشاهد [١]

وقال مرة أخرى :

لا والتى تركتنى يوم فرقتها ... كأنما الرمل فى عينى منثور [٢]

وقال مرة ثالثة :

ما اخترت تبديل المودة ساعة ... بعد الذى هجر الحمى وجفانى [٣]

ومن يدرى لعل هذه الأشعار قيلت فى زوجه التى تكون قد توفيت وتركته ينشد مثل هذه الأشعار فيها .

ولابن طباطبا بعض المقطعات فى الخمر كقوله فيها :

يا بدر بادر إلى بالكأس ... فرب خير أتى على يأس
ولا تقبل يدى فإن فمى ... أولى بها من يدى ومن رأسى
لاعاش فى الناس من يلوم على ... حبى وعشقى لأحسن الناس [٤]

وكقوله :

قل للذى حسنت منه خلائقه ... باكر صبوحك واسبق من تسابقه
أما ترى الغيم مجموعا ومفترقا ... يسير هذا إلى هذا يعانقه
كعاشق زار معشوقا يودعه ... قبل الفراق فآلى لا يفارقه [٥]

---

(١) المغرب ص ٤٩ (٢) المغرب ص ٤٩ .
(٣) شرحه ص ٥١ (٤) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٢٩ . (٥) شرحه

وقد ذكرنا أن ابن طباطبا يعد من أقدر شعراء مصر فى هذا العصر فى وصف الطبيعة ومحاكاتها ، ولعل ما قاساه من فراق من أحب جعله يهيم إلى أحضان الطبيعة يناجي من غاب عنه ، ليأخذ من الطبيعة سلوة ، أنظر إلى قوله :

رب ليل صحبته كاسف البا ل كئيباً حليف هم شتيت

تحت سقف من الزمر د قد رصع بالدر والياقوت

اختلف المؤرخون فى وفاة ابن طباطبا فذكر ابن سعيد عن القرطى أنه توفى سنة اثنتين وخمسين ثلاثمائة[1] ونقل ابن خلكان عن المسبحى أنه توفى سنة خمس وأربعين وثلاثمائة [2] وقال صاحب « مطالع البدور فى منازل السرور » أنه توفى سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة[3].

خاتمـــــــة

لعلك أدركت الآن كيف تطورت مصر فى هذا العصر منذ دخلها العرب فاتحين ، ثم استقروا بها ، حتى دخلها جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة من الهجرة ، وانتزع مصر من الأخشيديين ، فقد كان أثر العرب فى مصر كبيراً جداً ، تدركه فى تحول المصريين عن لغتهم اليونانية والقبطية واتخاذهم اللغة العربية لغة للتخاطب ولغة لآدابهم ، ثم تدركه فى هذه الدراسات الإسلامية والعربية وازدهار هذه الدراسات فى مصر ، حتى صارت

(١) المغرب ص ٥١

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٠ (٣) ج ١ ص ٣٦

مركزاً من مراكز الحياة العقلية فى الأقطار الإسلامية .

ومع ذلك كله فقد استطاعت مصر أن تحتفظ بشخصيتها ، فقد اضطرت العرب إلى أن يندمجوا فى المصريين ، وأن يكون الجميع شعباً واحداً هو الشعب المصرى الإسلامى .

وقد تلقت مصر جل المدنيات القديمة ، وأخذت منها بحظوظ تختلف قوة وضعفاً ، ولكن مصر استطاعت أن تمصر هذه المدنيات جميعاً ، فلما أن جاءها العرب والمسلمون يحملون الثقافة الإسلامية العربية ، التقت هذه الثقافة بالثقافات التى كانت فى مصر قديماً ، وامتزجت هذه الثقافات جميعاً ، فكان ثمرة هذا المزج هى الثقافة المصرية الإسلامية التى ظهرت بعد ذلك العصر الذى أرخناه فى هذا الكتاب .

ولعلك أدركت أيضاً أثر مصر فى الشعر الذى أوردنا لك صوراً منه ، فإنك لم تر المعانى البدوية القديمة ، ولا تشبيهات الجاهليين أو شعراء الأمويين ، وظهر فى شعر المصريين الآراء المصرية والحوادث المصرية ، التى لا تصدر إلا عن قوم عاشوا فى مصر . وإذن فقد كان أثر مصر فى الشعر كبيراً كما كان أثرها فى العلم كبيراً .

(وبعد) فهذا البحث الذى تحدثت فيه عن مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ما هو إلا مقدمة لبحث آخر ، أرجو أن أقدمه للطبع قريباً وهو بحث — الأدب فى مصر الفاطمية — وهو تاريخ الأدب فى العصر الذى أصبحت فيه مصر زعيمة الأقطار الإسلامية فى الآداب والعلوم .

ثبت بالمراجع والمصادر

آثار البلاد للقزويني	طبع جوتنجن ١٨٤٨ م
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا للمقريزي	« ليبسك ١٩٠٩ م
أحسن ما سمعت للثعالبي	« مطبعة الجمهور بمصر ١٣٢٤ هـ
أخبار سيبويه المصري لابن زولاق	نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٢٠ ع تاريخ
أخبار قبط مصر للمقريزي	طبع جوتنجن ١٨٤٥ م
أخبار مصر لعبد اللطيف البغدادي	« أكسفورد ١٨٠٠ م
أدب النديم لكشاجم	« بولاق ١٢٩٨ هـ
الأغاني للأصفهاني	« مطبعة الجمهور ١٣٢٣ هـ
أنباء الرواة على أنباء النحاة للقفطي	نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٩ تاريخ
الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق	جـ ٤ و ٥ طبع بولاق ١٣٠٩ هـ
الأنساب للسمعاني	طبع ليدن ١٩١٢ م
بدائع البداية لابن ظافر المصري	« بولاق ١٢٧٨ هـ
بدائع الزهور لابن إياس	« « ١٣١١ هـ
بغية الوعاة للسيوطي	مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٦ هـ
البيان والاعراب عن نزل مصر من الأعراب للمقريزي	مطبعة المعارف ١٣٣٤ هـ
تاريخ ابن الأثير	طبع بولاق ١٢٩٠ هـ
« ابن خلدون	« « ١٢٨٤ هـ
« ابن الراهب	« بيروت ١٩٠٣ م
« أبي صالح الأرمني	« أكسفورد ١٨٩٤ م

تاريخ الطبرى	طبع المطبعة الحسينية بمصر
« الاسلام للذهبي	نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ
« الأمة القبطية	طبع مطبعة التوفيق ١٩٢١ م
« التمدن الاسلامى	« « الهلال
« يحيى بن سعيد	« بيروت ١٩٠٥ م
« اليعقوبى	« ليدن ١٨٨٣ م
« ووصف الجامع الطولونى للاستاذ عكوش	« دار الكتب ١٩٢٧ م
تراجم رجال صحيح البخارى	نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٣١٤ (حديث)
تحفة المجالس للسيوطى	طبع دار السعادة ١٣٢٦ هـ
تهذيب الأسماء للنووى	القاهرة ١٣٤٥ هـ
ثمرات الأوراق لابن حجه	على هامش محاضرة الأدباء
الجامع فى الحديث لعبد الله بن وهب	نسخة فتوغرافية بمكتبة جامعة فؤاد الأول
الجوهر النفيس فى أشعار الامام ابن ادريس	طبع مطبعة النيل ١٣٢١ هـ
حديث الأربعاء للأستاذ الدكتور طه حسين بك	الطبعة الأولى ١٣٤٤ هـ
حسن الجمع فيما قيل فى قصر الشمع	نسخة فتوغرافية بالمكتبة الأميرية رقم ٢٥٤٤
حسن المحاضرة للسيوطى	طبع دار الوطن ١٢٩٩ هـ
حلبة الكميت للنواجى	« « « ١٢٩٩ هـ
الخريدة النفسية فى تاريخ الكنيسة	الطبعة الثالثة ١٩٢٣
در السحابة فيمن نزل مصر من الصحابة للسيوطى	نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٣٩ م

الدر المنظوم فيما ورد فى مصر من موجود ومعدوم للجوهرى	نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٨٦٣
دمية القصر للباخرزى	طبع حلب ١٩٣٠
الديارات للشباشتى	نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٧٥٦
ديوان أبى تمام	طبعة محى الدين الخياط
« ابن قيس الرقيات	طبع فينا ١٩٠٢
« كشاجم	« بيروت ١٣١٣ هـ
« المتنبى	« مصطفى محمد
« أبى نواس	« مصر ١٢٧٧ هـ
ذكر دخول قبط مصر فى دين النصرانية للمقريزى	« ١٨٢٨ م
ذكر ديار مصر	« جوتنجن ١٧٧٦ م
الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية لابن حجر	« بولاق ١٣٠١ م
رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر	نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٠٥
زهر الآداب للحصرى	المطبعة الرحمانية ١٣٤٥ هـ
سيرة الآباء البطاركة لابن المقفع	طبع بيروت ١٩٠٧
سيرة ابن طولون لابن الداية	« برلين ١٨٩٤
صبح الأعشى للقلقشندى	« دار الكتب المصرية
طبقات الشافعية السبكى	المطبعة الحسينية ١٣٢٤ هـ
الطبقات الكبرى لابن سعد	طبع ليدن ١٣٢٢ هـ
العقد الفريد لابن عبد ربه	« مصر ١٩٢٨
العمدة لابن رشيق	« « ١٩٢٥
فتوح مصر للواقدى	ليدن ١٨٢٥
فتوح مصر لابن اسحق الأموى	مصر ١٢٧٥ هـ

فتوح مصر لابن عبد الحكم	طبع نيوهافن ١٩٢١
الفخرى لابن الطقطقى	مصر ١٣١٧ هـ
الفهرست لابن النديم	طبع مصطفى محمد
فضائل مصر للكندى	نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٢
فضائل مصر لابن زولاق	نسخة خطية بمكتبة الازهر رقم ٦٦٩
فوات الوفيات لابن شاكر	بولاق ١٢٨٣
كتاب الولاة والقضاة للكندى	طبع ليبسك ١٩٢٥
مجالس أبى مسلم	نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٧٧ ش
محاضرات الأدباء	طبع مصر ١٢٨٧ هـ
مختصر تاريخ الدول لابن العبرى	اكسفورد ١٦٦٣
مروج الذهب للمسعودى	بولاق ١٢٨٣
مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى	ج١ طبع دار الكتب ١٩٢٤ والباقى نسخ خطية بدار الكتب المصرية رقم ٢٣٦
معجم الأدباء لياقوت	
معجم البلدان «	
المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد	نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٠٣ م الجزء الرابع طبع ليدن ١٨٩٨ م
المكافأة لابن الداية	طبع مصر ١٩٢٤ م
النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى	« دار الكتب المصرية
نهاية الأرب للنويرى	« دار الكتب المصرية
الوافى بالوفيات للصفدى	نسخة خطية بالمكتبة التيمورية
وفيات الأعيان لابن خلكان	مصر ١٣١٠ هـ
يتيمة الدهر للثعالبى	طبع بيروت

مراجع افرنجية

Butcher : The Story of the Church of Egypt (London 1897).
Butler : The Arab Conquest of Egypt (Oxford 1902).
: The Ancient Coptic churches of Egypt (Oxford 1884).
Corbett : The Life & Works of Ahmed Ibn Tulun (J R A. S. 1891).
Encycloepedia Britannica.
Encycloepedia of Islam.
Galtier : Contribution à l'Etude de la Litterature Arabe, Copte (Cairo, 1905).
Grohman : Arabic Papyri in the Egyptian Library.
Hugh : The Monastries of the Wadi'n Natrûn (V.I.New York.)
Lane-Poole : Mohammedan Dynasties London 1849).
: History of Egypt in the Middle ages (London 1925).
The Arts of the Saracens in Egypt (Londod 1868)
Marcel : L'histoire d'Egypte (Paris 1848).
Milne : A History of Egypt under Roman Rule.
Nicholson : A Literary history of the Arabs.
Quatremère : Mémoires Geographiques et Historiques sur l'Egypte et sur quelques contrées voisines (Paris 1811).
Recherches sur la langue et la litterature de l'Egypte (Paris 1808).

الثمن ٢٥ ص

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر لصاحبها محمود الخضري